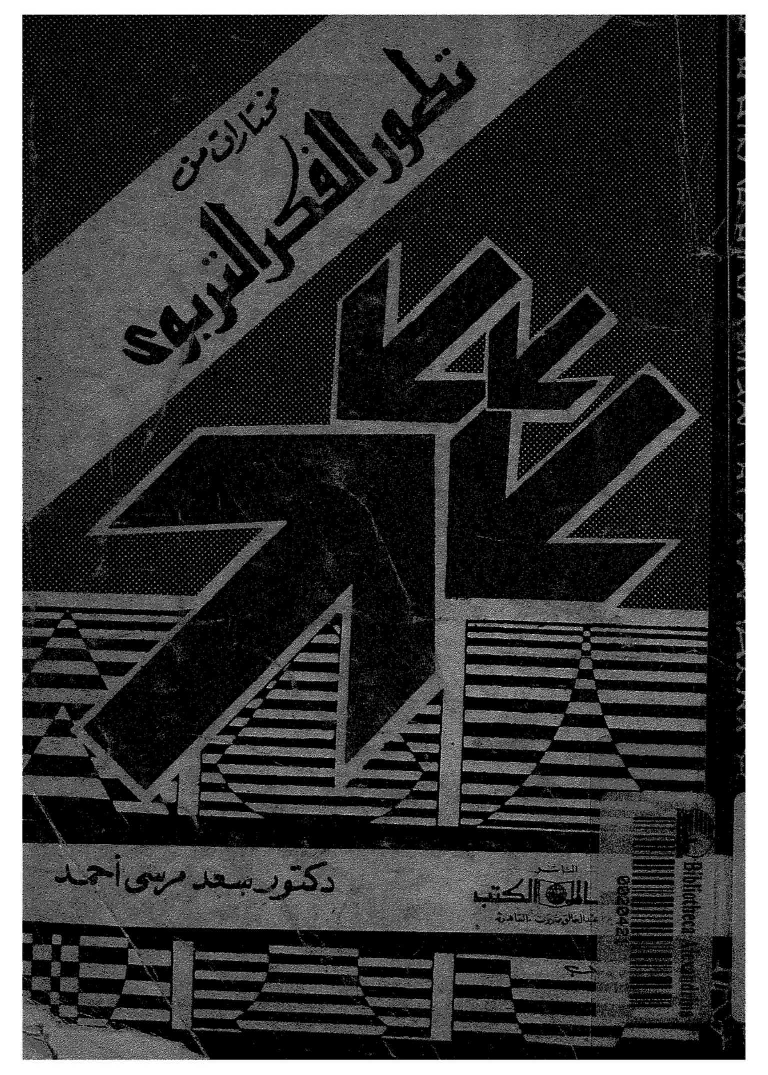

مختارات من
تطور الفكر التربوي
دكتور سعد مرسي أحمد
الناشر
عالم الكتب
عبد الخالق ثروت - القاهرة

مختارات من
تطور الفكـر التربـوى

مختارات من

تطور الفكر التربوي

دكتور سعد مرسي أحمد

أستاذ أصول التربية

وكيل كلية التربية - جامعة عين شمس

عميد كلية التربية بالاسماعيلية

والعريش «قديماً»

جامعة قناة السويس



مختارات من

تطور الفكـر التربـوى

بســـم الله الرحمن الرحيــم

مقدمـــة

هذا كتاب يستل بعض الفصول من كتاب (تطور الفكر التربوى) بهدف اعطاء الطالب لمحات عما حدث عبر التاريخ فى ميدان الفكر التربوى .

وقد تم الاختيار على أساس أن تمثل العصور التاريخية تمثيلا واضحا بحيث يأخذ القارىء فكرة قريبة من التكامل عن مسار التفكير فى أمور التربية .

ولا يوجه الكتاب إلى طلبة الدراسات العليا الذين يمكنهم بحكم خبراتهم ونموهم العلمى أن يفيدوا من الكتاب الأصلى الذى تصدر منه الطبعة الثامنة .

والله الموفق ...

سعد مرسى أحمد

مصر الجديـــدة
أول اكتوبر ١٩٨٣

الفصل الأول

عن دراسة تاريخ الفكر التربوى

الفصل الأول

عن دراسة تاريخ الفكر التربوى

موضوع هذا الكتاب « تطور الفكر التربوى » ولا نستطيع أن نتصور دراسة تطورية دون الرجوع إلى الماضى والنمو معها إلى الحاضر . على أننا نتوقع اهتماماً أساسياً بالأفكار التربوية التى نادى بها أفراد عن قصد وعمد أو جاءت فى ثنايا كتاباتهم وتشريعاتهم دون أن يضعوا لها عنواناً مميزاً .

وقد تكون معالجة تطور الفكر التربوى بأن يتحول هذا الكتاب إلى فصول يختص كل فصل منها بدراسة حياة وآراء أحد المربين أو الفلاسفة الذين أدلوا بدلوهم فى التربية وميادينها . وقد لجأ إلى هذا السبيل روبرت يوليك فى كتابه « تاريخ الفكر التربوى » . ويعترف فى مقدمة كتابه (١) بأن الوقت قد حان لكتابة تاريخ للفكر التربوى لا يقتصر على المفكرين الغربيين فحسب ، وما العالم الغربى إلا جزء من مدنية البشر . ثم يضيف قائلا إن الغرب نسى فى غمرة غروره وبالرغم من دسامة تراثه الفلسفى أنه لم يكن مهداً لديانة عالمية ، وقد ظهرت ديانات فى الشرقين الأوسط والأقصى متخذة قارة آسيا دون قارات العالم مصدراً للديانات الكبرى ، وأن هذه الديانات قد قدمت لتربية الإنسان أضعاف ما قدمه فلاسفة الغرب .

ثم يقدم لنا يوليك المفكرين التربويين فى فصول متفرقة ، فيبدأ بأفلاطون ثم أرسطو ثم بلوتارك ثم كوينتليان ثم السيد المسيح ثم ينتقل إلى الكنيسة القديمة ثم الكنيسة فى العصور الوسطى ثم الحركة الإنسانية (ويتناول على الخصوص الكلاسيكيين الأوائل ولوثر وإيرازمس وطريقة الجزويت فى

---

(١) Ulich, Robert : History of Educational Thought, p. VII.

التربية ثم مونتانى) ، ثم يعرج يوليك بعد ذلك إلى عرض الطريقة الحديثة فى التفكير (ويتناول على الخصوص فرنسيس بيكون ، ورينيه ديكارت ثم جاليليو) . ثم يتناول يوليك فى الجزء الأكبر من كتابه من يطلق عليهم « جمهرة المربين » وهم كومنيوس وجون لوك وجان جاك روسو وبنجامين فرانكلين وبستالوتزى وهاربارت وفروبل وإمرسون ، ثم يختم هذه الجمهرة بجون ديوى .

وسوف يلاحظ القارىء ، أو قد يعرف سلفاً ، أن بين هذه الأسماء الفلاسفة ورجال الدين .

ولن أتبع طريقة يوليك فى تقديم تاريخ الفكر التربوى فى فصول يشتمل كل فصل منها على مفكر أسهم فى هذا الميدان بآراء استحقت أن تتبوأ مكانها فى التاريخ . وإنما سوف تكون « التربية » محوراً وركيزة فى علاقاتها مع الدولة ومع الفلسفة ومع الاقتصاد .

ولكن الموضوع كما بينت مرتبط كل الارتباط بالتاريخ ، ولذلك فسوف أكرس هذا الفصل للحديث عن التاريخ ودراسته ، وكيف أن الدراسة الصحية للتاريخ ، كما أتصور ، أساسية فى فهمنا للتطور التاريخى للفكر التربوى ، وعن التاريخ نتناقش .

ولو أن إنسان اليوم يهتم أشد الاهتمام بما يشغل حياته كالمواصلات والملابس وأدوات التسلية واللهو ، فهو مع ذلك أكثر حساسية بحوادث التاريخ وما سلف من الأخبار . وقد قدم المؤرخون فى المائة سنة الأخيرة مادة تاريخية يمكن أن يعتمد عليها ، فهى قد خضعت لأساليب علمية فى البحث ، بين الآثار فوق الأرض وتحتها ، وبين صفحات الكتب القديمة والبقايا التى ألقت أضواء على الماضى . واهتمام المؤرخين المحدثين بالماضى يمكن أن يظهر بريقه إذا عرفنا أن مؤرخاً يونانياً قديماً هو ثايكيديديس بدأ تاريخه عن الحرب البلليبونيسية قائلا إنه لم يحدث قبل عصره شىء مهم . أما مؤرخو اليوم فلديهم كلام كثير عما حدث قبل هذه الحرب من أحداث

فى العالم وقتئذ ، فى بلاد الإغريق وقبلها فى مصر والصين .

ويفخر التاريخ اليوم بأن الروح والاتجاهات العلمية قد عرفت طرائقها إليه . ولم يعد التاريخ مجرد سرد لأحداث يعتمد على الأسلوب الفنى والأدبى والتفكير الفلسفى . الموضوعية يجب أن تكون رائد كاتب التاريخ . ولكن المؤرخ فنان فى عرضه للتاريخ ، فالمؤرخون منذ هيرودوت إلى توينبى قد اتصفوا بقدراتهم على تصوير الأحداث ... ولكن هل كانت الصور صادقة ؟

دارس التاريخ المخلص يحب فى التاريخ صدقه وبعده عن الحوادث المزوقة والتى لفها المؤلف فى رداء من المغريات اللغوية ، إنما هو يحب التاريخ منزهاً ومطهراً من الإضافات التى تهز صدقه .

على أن المؤرخ كما يقول مولر (١) يجد نفسه متأثراً بعوامل شخصية ، ويقول « ليس هناك تاريخ نقى لم يسجل من وجهة نظر شخصية ما لصالح شخص ما » . وفى رأيه أن كاتب التاريخ يضع نفسه فى الصورة ، ثم هو يكتب بقدر ما وصل إليه من قدر من الحقائق التاريخية ، وقد تغيب عنه حقائق لها أهميتها القصوى . كما أنه يكتب عن بعض ما حدث لا عن كل ما حدث . وهو الذى يقدر أيها المهم والأهم وأيها الأقل أهمية .

والتعميم فى التاريخ ووضع قواعد عامة بدقة وتأكيد علمى أمر غير ممكن . فنحن لا نستطيع أن نعزل أو نقيس القوى المتعددة المتوقعة وغير المتوقعة التى تؤثر فى الحدث التاريخى . من هذه القوى البيئة الطبيعية وضغوط الثقافات المجاورة والمخترعات والاكتشافات وعبقريات القادة والزعماء والمؤسسات الاقتصادية والسياسية والدينية .... وهذه تتفاعل بعضها مع البعض . ونتاج التفاعل ليس من السهل التنبؤ به . وإذا اعترفنا أن لكل من هذه العوامل أهميته وأثره مضافاً إليه ما فى طبيعة الأفراد من ميول واتجاهات قابلة للتغير والتحول ، فاننا قد نستطيع القول بأن التاريخ لا يعيد نفسه . قد تتشابه الحوادث شكلا . ولكن اختلاف الزمان والمكان يحتم تغيراً .

---

(١) Muller. H. : The Uses of the Past, p. 38.

ومع ذلك فالإنسان هو صانع هذه الحوادث كما أنه الكائن الوحيد الذى كون لنفسه ثقافة . وقد بينت أن الثقافة تعنى بيئة من صنع الإنسان . وقد ساعده على بناء ثقافته عجزه فى طفولته ، فطفولة الكائن البشرى ضعيفة وطويلة تتيح له الفرص لتعلم ما أنجزه الكبار ممن يعيشون معه أو عاشوا فى أزمان سابقة . بل وأحياناً فى بلاد نائية .

لكن هناك قوى غير مرئية فى هذه البيئة التى صنعها الإنسان (ثقافته) ولهذه القوى سيطرة شديدة عليه ، بل إنها أخضعته إليها فضحى بحياته فداء هذه القوى وتعذب وتألم وصام وتخلص من الملذات ... وربما متحدياً بذلك قوانين طبيعة جسمه واحتياجاته ...

ومع هذا فان الإنسان قد خلق ثقافته ويعيش فيها محققاً بذلك نصراً لعقله وإرادته ، وابتكر واخترع وطور ... أما القوى الخفية ذات السلطة الجبارة فانها تعمل من خلال أفكاره ومعتقداته . وقد يحلو لبعض الفلاسفة مثل فخته وهيجل وكارلايل أن يروا فى العظماء من الرجال وكلاء لهذه القوى الجبارة.. وهنا يقفز السؤال ، هل هؤلاء الرجال صنعوا التاريخ أم أن التاريخ صنعهم ؟ ولعل المشكلة الحقيقية تتبلور فى تحديد أثر هؤلاء العظماء على بيئاتهم وأثر بيئاتهم عليهم . من الممكن الاستغناء عن بعض العظماء ، ففى رأى أنه لو لم يكتشف كولمبس أمريكا لاكتشفها غيره ، ولو لم يخترع وات القاطرة البخارية لاخترعها غيره ؟ ؟

ومن الواجب أن يتشبع حكمنا لما دار فى التاريخ بالتعقل ووزن الأمور ، فلا نحكم على الأحداث والأشخاص بمعاييرنا الحاضرة ، ولذلك نتلمس الأعذار لأرسطو عندما لم يجد غضاضة فى أن يكون فى المجتمع سادة وعبيد ، وأن ننظر بغضب إلى حرق المسنات من النساء لأنهن اشتغلن بالسحر والشعوذة ولعل الذين أمروا بحرقهن والذين شاهدوا عملية الحرق بفرح وتلذذ ، لعل هؤلاء وأولئك كانوا مدفوعين بعوامل دينية أكدها جهلهم وضيق أفقهم . ومع ذلك فلا نستطيع إلا أن نصفهم الآن بالقسوة وأن نصف غيرهم

بالتعصب الأعمى وغيرهم بالهمجية والبربرية والوحشية ... هل ننظر إلى أعمال هولاكو المدمرة وغزوات جانجيز خان الساحقة إلا بهذه الصفات ؟

ثم نتطور مع سلسلة التاريخ إلى يومنا هذا ونتطلع إلى العالم المحيط بنا ، بما فيه من توترات وتحزبات . وقد بدأ مؤرخو الغرب ييممون وجوههم شطر الكنوز الفكرية التى خلفها الشرق والتى لم يلق إليها إلا اليسير من الاهتمام فى الماضى . وهربرت مولر مفكر غربى له مكانته يقول (١) .. « ولعل أقبح مثال هو التعصب العنصرى .. فان بعض المؤرخين ما زالوا يرددون القول بأن الجنس الأبيض هو خالق المدنية الحديثة وأن سكان الشمال والانجلوساكسون هم أعمدة هذه المدنية .. إن هذه الفكرة البغيضة الوقحة ما زالت تجد صدى عند الكثيرين . وتجد فكرة التميز العنصرى صدى عميقاً فى عالم الانجلوساكسون ولا يقبلون مطلقاً أى إشارة للتزاوج بين أبيض وملونة أو العكس ... ولم يكن لهذه التفرقة شواهد تؤيدها عبر التاريخ .

وحيث إن معظم سكان العالم هم ممن يطلق عليهم الأمريكيون صفة الملونين وبالتالى فهم أدنى فى المستوى ، فيصبح من الضرورى أن نعيد القول بأن هذا الاتجاه ممعن فى التعصب ، ولا يتفق مطلقاً مع الديمقراطية والمسيحية ، كما لا يستند إلى أسس علمية . وليس هناك جنس نقى تمام النقاء ، ولا تمثل الاختلافات بين الأجناس إلا جزءاً صغيراً مما يرثه الفرد البشرى ... وحتى هذه الفروق الواضحة بين لون بشرة أبيض وأصفر ، ورءوس طويلة ورءوس عريضة ، وشعر مستقيم وشعر مفلفل ... كل هذه الفروق وغيرها لا قيمة تذكر لها عندما نتحدث عن البقاء . وقد أثبت التاريخ أن تمازج الأجناس تمخض عن عصور ذهبية . ولم نعرف أن جنساً واحداً قاد المدنية عبر عصورها ، فكل الأجناس كانت قادرة على التقدم والتطور » .

ومن أصناف التحيز والتعصب ، القوميات والأديان . خير فى أن يعتز ويفخر الفرد بقوميته وديانته ولكن ليس من الخير أن يحارب البقاء مع

(١) Muller, Ibid., p. 44.

قوميات وديانات أخرى . من السفه أن نحقر معتقدات الغير ، ولن نقبل أن يسخر أحد من معتقداتنا وديننا . خير كثير فى أن نأخذ مما عند الغير ما يتناسب مع معتقداتنا وأن نقبله بين ظهرانينا أخاً فى البشرية إذا عرف هو نفسه معنى الأخوة فلم يهددنا فى آمالنا ومعتقداتنا وأرزاقنا . ومن الخير الكثير أن يتسع الأفق وأن نرى أنفسنا جزءاً فى عالم نتأثر به ونؤثر فيه . وفى هذا الصدد يحدثنا المؤرخ الكبير توينبى فيقص عن الامبراطور بابور الذى تربع على عرش إمبراطورية الهند حوالى عام ١٥٠٠ م ، وكان واحداً من الأتراك الذين ركبوا للغزو والفتح ومدوا سلطانهم من منغوليا فى الشرق إلى الجزائر فى الغرب ، وسيطروا على معظم العالم المتمدين وقتئذ إلا الصين . وعرف بابور ، كرجل مثقف عالم ، أن فئة من الناس اسمهم الفرنجة البرابرة قد جاءوا منذ مدة إلى الأرض المقدسة ثم طردوا منها ، وكان مجيئهم مهدداً للمدنية . وعلم أن هؤلاء الكفرة ما زالوا يعيشون فى شبه جزيرة ممتدة من آسيا واسمها أوربا . ولم يستحق هؤلاء الفرنجة البرابرة منه أى اهتمام فلم يذكرهم فى كتاباته : كما أنه لم يدر أنهم وصلوا فى بعض المراكب إلى شواطىء الهند ونزلوا البر وأقاموا فى أماكن متفرقة ... ولم يكن يتصور أن هؤلاء البرابرة سوف يسيطرون على معظم العالم المتمدين ... ومن بينه إمبراطوريته هو .

ثم يذكر شيخ المؤرخين توينبى أنه حدث بعد ثلاثمائة سنة من وقت بابور أن كتب مؤرخ فى كتاباته نفس المعنى ؛ ألا وهو تصور أن المدنية والتحضر قاصران على المكان الذى يعيش فيه الإمبراطور أو المؤرخ . والمؤرخ الذى يتحدث عنه توينبى هو الجبرتى . قال إن الجبرتى المؤرخ المصرى كتب مؤرخاً عن حوادث سنة ما أنه حدث فيها حادث خطير لم يسبق له مثيل فى العالم . وهو حادث جدير بأن تعرف السنة به لأن له آثاراً سوف تهز أركان الدنيا . وكان الحادث أن الحجاج المصريين منعوا من السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج . وكانت هذه السنة هى التى نزل فيها نابليون بونابرت أرض مصر .

لتتسع آفاق التفكير إذن ولا تقتصر على ما نادى به مفكرونا ، كما على

الغرب أن يبحث فى كنوز تركتها شعوب غير غربية وسوف يجد فيها ما يفضله إن لم يكن قد وجد فضلا .

بهذه الروح ، وهذا الاتجاه فى معالجة التاريخ سوف يكون حديثنا عن تطور الفكر التربوى . فسوف نطرق معاً أبواب الشرق ونأخذ من مفكرى الغرب ونقيم آراء المفكرين العرب معطين كل ذى حق حقه . ومع امتزاج هذه الأفكار الشرقية والغربية نرجو أن نجد ما يساعدنا فى عملنا كمربين .

فى ضرورة دراسة تاريخ وتطور الفكر التربوى

التربية فى خدمة المجتمع . تعمل منه وله . بهذا المفهوم تصبح التربية ذات وظيفة واضحة المعالم ، ولا تسبح فى فراغ لا ندرى أوله من آخره . وإذ آمن المربون بهذه الصفة الوظيفية للتربية فجدير بهم أن يتعرفوا على الأسس الاجتماعية للعملية التربوية فى جانبيها النظرى والعملى .

قمين بالمربى أن يلم — ولو بقدر غير غزير — بتأثير القوى الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية والصناعية ... وغيرها من القوى على السياسات التعليمية وإجراءاتها .. من المحتم على المربى الكفء الصالح ، أن يعى الإطار الذى حدثت وتحدث فيه العملية التربوية . ليس المربى إنساناً آلياً يدق الجرس فيقف وتتحرك ساقاه وذراعاه إلى أن يصل إلى حجرة الدراسة ، وتبدأ الحصة وتنتهى بروتينيات رتيبة غطاها الملل من كثرة ترديدها . فتنتهى حصة التاريخ مثلا ، وتتحرك ساقا المعلم وذراعاه إلى مكان ما .

فى بعض الأقطار المتقدمة تكنولوجياً مئات وألوف من العقول الاليكترونية وأحاديث عن الروبوت أو الإنسان الآلى . وهو (شىء مصنوع من معادن وغيرها) ولكن المهم أنه مبرمج . أى يحوى فى داخله أطوالا هائلة من أسلاك وصمامات ولفافات ترانسيستورية دقيقة الصنع ، وهذه كلها تغذت ببرامج ومناهج ومعلومات أتاحت لهذا (الشىء) إمكانية الإجابة عن الأسئلة وحل مشاكل ، بل وتعليم الغير على نهج معد سابقاً ، ناس غذوا هذا الإنسان الآلى بمعلومات ينقلها كما هى فى أمانة نادرة ودقة مذهلة !!

المدرس الكفء أسمى وأجل وأثمن من مجرد أمين على نقل معلومات والتأكد من أن تلاميذه حفظوها على ظهر القلب . هو مشكل للعقول ومكون للاتجاهات ومعدل للسلوك . وهو صانع أجيال المستقبل .

الجيل الصاعد محتاج إلى جانب المادة العلمية إلى قيم واتجاهات وبناء جسمى سليم . ويمكن ببساطة يسيرة الحصول على المادة العلمية الصحيحة (نسبياً) إذا كانت الكتب المدرسية المقررة صحيحة . والبناء الجسمى السليم مسألة تتصل بالغذاء والعوامل الصحية ، ودور المدرس هنا محدود . ولكن دوره فى تكوين وزرع القيم والاتجاهات هائل هادر .

هنا يحق لنا القول إن الإلمام بالعوامل المؤثرة على العملية التربوية كما كانت وكما هى الآن ، وكما ستكون فى المستقبل أمر حتمى إذا كان المسئولون عن التربية فى مجتمع ما جادين بكل الإخلاص فى تنشئة سليمة للأجيال الصاعدة .

ولكى يفهم ويعرف المعلم كنه وطبيعة العملية التربوية التى يشترك فيها اليوم أو سيشترك فيها مستقبلا ، عليه أن يتطلع دارساً ومستطلعاً إلى الدرب الذى سارت فيه .

إن موقف الطفل فى الفصل اليوم إزاء (أمر) يصدره المدرس وطبيعة استجابة الطفل له تحمل فى طياتها تراثاً ماضياً قد يمتد إلى مئات السنين . لم هذا السكون المخيم على حجرة الدراسة ؟ لم هذا الاعتراض الصارخ من تلميذ على قول قاله المدرس وبين الاثنين اختلاف فى وجهة النظر ؟ أرأيت حضرة الأستاذ ناظر المدرسة وهو يتلصص سائراً فى خطى خفيفة مجورا حائط يفصل الفصول عن ممر تتهادى عليه أقدام سيادته لتلتقط أذناه ما يدور داخل الفصول؟ ثم نسمع عن موجه جمع المدرسين وعرض عليهم مشكلة تاركاً لهم حلها دون أن يفرض عليهم إرادته ... ونسمع . ونسمع ...

لكل من هذه التصرفات أو المواقف أو الاتجاهات أو القيم جذور فى الماضى أفصحت عن نفسها فى الحاضر ، وستضفى تأثيراتها فى المستقبل . بل إن الموقف التربوى فى علاقة مدرس بتلميذه ، أو فى فهمه للمنهج المقرر ،

أو فى علاقته برئيسه أو فى إعداده لدرسه .. قد أثار فى الماضى جدلا ربما استمر مئات السنين وأثار مناقشات حامية جدير بالمعلم أن يعرف شيئاً عنها ؛ لأنه يتعامل مع نفوس وعقول بشرية .

هو إنسان يتعامل مع أخيه الإنسان ويستخدم مادة علمية ووسائل تعليمية. وفى تعامل المعلم مع التلاميذ قد يسلك واحداً من مسالك شتى ، وفى محاولته أن (يعرف) التلاميذ المادة العلمية قد يتخير طريقة من بين طرق عدة . بل إن موقفه هو إزاء هذه المادة تكونه فلسفته واتجاهاته .

المدرس أجل وأسمى فى إعداده وتربيته من الكثيرين من أصحاب الحرف أو المهن العالية ؛ ذلك أن اتباع أسلوب التقليد والمحاكاة يوقف عملية التقدم التربوى ، وقد وقفت فى مجتمعنا أزماناً طويلة وأكاد أقول إنها اليوم تتحرك ببطء شديد هو أقرب إلى التوقف منه إلى الحركة التقدمية فى عصر يعيش على عجلات تجرى . أقول حركة بطيئة . وفى هذا خير طفيف يحتمل أن يزيد إذا زادت السرعة تدريجياً ويجب أن تزيد وإلا أصبحت التربية اليوم وكأنها جزء من تاريخ التربية ما زال يعيش حياً . التاريخ يعنى الماضى .

على المشتغل بالتربية أن يلم بفلسفاتها المختلفة التى أخرجتها عقول شرقية وغربية كما عليه أن يدرس النظريات التربوية بما فيها من التقليدية ، والماهيوية (الجوهرية) والتقدمية . ولعل فى دراستة للفلسفات والنظريات ما يعينه على تكوين وجهة نظر خاصة به ، مؤمن بها وبجدواها وفاعليتها . وقد يعينه هذا الموقف وذلك الفهم على صقل عمله التربوى .

ودراسة المربى لتطور الفكر التربوى ستوقفه على مجهودات ومحاولات أفراد وجماعات سابقين ، وما أصابوه من نجاح أو فشل . ومن تعرف أسباب وعوامل النجاح والفشل يستخلص المربى حصيلة ثرية قد تنقذ أفراداً وجماعات من فقدان جهد ووقت ومال .

نحن لا يمكننا أن نتجاهل آلاف السنوات من الجهد التربوى فى مختلف البقاع وبمختلف الفلسفات . مجهودات شكلت عقلنا اليوم ، وبسطت أمامنا

أفكاراً نفذت وأخرجت نتائج يتدبرها الجادون من رجال التربية .. خذ مثلا :

— ماذا يحدث للإنسان وللمجتمع وللثقافة عندما تهيمن العسكرية على كافة جوانب العملية التربوية ؟ حدث هذا فى أسبرطة منذ حوالى أربعة وعشرين قرناً

— ماذا يحدث عندما تتشكل وتتكيف التربيـة تبعاً للنظام الطبقى (أو الطائفى) بدلا من تكيفها تبعاً للقدرات والإمكانيات ؟ حدث هذا فى الهند عبر قرون طويلة .

— ماذا يحدث عندما توجه التربية وتعبأ إمكانياتها لبناء إمبراطورية والإبقاء عليها ردحاً طويلا ؟ حدث هذا فى إمبراطوريتى الفرس والرومان .

— ماذا يحدث عندما تأخذ التربية نمطاً لا عقلياً ؟ حدث هذا فى أوروبا فى العصور الوسطى على أيدى الرهبان فى الأديرة .

— ماذا يحدث عندما يفهم مدرك التربية الديمقراطية على أنه يخص جماعة مميزة قليلة العدد فى المجتمع . هم الأرستوقراطية ؟ حدث هذا فى أثيناالأغريقية.

— ماذا يحدث عندما لا تتدخل القوى الدينية أو العقائد المسبقة الراسخة فى البحث العلمى وفى الفلسفة ؟ حدث هذا عند مسلمى القرنين العاشر والحادى عشر .

— ماذا يحدث عندما تتحكم وتهيمن الأطر العقائدية المسبقة على الدراسة والبحث ؟ حدث هذا فى المجتمع الغربى فى العصور الوسطى .

— ماذا يحدث عندما تمجد التربية وتهتم بالكياسة والخلق الاجتماعيين على حساب الجانبين المهنى والعقلى ؟ حدث هذا زمن الإقطاع فى تربية الفرسان فى أوروبا فى العصور الوسطى .

— ماذا يحدث عندما تسيطر طوائف دينية وتضفى اهتماماتها الخاصة على العملية التربوية ؟ حدث هذا بصورة واضحة فى أمريكا فى القرن الثامن عشر قبل ثورتها .

— ماذا يحدث عندما تصبح التربية أداة للبث العقائدى السياسى ، وسلاحاً ماضياً فاعلا فى أيدى المهيمنين على الحكم ؟ حدث هذا فى ألمانيا النازية .

ـ ماذا يحدث عندما تصبح التربية أداة الثورة الاجتماعية ـ الثقافية ؟
حدث هذا فى روسيا وفى الصين الحديثة .

ـ ماذا يحدث عندما تصبح التربية أداة تنوير للمواطنين والخروج بهم بعيداً عن ظلام الجهالة ؟ حدث هذا فى الدانمرك .

ـ ماذا يحدث عندما تصبح التربية القوة والركيزة التى تبنى بها الدولة كيانها من جديد ؟ حدث هذا فى اليابان الحديثة .

عشرات بل مئات الأمثلة مأخوذة من خبرات البشر فى تراكمها المتزايد مع طى السنين ، تفيدنا كمربين فى عملنا داخل حجرة الدراسة إلى التخطيط الشامل للسياسة التعليمية للدولة . ولعل الأمم النامية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وغيرها فى أمس الحاجة إلى الدراسة الواعية الفاحصة لهذه الخبرات البشرية .

ويستطيع دارس الفكر التربوى وضع أصابعه على العلاقة بين الجانب النظرى والجانب العملى فى العملية التربوية . سوف تنكشف له مفاهيم عديدة ومفيدة تساعده على رؤية أسس الجانب العملى التربوى من ثنايا دراسته للنظريات التربوية والأفكار الاجتماعية . وعندما يجلس المربى فى حضرة المعلمين العظام والكبار من المربين من الشرق ومن الغرب ، كسقراط وأفلاطون وبوذا وأرسطو وسانت توما الأكوينى والغزالى ورفاعة الطهطاوى وروسو وفروبل وديوى وماكارينكو وغيرهم ـ عندما يجلس إليهم ويعرف عن مجهوداتهم وإنجازاتهم ، تتفتح له آفاق واسعة ، تسمو به إلى أعلى من مجرد تحفيظ جدول الضرب ، أو التأكد من أن أخوات كان لم تنقص منهن أخت ،

لا يقصد المؤلف أن يعيش المعلم فى برج عال عاجى ، وإنما يرجو له أن يقف بقدميه على أرض صلبة أمام تلاميذه ورأسه أعلى بكثير من سقف حجرة الدراسة ، شاهقة ناظرة إلى مختلف الآراء والاتجاهات ، ومتخيرة منها ما يحسن الواقع الذى يقف عليه بقدميه :

طفل هذا الذى يحيا حاضره ولا يعرف ماضيه ، طفل فى علمه وعمله

وقاصر فيهما . ونظرته قد لا تمتد إلى أبعد من المكان الذى يقف عليه ، وبالتالى فان تأثيره فيمن حوله ضئيل عليل ، لأن شيئاً هاماً ينقصه .

ولكى نقدر ما نحن فيه من تقدم لا بد أن نعرف كم من الجهد بذل فى الماضى أوصلنا إلى ما نحن عليه اليوم ، ثم نتطلع إلى المستقبل ، ولعل لنا دوراً فى بنائه . فلا يكفى ولا يجب أن نأكل ثماراً من شجرة زرعها السابقون دون أن نزرع نحن شجراً يثمر للقادمين .

وأنت تجلس إلى الفلاسفة والمربين من الشرق والغرب سوف تحس بمعنى وحدة البشر وأخوتهم ، وسوف تلمس كيف أن نتاج العقل البشرى لم توقفه حدود دولية خطها الإنسان ، أو محيطات واسعة أو جبال شاهقة . تخطت الأفكار كل هذا وذاك ، وكانت وما تزال وستظل أقوى من الزمن فى بقائها وخلودها وتأثيرها .

ومن يدرى ؟ فربما أنت أيها القارىء قد تطلع علينا باسهام يضاف إلى رصيد الفكر التربوى الذى نبدأ رحلتنا معه بادئين من العصور القديمة .

الفصل الثانى
التربية فى مصر الفرعونية

تفاوت آراء العلماء عن قدم الحضار فى مصر ، ويكاد يتفق كثيرون على أن ثقافة المصريين فى العصر الحجرى الحديث لم تضارعها ثقافة أخرى فى العالم فقد ترقت صناعة الأدوات الحجرية وتهذبت ووصلت إلى درجة عالية من الحدة والصقل ودقة الصنع . وقبيل نهاية هذا العصر ظهرت صناعات المعادن فى مصر ، فكشفت الحفريات عن مثاقب ودبابيس ومزهريات من النحاس ، إلى جانب حلى من الذهب والفضة .

وفى مدخل العصور التاريخية عرف المصريون القدماء الزراعة ، فقد عثر فى بلدة البدارى — وما أكثر ما عثر فيها — على جثث دفنت فى حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م ، وقد حفظها جفاف الرمال وحرارتها ، فأبقى فى أمعائها قشوراً من حب الشعير . ويقال إن المصريين فى هذا التاريخ المبكر بدءوا ينظمون أساليب الرى بعد أن قطعوا الغابات وتخلصوا من أفراس نهر النيل وتماسيحه . وعرف عن المصرى الأول أنه كان شغوفاً بالتزين بالحلى والتعطر ، ويرتدى ثياباً بسيطة من الكتان ، وفى رأى أن الأولاد كانوا يظلون عرايا إلى سن الثالثة عشرة ، أما البنات فيدفعهن الخفر والحياء إلى تغطية ما حول الوسط . وكان لهؤلاء المصريين الأوائل كتابة مصورة ، واهتموا بتصوير ما يتصيدونه من حيوانات على الخزف الذى حمل أيضاً صوراً لنساء حزانى وأشكالا هندسية . ويرجع ماسبيرو فجر ثقافة المصريين الأوائل إلى ما بين ١٠,٠٠٠ و ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد(١) . على أن التاريخ المدون عن مصر يبدأ من عام ٤٢٤١ق . م .

---

(١) Maspero, G. : The Dawn of Civilzation : Egypt and Chaldea, p 43

من أى الأجناس المصريون ؟ ومن أين جاءوا ؟ سؤالان محل نقاش أيضاً . فهل هم من أصل آسيوى أو أفريقى ؟ وهل جاءوا مصر عبر السويس ؟ أو من مضيق باب المندب وجبال الحبشة ؟ وهل هم من جنس البحر المتوسط الذى هزم أقواماً سود البشرة كانوا يسكنون وادى النيل وحلوا محلهم ؟ أو أنهم عاشوا دائماً على ضفاف وادى النيل منذ أجدادهم الأوائل ومنذ أقدم العصور؟

ويرجح ول ديورانت نقلا عن ثقاة فى التاريخ القديم أن غزاة وفدوا أو هاجروا من غرب آسيا وجاءوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة البلاد ، وتزاوجوا مع هؤلاء الأهلين الأقوياء ، وأنجبوا سلالة هجينة كانت مطلع حضارة جديدة كما هو الشأن فى جميع الحضارات . ثم أخذت هذه السلالات تمتزج امتزاجاً بطيئاً حتى تألف من امتزاجها فيما بين عام ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م . شعب واحد هو الشعب الذى أوجد مصر التاريخية(١) . ويقول برستد(٢) إن وادى النيل سكنته أقوام ترجع إلى حوالى ١٨,٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

ويقسم تاريخ مصر القديمة إلى ثلاث دول : الدولة القديمة ، والوسطى ، والحديثة . عاش الأقوام حول شاطىء النهر منقسمين أقساماً ، ولكل قسم شعار واحد ورئيس واحد وإله واحد ، حتى جاء وقت اتحدت فيه بعض الأقسام مع بعضها ، ثم تكونت مملكتان إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب ، ويعزى إلى مينا — وهو شخصية ما زال الغموض يحيطها — أنه وحد القطرين ، وأسس عاصمة له فى منف ، وأعلن قانوناً عاماً أوحى إليه به الإله توت . وبدأ عهد الأسرات فى مصر القديمة .

وفى حوالى ٣١٠٠ ق . م . وضع أمحوتب الطبيب المهندس تصميم أول بناء حجرى فى العالم هو هرم سقارة المدرج ، وكان مستشاراً للملك زوسر ،

(١) ول ديورانت (ترجمة محمد بدران) : الجزء الثانى ص ٦٥

(٢) The Cambridge Ancient History; vol, 1 p, 40.

وتركت الأسرة الثالثة إلى جانب الهرم المدرج وهيكل زوسر الجنائزى تراثاً فى الطب ، وصناعة وفناً راقيين فى صناعات فخارية وخزفية رائعة . وعرفت الأسرة الرابعة ببناء الأهرامات الشامخة فى الجيزة ، والتى يرى فيها بعض المؤرخين تسخير المصريين لخدمة الفرعون ، وإن كان البعض الآخر يعزو هذا العمل الضخم إلى ضمان عودة القرينة – الكا – إلى الجسم فيستطيع الفراعنة المدفونون فى الأهرامات أن يعودوا إلى الحياة ويؤمنوا رعاياهم عند البعث . وكان المصريون القدماء يرون القرينة صورة مصغرة للجسم نفسه وأنها يضمن لها البقاء كاملا إذا ما احتفظ بالجسم آمناً من الجوع والتمزيق والبلى . وكان لابد أن يقدم للقرينة الغذاء والكساء وما تحتاجه من خدمات بعد موت الجسد . ولذلك أعدت المقابر بما يحقق للقرينة كل ما تريد ، فنقشت على الجدران رسوم ، وحفرت نقوش وصنعت تماثيل ، إلى جانب دفن الأسلحة والمعدات مع الجثة . واعتقد المصرى القديم أن رسم صورة لحقل يحرث يمكن أن يتحول إلى حقل حقيقى ينبت غذاء للقرينة . ولذلك اكتست جدران المقابر بالرسوم والصور لحيوانات وخدم وحشم وموائد بسطت عليها أشهى الأغذية .

وعمد المصرى القديم كى يحافظ على الجثة إلى تحنيطها ، ويقول هيردوت « أول ما يفعله المحنطون أن يخرجوا المخ من المنخرين بخطاف من الحديد ، فاذا ما انتزعوا جزءاً منه بهذه الطريقة أخرجوا ما بقى منه بادخال بعض العقاقير فيه ، ثم فتحوا فتحة فى جنب الميت بحجر حاد ، وأخرجوا منها جميع أحشائه . فاذا ما غسلوا البطن ونظفوه بنبيذ النخل رشوا عليه العطور المسحوقة ثم ملأوا البطن بالمر النقى وبعطر العشبة وغيره من العطور ، وأعادوه بالخياطة إلى ما كان عليه من قبل ؛ فاذا ما فعلوا هذا كله غمروه فى منقوع النطرون وتركوه فيه سبعين يوماً ، وتركه أكثر من هذا الوقت مخالف للقانون . فاذا انقضت هذه الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها فى أحزمة من القماش

---

(٦) المرجع السابق ص ٧٢

الشمع ، وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ الذى يستعمله المصريون عادة بدل الغراء . وبعد أن يتم هذا كله يسترد أهل الميت الجثة ويصنعون لها صندوقاً من الخشب على صورة إنسان ، فاذا ما أتموا صنعه وضعوا الجثة فيه وأحكموا إغلاقه ، وأودعوه لحداً وهو واقف يستند إلى جداره . وبهذه الطريقة يعالجون الأجسام التى يريدون الاحتفاظ بها علاجاً يكلفهم أبهظ النفقات» .

واستمرت الدولة القديمة من ٣٥٠٠ ق . م إلى ٢٦٣١ ق . م وشملت الأسر من الأولى إلى السادسة ، وأعقبتها فترة من الفوضى .

وجاءت الدولة الوسطى (٢٣٧٥ ق . م إلى ١٨٠٠ ق . م) وشملت الأسر من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة . وكان من أشهر ملوك الدولة الوسطى أمينمحيت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، وفى عصره ازدهرت الفنون وبلغت درجة من الإتقان لم تبلغها من قبل . ومن مشاهير ملوك الدولة الوسطى أيضاً سنوسرت الأول الذى حفر قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر وصد هجمات النوبيين . واستطاع سنوسرت الثالث من بعده أن يخضع فلسطين لمصر . وانتهت الدولة الوسطى بفترة من الفوضى والنزاع على الحكم حتى غزا مصر الهكسوس . واستطاع هؤلاء الرعاة الأسيويون أن يقضوا على الكثير من مظاهر الحضارة المصرية ، كما حرقوا مدناً ونهبوا ثروات كثيرة .

وبطرد الهكسوس على يد أحمس بدأ عصر الدولة الحديثة ، أو عصر الإمبراطورية ، ويشمل الأسر من الثامنة عشرة إلى العشرين (١٥٨٠ ق . م إلى ١١٠٠ ق . م) . ومن ملوك هذه الدولة تحتمس الأول الذى مد حدود مصر شمالا إلى سوريا ، وأخضع كل البلاد الواقعة بين ساحل البحر وقرقميش ووضع الحاميات . وفرض الجزية . وحكمت بعده ابنته حتشبسوت وأخوها — زوجها — تحتمس الثانى . غير أن حتشبسوت نحت زوجها عن الحكم واستأثرت به . ولم تعترف حتشبسوت بأنها تقل عن الملوك الذكور ، بل رسمت نفسها على الآثار — إرضاء لرغبة عندها وإرضاء لرغبات شعبها —

فى صورة محارب ذى لحية ، مستأصلة فى الرسم ثدييها ، وسميت « إبن الشمس » و « سيد القطرين » . كما ارتدت ملابس الرجال والتحت بلحية مستعارة عندما كانت تقابل رعاياها . ويرجع الفضل لحتشبسوت فى إرسال بعثة إلى بونت (الصومال) لجاب البخور وفتح أسواق جديدة بهذه الأنحاء ، وهى صاحبة الدير البحرى ، ومصلحة ما خربه الهكسوس ، وباكورة من دفن فى وادى الملوك من الفراعنة .

وخلفها شاب فى الثانية والعشرين من عمره هو تحتمس الثالث بطل مجدو وهازم العاصين والثائرين ، وفاتح أرض واسعة فى غربى آسيا . وفى خلال خمس عشرة حملة أخضع تحتمس الثالث شرق البحر المتوسط ، مكوناً إمبراطورية ضخمة قصبتها (طيبة) التى نعمت بعصر ذهبى من رغد العيش . وبفضل أسطوله أصبح لواء الزعامة فى البحر المتوسط لمصر . ويعزى إلى أمنحوتب الثانى أنه عاد إلى (طيبة) بعد غزوة فى شرق البحر المتوسط يجر فى ركابه سبعة ملوك أسرى . ودامت سيادة مصر الحربية ودام ازدهارها فى الفنون زهاء قرن كامل من الزمان ، نعم فيه آلهة طيبة بالقرابين والهياكل المغطاة بالذهب . ثم بدأت الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن ، وبدأ عصر الاضمحلال ، ثم خضعت مصر فريسة للغزو من الشرق والغرب والشمال .

الديانة والفلسفة

قدس المصريون القدماء الحيوانات ، ويقول ماسبيرو إنه عندما عاش المصريون فى زمن ما قبل التاريخ منقسمين إلى أقسام ، اتخذ كل قسم حيوانا يطعمه إلى جانب الإله الخاص به . وقد قدس كل قسم حيوانه إما رهبة منه فيتقى شره ، أو رغبة فى استرضائه لما يجلبه له من خير ، فقد قدسوا التمساح والأسد ، كما قدسوا العجول والكباش . أما فى العصور التاريخية فقد آمن المصريون بأن الحيوانات التى عبدوها قد حلت فيها أرواح الآلهة التى كان عليها أن تسكن جسداً تتجسد فيه عند هبوطها إلى الأرض ، فالنسر مثلا لم يكن هو

نفسه هوروس الإله ، ولكنه مأوى لبعض أسرار هوروس(١) . على أن عقيدة التجسد هذه لم تقتصر على تجسد الإله فى حيوان ، فتارة تجد هوروس متجسداً إنساناً ، أو إنساناً له رأس نسر ، أو نسراً له رأس إنسان . ثم أحل المصريون القدماء روح الإله فى أكثر من حيوان . فتارة فى عجل ، وأخرى فى تمساح ، وثالثة فى قطة ، ورابعة فى طائر ، وتطور الأمر إلى أن أصبحت العبادة لا تقتصر على حيوان واحد من بين القطط مثلا ، ولكنهم عبدوا القطط جميعاً .

وآمن المصريون القدماء بأن هذه الحيوانات التى عبدوها تعلم الغيب ، وتثيب وتعاقب ، بل إنها تتكلم لتنقذ شخصاً على وشك الهلاك . وكما تكلمت الحيوانات المؤلهة والطيور ، فقد تكلمت بعض النباتات كالأشجار التى حلت فيها أرواح الآلهة ... « وبينما كان فرعون جالساً ذات مرة مع زوجته التى كان يحبها حباً جماً تحت إحدى الشجرات المقدسة فى سرور وسعادة ، إذ بالشجرة تنحنى على الملك وتسر فى أذنه أن زوجته خائنة (٢) » .

وعبد المصريون شجرة الجميز والنخلة . وقدموا للشجر قرابين من الخيار والعنب والتين . ثم ارتقت بعد ذلك هذه العقيدة وتقدمت فى مسار الفلسفة حتى قررت أن الإله يحل فى كل كائن حى ، بل فى كل جزئية من جزئيات الطبيعة ، وأنه ذو مظاهر متعددة .

وكان لكل مقاطعة أو قسم أو جهة إلهها الذى يتحمس له عباده ويحاربون دفاعاً عنه ، ثم تطور الأمر فأصبحوا يحاربون من أجل نشر عبادته . وهذا ما فعله حاكم مدينة (ليتوبوليس) الذى بسط سلطان إلهه هوروس على ما جاوره من مقاطعات فى الوجه البحرى . وتروى الأساطير أن سلطان هوروس امتد جنوباً ولكنه لم ينعم طويلا بهذا المجد ، فقيض له عدو لدود هو الإله سيت إله الشر . وتجسد سيت فى حيوان ذى أربع ، كريه المنظر ، حقد على

---

(١) محمد غلاب الفلسفة الشرقية . ص ٣٣

(٢) Maspero : op. cit., pp. 120-121

جمال عيني هوروس — وكانت الشمس عينه اليمنى والقمر عينه اليسرى ، إحداهما تضيء العالم نهاراً والأخرى تضيئه ليلا — وتعارك سيت مع هوروس وضربه مراراً فى عينه ، فكانت الشمس تكسف ، والقمر يخسف . وطالت الحرب بينهما .

ثم ظهرت آلهة أخرى وقفت بجانب هوروس (أحياناً تكتب حوريس) منها توت وإيزيس وأوزوريس . وانتصر أوزوريس ،وقال الكهنة إن انتصار أوزوريس على غيره من الآلهة حتى على هوروس مرجعه أن الأخير ابن لأوزوريس ، ثم تزوج أوزوريس من إيزيس وعينا توت وزيراً . ثم كون أوزوريس وإيزيس وتوت مملكة إلهية ، غير أن سيت إله الشر دبر حيلة ضد أوزوريس وألقاه فى النيل ، ولما أنقذته زوجته فاجأها سيت وقطع زوجها قطعاً بلغت ثنتين وسبعين ، ورمى كل قطعة فى مقاطعة من مقاطعات مصر . غير أن الزوجة الوفية إيزيس بمعاونة آلهة أخرى جمعوا هذه القطع وقرأوا عليها التعاويذ ، حتى عادت إلى الحياة خائرة القوى ضعيفة . وبمجرد أن أنسل هوروس ترك أوزوريس الأرض ليكون إلهاً للموتى ، مخلفاً مكانه هوروس الذى حقق الهزيمة الكاملة القاضية على إله الشر سيت ، ولم ترض إيزيس أن يقتل هوروس عمه سيت ، غير أن هذا الإله أقام دعوى أن هوروس ليس إبناً لأوزوريس ومتهماً إيزيس فى شرفها » ومطالباً بأحقيته بمكان أوزوريس . وبفضل دفاع توت ثبتت بنوة هوروس لأوزوريس ؛ على أن النزاع ظل محتدماً .

ونهض فرعون جرىء هو مينا ، وأعلن أن هوروس حل فى جسده ، كما أعلن أن سيت أيضاً حل فى جسده ، وعليه أن ينفذ أمر الإلهين المتنازعين ، فضم الوجهين البحرى والقبلى ، وأصبح ملك القطرين ، ومصدر (الخير والشر) و (النور والظلمة) . وبتألية الفرعون حياً أصبحت عليه التزامات ، لعل أهمها مباشرة الطقوس الدينية اليومية ؛ حتى يستمر النيل فى مده مصر بالحياة ، وحتى يستمر الزرع ينبت والشمس تشرق وتغرب . وعبد المصريون

الفرعون حياً حتى كان أشدهم قرباً منه وأكثرهم حظوة ينال شرف شم قدمى الفرعون ، وذهل المصرى القديم عندما وجد الملك يموت .. الإله حق عليه ما يقع لكل إنسان ، وقد ظنوه خالداً ... وأفتى الكهنة أن الفرعون لا يموت كما يموت الناس ؛ فاذا ما عجز جسمه المادى عن القيام بالأنشطة العادية يخرج منه السر الإلهى أو الروح القدس ليحل فى جسم ابنه الشاب الممتلىء حيوية.على أن الفرعون بعد موته يظل ينصح ابنه الحى ،ويوجهه فى أمور الحكم من مكان إقامته فى مملكة الموتى ، مملكة أوزوريس . وكان المفروض أن تعود الروح — متى شاءت — من عالم الموتى إلى عالم الأحياءمن خلال فرجة فى القبر ، فتخرج إلى الجسد الذى يجب أن يكون دائماً مهيئاً لاستقبالها ، ولذلك عنى المصريون أشد العناية بالتحنيط ، ثم صنع التماثيل ، وإلا تاهت الروح وتشردت إذا حل التحلل بالجسد . وكان الطريق إلى مملكة أوزوريس تحت الأرض محفوفاً بالكثير من المشاق والمخاطر ، فكان الدخول إليها عسيراً حتى على الفرعون نفسه .

وظهر فى نهاية الدولة القديمة إله من مدينة الشمس (هليوبوليس) صارت له السيادة بفضل تحالف كهنته مع ملوك منف . وسمى هذا الإله « رع » . وكان رع يزور الملكة ليلا حتى تحمل الفرعون الجديد ، وبذلك أصبح رع الأب المباشر الفعلى لكل الفراعنة ، كما كان رئيس الآلهة الأخر ، وهم : توت إله السماء ، وإيزيس إلهة الأرض المخصبة ، وأوزوريس النيل ، وجيب الأرض ، وسو الهواء ، وتيفنيت الفراغ ، وسيت الصحراء ، ونفتيس الأرض القاحلة .

وكانت السلطة لرع ، ولكن فى نهاية الأسرة السادسة كان حكام الأقاليم قد نجحوا فى التمرد على سلطة الفرعون ، وعلى رع ، وأخذ كل منهم يعبد إلهاً محلياً فنده وعظمه ومنحه أرقى الألقاب وأسماها ، وسادت فوضى وتساءل نفر من الناس عن قوة رع ، وكيف يترك دماء تسيل ، وخراباً يحل ، ولا يستخدم سلطته ككبير للآلهة ؛ فيمنع تناحر الخلق وتنافس حكام المقاطعات ؟

ولكن رع لم يفعل شيئاً ، وزاد تشكك المتشككين ، الذين رأوا الإله الكبير تقع عليه الإهانات ، ومع ذلك فالشمس تشرق وتغرب ، والنيل يفيض والأرض تنبت زرعاً .

وكان هناك إله محلى صغير هو آمون إله طيبة ، وعندما تولى عرشها ملك جرىء قوى (امنمحعت الأول) فرض إله مدينته على مصر كلها ، وضرب بيد من حديد على الفوضى ، وأعاد هيبة الفرعون والإله ، وبالتبعية استرجع كهنة الإله سلطانهم . وزاد هذا السلطان حتى بدأ الفرعون نفسه يخشاهم . وفكر الفراعنة فى موقفهم إزاء كهنة آمون ، وتوصلوا إلى إضعاف هذه السلطة باضعاف سلطة الإله نفسه ، ولن يتأتى هذا إلا باعادة مجد آلهة زال نفوذها . ولهذا نجد تحتمس الرابع يقول : إن أبا الهول — وهو إله قديم عرف فى عصور ما قبل التاريخ وكان يمثل كائناً بشعاً مخيفاً لم ينظره أحد ولكنه كان يظهر من وقت لآخر ليبث الرعب والفزع فى قلوب البشر ، ولهذا عبدوه حتى يتقوا شره — جاءه فى نومه وأمره بازالة الرمال التى تغطى تمثاله . فأزالها وبنى المعابد لعبادته . كما أحيا أمنحتب (أمنوفيس) الثالث عبادة رع ، ومزجها بعبادة آمون ، وأصبح الإله هو (أمون — رع) غير أن الفرعون الشاعر أمنحتب الرابع لم يعجبه هذا الخلط فى الآلهة ، وهذا العهر المقدس ، وهذا الهذيان العقائدى ، فخرج على البشرية بدين جديد ، بدأه بسحق عقائد آمون كلها واضطهاد كهنته ، بل أنشأ عاصمة جديدة لإلهه الجديد (آتون) وغير إسمه إلى إخناتون بدلا من إسمه السابق المنتسب للإله آمون ، وإخناتون تعنى « آتون راضى » . ورأى أخناتون أن إلهه رب الأمم كلها ، وآتون الشمس مصدر الضوء ومصدر كل حياة على الأرض ، وبنى عاصمة جديدة أطلق عليها « أخيتاتون » أى مدينة أفق آتون .

وكان أول داع للتوحيد عرفته البشرية مؤمناً كل الإيمان بعقيدته ، ولكن فى تعصب طاغ على غيرها من العقائد . وتسرع فى إصدار أحكامه بتخريب كل ما يحمل إسم آمون ، مما أغضب فئات كثيرة . متناسياً كل ما جبل عليه

المصريون من حب لآلهتهم التى أعدمها محرماً عبادتها ومهدماً هياكلها . وقام الكهنة الذين فقدوا كل شيء يتآمرون عليه فى الظلام ، وانضم إليهم أصحاب الحرف التى اندثرت باندثار الهياكل .. بل إن القواد وكبار القوم حقدوا عليه . لما وجدوه فيه من إهماله لشئون الدولة إهمالا أدى إلى تفكك داخلى وضعف فى الخارج على حساب اهتمامه بنشر عقيدته . وبينما هو ينعم بحياة سعيدة هادئة مع زوجته الجميلة نفرتيتى وبناته السبع غزا الحيثيون بلاد الشام ، وكانت خاضعة لمصر . وانقطع سيل الذهب الذى كانت تجبيه مصر جزية من الولايات الخاضعة لها ، وبدأ الفقر ينتشر مع انتشار كراهية الكهنة وغيرهم نحو أخناتون .. ومات الملك الشاعر فى الثلاثين من عمره عام ١٣٦٢ ق . م . وخلفه بعد عامين توت عنخ آتون الذى غير إسمه إلى توت عنخ آمون ، وأعاد عاصمة الملك إلى طيبة ، وأزيلت آثار آتون وأخناتون الذى كان يسمى حينئذ « المجرم الأكبر » . وخلف توت عنخ آمون — الذى ترك كنوزاً هائلة تطوف العالم اليوم وتذهل الناس بروعتها وتلهم المصممين والفنانين — القائد العسكرى حور محب الذى أعاد لمصر ممتلكاتها ، ثم جاء بعده سيتى الأول صاحب بهو الأعمدة فى الكرنك . وآخر الفراعنة العظماء كان رمسيس الثانى الذى ملأ خزائن مصر بالذهب الذى استخرجه من جوف أرض بلاد النوبة بعد أن أخضعها ، ثم أخضع البلاد الأسيوية ونال نصراً هائلا فى قادش عام ١٢٨٨ ق . م . وهناك رأى يقول : إن رمسيس الثانى هو فرعون موسى . وذريته حكمت مصر زهاء قرن من الزمان ، فقد أنسل مائة وخمسين ، بل أنه تزوج من بعض بناته ليلدن نسلا قوياً .

وفى عهد رمسيس الثالث بدأ يعود النزاع المرير على الثروة والسلطة بين رجال الدين والفرعون .. وشارك الكهنة فى استنزاف ثروات الدولة على حساب طبقات الشعب الكادحة . وبلغت سلطة الكهنة أن تولى أحدهم الحكم ، وتحولت الإمبراطورية المصرية إلى حكومة دينية يفتعل الدين فيها ما شاء له الهوى . وباسم الدين والكهنوت تقلصت الحياة ، وبدأ معين الثروات ينضب

وتزداد البلاد فقراً ، فلم يكن الكهنة على مقدرة سياسية أو عملية تتيح لهم الإبقاء على الثروات .

وبينما مصر تهوى تدريجياً ، كانت شعوب فى غرب آسيا وشرق البحر المتوسط تنمو ، مثل بابل وأشور وفارس وفينيقيا وسوريا وفلسطين . كما بدأت معالم الحضارة تطل على جنوب شرق أوروبا ، فاستولى الدوريون على جزر بحر إيجه وكريت ، وازدهرت التجارة مع بلاد جنوب أوروبا كايطاليا و أسبانيا. ثم بدأت أمواج الغزو الخارجى تدق أبواب مصر ، فغزاها الليبيون من الغرب عام ٩٤٥ ق . م ، والأحباش من الجنوب عام ٧٣٢ ق . م ، والأشوريون من آسيا عام ٦٧٤ ق . م ، ثم الفرس من الشرق عام ٥٢٥ ق . م ثم الإسكندر آتياً من آسيا عام ٣٣٢ ق . م ، ثم تحولت مصر إلى مزرعة كبرى للقمح تعمل لحساب روما فى عام ٣٠ ق . م .

الحياة الاجتماعية فى مصر الفرعونية

لم يكن فى مصر الفرعونية نظام طبقى كالذى عهدناه فى الهند ،ولم يتحكم ميلاد الفرد فى وضعه فى طبقة معينة لايستطيع الخروج منها . ومع ذلك فقد عهدنا طبقية ، ولكنها مفتوحة إلا من الإنتساب لأسرة الفرعون الذى ألهه المصريون فى أوقات من تاريخهم .

وعلى رأس المجتمع المصرى القديم كان الفرعون المؤله وعائلته وكبار رجال البلاط . وتأليه الفرعون أعطاه الحق فى حكم الناس الذين وجبت عليهم طاعته وتقديسه . والفرعون هو مصدر الحكمة والمعرفة(١) .

ويلى هذه الطبقة الكهنة وبعض النبلاء ، وهم يكونون الارستوقراطية الإجتماعية والفكرية فى مصر ، ومن كبار رجال هذه الطبقة القواد العسكريون خصوصاً فى العصور التى حققت فيها مصر نصراً عسكرياً . وقد كون العسكريون طبقة تلت مباشرة الكهنة . ثم نجد طبقة من كبار التجار وأصحاب

---

(١) Thut, I. N. The Story of Education, pp. 73-74

المهن الأثرياء ، وهؤلاء كونوا الطبقة المتوسطة . ثم تأتى طبقة قوامها الحرفيون والرعاة والفلاحون والعبيد . وتكون هذه الطبقة الأخيرة السواد الأعظم من سكان مصر . ولم يترك لنا أفراد هذه الطبقة ما يستدل به على نظام حياتهم اليومى إلا القدر اليسير ، فلم يكن معقولا أن تحوى قبورهم ، فى تواضعها الشديد ، آثاراً . وتوجد فى داخل الطبقة الواحدة درجات ، فالكهنة لم يكونوا كلهم فى درجة واحدة لا من حيث المركز ولا من حيث الثراء . ومع ذلك تشير الكتب التاريخية إلى أن ربع المدفونين فى مقبرة أبيدوس الهائلة كانوا من الكهنة . كما تحدثنا هذه الكتب عن ١٠٧,٠٠٠ أسر كانت الهياكل والمعابد الدينية تمتلكهم ، وكان عدد سكان مصر حوالى سبعة ملايين نسمة .

وكان التفاوت واضحاً بين حياة علية القوم وسواد الشعب ، تفاوت فى الملابس والغذاء والسكن ، ثم وقت الفراغ . وكان من الممكن أن ينتقل فرد من طبقة إلى أخرى ، كما بينت سابقاً ، ولكن بعد جهد كبير . وقد نالت النساء منزلة مرموقة فى المجتمع المصرى القديم ، فقد تساوت النساء مع الرجال فى الطبقة الواحدة التى ينتمون إليها . وكانت هناك آلهة منهن عبدها الشعب .. بل إن فى عقود الزواج شرط طاعة الزوج لزوجته ، كما كانت النساء يمتلكن ويورثن .

كان المستوى الأخلاقى عالياً . وقد روعى هذا بدقة كما تنبئنا بذلك الكتابات الأدبية وما خلفه المصريون من عديد من الحكم والنصائح ، ففى بردية موجهة إلى الأطفال : « ينبغى لك ألا تنسى أمك ... فقد حملتك طويلا فى حنايا صدرها وكنت فيها ثقيلا ، وبعد أن أتممت شهورك ولدتك ثم حملتك على كتفها ثلاث سنين طوالا وأرضعتك ثديها فى فمك ، وغذتك ، ولم تشمئز من قذارتك . ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف فى كل يوم جانب معلمك ومعها الخبز والجعة جاءت بها من البيت » .

وكان أفراد الشعب يقنعون بزوجة واحدة ، ولكن كان للملوك والأمراء

وبعض النبلاء زوجات ، ولم يكن أمراً غير عادى أن يتزوج الملك أخته أو ابنته . وكان الطلاق نادراً إلا فى عهد الاضمحلال ، وكان من حق الزوج أن يخرج زوجته من بيته دون أى تعويض إذا ارتكبت الفحشاء . ويلوح من بعض النصوص أن المرأة هى التى كانت تخطب الرجل وهى التى تطلب تحديد مواعيد اللقاء . وكثيرات من البنات تزوجن فى سن العاشرة(١) .

وكان الرجال والنساء على السواء يتزينون ويتحلون ، ولم يكن هذا فى عصر الرخاء قاصراً على طبقة واحدة .. وكان لكل رجل خاتم فى أصبعه ، ولكل امرأة قلادة تزينها . ولعل ما تركه المصريون القدماء من الحلى المحفوظة فى المتاحف اليوم لأكبر دليل على التقدم الفنى مما أصبح من (موضات) عصرنا .

التربية فى مصر القديمة

نظراً لتعقد المجتمع والحياة المصرية القديمة ، كان لابد للمصرى أن يتقدم خطوات أبعد من الإجراءات التربوية البسيطة التى كانت موجودة فى مجتمعات أقل فى المستوى الحضارى . ولتعقد الحياة المصرية القديمة فلم يكن من المستطاع أن يكتسب الفرد الخبرات اللازمة لخلقه عضواً فى المجتمع من مجرد عمليات تقليد الكبار . ولهذا فان تعليماً ونظاماً مدرسياً معيناً كان لابد من وجوده . وفتحت مدارس ومعاهد علمية ، طرق أبوابها التلاميذ ليكتسبوا الخبرات الثقافية والتكنولوجية اللازمة لمجتمع ضرب سهماً وافراً فى التقدم الحضارى وخاصة فى ميدان الصناعة . على أن غرض المدارس بصورتها النظامية كان أكثر اهتمامه بالأمور المتعلقة بتعلم اللغة والأدب وأيدولوجية الدولة . وقد أخضع الكهنة لنفوذهم الفنون والحرف والعلم ومختلف المناشط الفنية العليا فى الدولة . ولم تكن هذه الفنون والحرف تعلم فى المدارس لكل من يريد تعلمها ،

---

(١) Mulhern, op. cit., pp. 65-66.

تدخلت طبقة الكهنة فى الحد من دارسى الرسم والنحت والفن المعمارى والقانون والطب والهندسة ...الخ . وقصد الكهنة من ذلك إلى ربط هذه الفنون والمهارات بعجلة التقدم الحضارى فى المجتمع المصرى القديم، فهم المسيطرون على توجيهها وتحديدها ، بل عمل الكهنة بسلطاتهم الواسعة المطلقة على صهر الاتجاهات العلمية والفنية والحرفية فى بوتقة التقاليد التى كانوا هم أنفسهم يوجدونها ويعملون على تنميتها . وكان الخروج على هذه التقاليد كفراً وزندقة بل ثورة على الإله .

غرضه التربية

كان غرض التربية كما ظهر فى التعليم النظامى فى المدارس يهدف إلى تنمية ثقافية وتنمية مهنية . وكان هناك فنون وحرف كثيرة جداً (بالقياس إلى غير مصر من الدول فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الإنسان المؤرخ) ، وكانت فى أيدى جماعات من الكهنة يحتلون درجات دنيا من طبقتهم . ولنا أن نتوقع سيطرة الكهنة ، فكان جل عمل هؤلاء الفنانين والحرفيين فى الأهرامات والمعابد والمقابر ، أى حيث يدفن الفرد فى إنتظار عودة (الكا) إليه ، والموت والدفن والبعث أمور من اختصاص الكهنة .. طبعاً .

ونلمح فى التاريخ المكتوب عن مصر القديمة تكوين نقابات مهنية ونشأة (ورش) لصناعة أدوات ومهمات ومعدات الدفن بكميات هائلة . ولعلك تلمح ما للدفن من أهمية فى حياة المصرى القديم، فقد كانت للموت تجهيزات ومتطلبات عاش عليها عدد كبير من أصحاب الحرف والمهن والفنون . ولأهمية متطلبات الدفن ، وخوفاً من استغلال التجار لها ، فقد كانت لها تسعيرة رسمية. ولاتساع علاقات مصر بدول العالم المعروف وقتئذ والتى كانت بينها وبين مصر صلات ، ولتقدم مصر الفنى والصناعى — فقد انهالت الطلبات على المنتجات المصرية ، وقد أدى هذا إلى نمو التربية المهنية ، وكان هناك فنيون على مستوى عال ، وفنيون يمكن أن نطلق عليهم بالتعبير الحديث المنفذين .

وكان للكهنة طبقة أوضحت التفاوت فى درجاتهم ، وكان منهم المتخصصون فى الطب والمكونون لجماعة الأطباء . ولم يكن هناك محامون بالمعنى العصرى ولا قضاة ، فكان صاحب وظيفة كبرى يحكم فيما يعرض عليه ، ومن فئة الموظفين الكبار تكونت جماعة القانون ، الذين لهم حظوة عند الفرعون ، أما الكتاب الذين يتمثلون فى (الكاتب المصرى) الذى نعهده فى التماثيل والرسوم جالساً القرفصاء ، فكان عددهم كبيراً ، وعليهم مسئولية المحافظة على سجلات الدولة والمعابد وكتابة المراسلات .

ويتضح الاتجاه العملى المهنى فى التربية المصرية القديمة ، لكن فوق كل هذا كان على هذه التربية أن تحافظ على المدنية المصرية بالمحافظة على التراث الثقافى ، فهدفت التربية إلى هذا عن عمد لتحقيق أغراض محددة .

المناهج

(ا) القراءة والكتابة : تحددت المناهج بحاجات المدنية المصرية ، كما عملت المناهج على تحقيق الأهداف التربوية ، واشتملت المناهج على قراءة وكتابة المخطوطات ، وقد اعتقد المصريون أن إلههم توت هو الذى اخترع الكتابة ثم علمها لسكان الوادى الأوائل ، والظاهر أن أقدم الكتابات المصرية كانت تصويرية ، فتعبر عن الشيء برسم صورة له ، ولما كانت بعض المعانى مجردة إلى حد يصعب تصويرها تصويراً حرفياً فقد استعيض عن التصوير بوضع رموز للمعانى ، فمثلا مقدم الأسد يعبر عن السيادة ، وفرخ الضفدع عن الآلاف ... بل إن مجموعة صور كانت تعبر عن لفظ واحد ، فكان الكاتب يقطع الكلمة الصعبة مقاطع ويبحث عن الألفاظ المشابهة لهذه المقاطع نفسها فى النطق والمغايرة لها فى المعنى ، ويرسم مجموعة الأشياء التى توحى بها أصواتها ، حتى استطاع فى آخر الأمر أن يعبر بالعلامات الهيروغليفية كل ما يريد .. ثم حدث تطور فاستخدمت الصورة لتدل على حرف ،

فالعلامة الدالة على اليد (وهى تنطق بالمصرية القديمة دت) أصبحت تعنى (د) أياً كان تشكيلها ، والعلامة الدالة على الثعبان تعنى حرف (ز) .. إلخ(١) . وأصبح هناك أربعة وعشرون حرفاً هجائياً انتقلت مع التجارة الفينيقية إلى البلاد الواقعة حول البحر المتوسط . هذا، ويقول برستد : إن المصريين عرفوا الحروف الهجائية قبل غيرهم بخمسة وعشرين قرناً(٢) . ومع وجود الحروف الهجائية إلا أن المصريين لسبب مجهول ، استمروا يخلطون بينها وبين الصور الدالة على الرموز . على أن فرقاً كبيراً يلحظ بين اللغة المكتوبة واللغة العادية التى يتعامل بها الناس فى حياتهم العامة ، ولذلك كانت هناك لغتان .

وكانت مهنة الكاتب الخطوة الأولى للترقى إلى المناصب الكبرى ، فتعلم الكتابة لم يكن سهلا ميسوراً إذا عرفنا أنها تتكون من ٥٠٠ رمز ، ولذلك فكان الكتاب يعفون من الأعمال اليدوية ، وينالون منحاً ملكية . وينصح أب ابنه ليكون كاتباً فيقول له : « لم أر مطلقاً الحداد أصبح سفيراً ، ولا الصائغ مبعوثاً ، ولكننى رأيت الحداد يتلظى بالنار أمام الفرن ، وأصابعه كالتمساح ورائحته أقذع من السمك والبيض »(٣) . وفى آراء تاريخية أن المثقفين من المصريين القدماء هم الذين تمتعوا بحريات شخصية .

ولاتصالات مصر بالخارج فقد اشتمل المنهاج على تعلم لغات أجنبية ؛ ليصبح الكاتب قادراً على كتابة مراسلات لأجزاء الإمبراطورية المترامية . وقد استخدم الكتاب ورق البردى المستخرج من نبات البردى الذى كان ينمو على شاطئ النيل ، ولعل كلمة papyrus هى التى اشتقت منها كلمة paper أى الورق . وكان المصريون يصنعون حبراً أسود لا يتلاشى ، بمزج الصناج

---

(١) ول ديورانت (ترجمة محمد بدران) : قصة الحضارة — الجزء الثانى ص١٠٨—١٠٩ .

(٢) Breasted, J. H. : A History of Egypt, p. 32.

(٣) Mulhern, J. ,op. cit. p. 74

والصمغ النباتي بالماء على لوحة من الخشب . أما القلم فكان قطعة بسيطة من الغاب يعالج طرفها ليصلح للكتابة .

(ب) الأدب : خلف المصريون ثروة من المخطوطات وما يمكن أن نطلق عليه كتباً مدرسية ، حوت حكايات خرافية ، وأخبار الرحلات وسيراً شائقة من أعمال مشاهير الرجال . وأهم الكتب هي : كتب الأمثال ، والتعليم الخلقي ، والمواعظ ، والسلوك الطيب . فهذه « تعاليم بتاح حوتب » التي يرجع تاريخها إلى عام ٢٨٠٠ ق . م . والتي تؤكد أن مصر بدأت الفلسفة الأخلاقية في العالم . ولعل أقدم ما بقي من الأدب القديم هو « نصوص الأهرام » وقد نقشت على جدران أهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة ، وهي موضوعات دينية ورعة . وقد حفظت لفافات من البردي في قوارير ترجع إلى حوالي ٢٠٠٠ ق . م ، وفيها قصص يراها بعض المؤرخين قريبة الشبه جداً بقصة روبنسن كروزو ، وأخرى شبيهة ابسندريلا ... ومن القصص ايلمصري القديم « سنوحى » و « الملاح الغريق » .

وإلى جانب دراسة هذا الأدب كان التلاميذ يدرسون الأغاني والأهازيج الدينية ، وكانوا يستخدمون الناي والقيثارة ضمن آلات موسيقية أخرى . وكان الأدب الديني محور الدراسة في كليات المعابد . وبلغ التعمق فيه درجة غالية .

(ج) العلوم : وكان على كهنة المستقبل أن يدرسوا إلى جانب مناهج الأدب مناهج في العلوم . ودراسة العلوم حتمتها الحياة المصرية وطبيعتها ، بحكم اعتماد المصريين على النيل ، وحسابهم للأعياد الدينية ، وبنائهم لمقابر شاهقة تحفظ جسد الفرعون ، ثم تحنيطهم الجثث حتى تعود (الكا) إليها . ويرى بعض المؤرخين أنه مع التقدم الذي يثير الإعجاب والذي أحرزه المصريون القدماء في العلوم ، إلا أن السحر والخرافات قد أثرا في إمكانية إحراز تقدم وتفوق أكثر . ويلوح أن السحر والخرافات تدخلا في كل فروع العلوم إلا في الرياضيات .

ويكاد الكهنة يستأثرون بالعلوم ، فكان معظم العلماء منهم ، وساعدهم على ذلك فراغ طويل أهلهم للبحث والدراسة ، بل إنهم يرجعون العلوم واختراعها إلى الإله توت (تحوت) إله الحكمة فى حوالى ١٨,٠٠٠ ق . م ، حينما حكم مصر ثلاثة آلاف سنة . والثابت تفوق المصريين فى الرياضيات التى ساعدتهم فى بناء الأهرامات ، وقياس الأراضى التى كان النيل يغمرها ، وفى حساب الأوقات .

وقد عرف المصريون عمليات الضرب ، ويلوح أنهم لم يعرفوا طريقة القسمة فى رأى بعض المؤرخين . وفى رأى آخر أنهم عرفوها . ولم يعرفوا الصفر واستخدامه وكانت معلوماتهم عن الكسور طفيفة ، فقد عرفوا الكسور الإعتيادية ولكن كان بسط هذه الكسور العدد (١) على الدوام ، كما عرف المصريون معادلات الجبر من الدرجة الأولى ، وقاس المصريون القدماء مساحة المربع والدائرة والمكعب ، وقاسوا حجم الاسطوانة والكرة .

ونظراً لأن الكثير من المعلومات العلمية كانت من الأسرار التى استبقاها الكهنة لأنفسهم ؛ لم يذيعوها — فقد أصبح من الصعب الحكم على مدى ما عرفه المصريون القدماء ، اللهم إلا من المخلفات التى تبرز مدى ما وصلوا إليه من تفوق علمى : فلا شك أنهم كانوا على علم كثير بالهندسة المعمارية ، مما يثير دهشة المهندسين المعاصرين .

أما عن الطب ، فصحيح أنه تأثر فى بداية الأمر بالسحر ، إلا أن المصريين القدماء توصلوا إلى معلومات عن جسم الإنسان لم يصلها شعب من شعوب العصور القديمة . كانوا على دراية بالأوعية الدموية ، وأنها تتفرع من القلب ، فسواء وضع الطبيب يده على جبهة المريض أو يده فانه يحس بعمل القلب . ولكنهم لم يعرفوا الدورة الدموية . وعرف المصريون مكان الأعضاء فى الجسم ولكنهم لم يتقدموا فى تشريح الجسم . وقد استخدموا فى علاج الأمراض الشائعة زيت الخروع والخل والعسل إلى جانب تركيبات مراهم ، وقد تركوا لنا بردية بأسماء سبعمائة دواء لمعالجة أمراض تبدأ من عضة الأفعى إلى حمى

النفاس ، بل استعمل الأطباء أقماع اللبوس لمنع الحمل. على أن الغريب أن بعض الوصفات كانت تجمع بين الناحية العلمية والسحر ، فنقرأ فى تذكرة طبية عن استخدام دم السحلية ، وأذن الخنزير وأسنانه ، ومخ السلحفاة ، وكتاب قديم مقلى فى الزيت ... بل وروث الحمير وبراز الكلاب والقطط (١).

ونبغ المصريون القدماء فى الجراحة ، وقد عرفوا التخصص فى مهنة الطب فكان هنـاك أطباء متخصصون فى اضطرابات المعدة وأطبـاء العيون ، والمتخصصون فى أمراض النساء والتوليد ، وأطباء للأسنان .

(د) طرق التدريس والنظام: غلب على تعليم القراءة والكتابة استخدام الأشكال التقليدية فى التدريس وأهمها التقليد والتكرار ، خاصة إذا علمنا صعوبة تعلم اللغة المصرية القديمة . أما فى تعلم المهن فقد اتبع نظام التلمذة الصناعية ، حتى بالنسبة للكتاب ، فقد كانوا يمضون بعض الوقت فى المكاتب الرسمية . وأما الأدب فكان يعلم بطريقة الحفظ والاستظهار ، وخاصة الأدب الدينى . وأما مناقشة النصوص الدينية وشرحها فكان حقاً قاصراً على كبـار الكهنة . كما كانت النصوص الدينية والأدبية لا تقبل مطلقاً أى تحريف أو إضافة أو حذف ، ولذلك فقد اعتمدت طريقة تدريسها على الحفظ الآلى ، وقد أدى هذا إلى نوع من الثبات فى التقاليد المصرية القديمة والحياة الاجتماعية . ووقع العقل أسيراً لقدسية الكلمات التى لو أخطأ المصرى القديم فيها حقت عليه لعنة الآلهة وغضبها . وكان التلاميذ يكلفون بكتابة مقالات عن المعتقدات السحرية والخرافية ، ولعل هذا أيضاً من أسباب استمرارها وبقائها (٢).

وكان النظام فى المدارس قاسياً ، وكان الجلد شائعاً إذا ما ارتكب التلاميذ مخالفة لأوامر أو أهملوا أداء واجب .. بل وصل الأمر إلى حبس المخالف مدة وصلت إلى ثلاثة أشهر (٣) . ويلوح أن المصريين القدماء اعتقدوا فى ضرورة

---

(١) ول ديورانت (ترجمة محمد بدران) : قصة الحضارة . الجزء الثانى — ص ١٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٥ .

(٣) Mulhern, op. cit., p. 78 .

الشدة القاسية على المتعلمين ، ومع ذلك فهناك شواهد على استخدام النصائح في التهذيب بدلا من عمليات القمع والتعذيب .

التنظيمات المدرسية: كان الأطفال يظلون فى حضانة أمهاتهم حتى سن الثالثة ، واعتبر المنزل مدرسة الطفل حيث يتعلم القواعد الأولى للحياة باحتكاكه بوالديه ورفاقه في اللعب . وقد عرف الأطفال اللعب ، فكانت للبنات الدميات ، وللصبيان لعب على شكل التمساح ، وعندما يصل الطفل إلى سن الخامسة يدخل المدرسة حيث يتعلم الكتابة . وكانت المدارس خاضعة للحكومة التي تمولها وتشرف عليها . ويبقى التلاميذ فى هذه المدارس إلى سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة حيث كانوا يدرسون مهنة من المهن ، وكان من الأمور الشائعة أن يغير الطالب مهنة بأخرى . وتتضمن الدراسة تدريباً عملياً بعد سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ويظهر أن الطالب كان يتقاضى بعض الأجر عن عمله فى فترة التدريب . أما الطلبة الذين يريدون دراسة اللاهوت والمسائل الدينية فكانوا يلتحقون بكليات المعابد بعدسن السابعة عشرة(١). وتتوقف مدة الدراسة على الوظيفة الكهنوتية التى يعد الطالب لها .

وعرف نوع التعليم الذى يطلق عليه التلمذة الصناعية ، فينضم الطالب إلى من هو حاذق في صناعته ، ويتتلمذ عليه . وكان هذا النوع من التعليم خارج نطاق المدارس بصورتها النظامية .

وتشير نصوص مصرية قديمة إلى « الاصطبل الملكى للتربية » ، ويرى البعض أن رئيس هذا (الاصطبل) كان المسئول الأول عن التربية ، ورأى آخر أنه كان مدرسة عسكرية التحق بها أبناء النبلاء ليتعلموا الكتابة والعلوم العسكرية .

المعلمون : عهد تعليم مبادىء الكتابة إلى موظفين حكوميين ، وإليهم عهد أيضاً الإشراف على نسخ المواد المكتوبة ، والتى كان الطلبة يقومون

---

(١) Woody, Thomas, op. cit., p. 60

بنسجها ، وما فوق هذه الأعمال البسيطة كان يعهد إلى أفراد من جماعة الكهنة المسئولين عن تدريس الدين والمحافظة على التراث الأدبي والديني ، كما عهد كذلك إلى الكهنة تدريس العلوم والرياضيات ، بل كانت سيطرتهم على التعليم العالي لأبناء الطبقة (الراقية) سيطرة كاملة .

ومما يذكر بالفضل أن المصريين القدماء أبقوا للأسرى ثقافتهم ، فقد كانت آلهة مصر لا تمانع في إستمرار وبقاء آلهة الأسرى من الدول التي أخضعتها مصر .

ويكاد يتفق كل المؤرخون على أن سيطرة الكهنة على التعليم النظامي قد أعطاهم السيادة على العقل المصري القديم ، وباتحاد الكهنة مع الهيئة الحاكمة لتحقيق أهداف مشتركة — أمكن لثقافة الأمة أن تستمر محتفظة بطابعها دون تغييرات تذكر .

الطلبة : لم يدخل المدارس إلا عدد محدود من التلاميذ وخاصة في مراحل الدراسة العليا . وقد خضع الطلبة لنظام صارم أشاع في نفوسهم خوفاً مستمراً . ومع ذلك فان بعض الكتابات المصرية القديمة تذكر أن بعض الطلبة انغمسوا في حياة لا تليق بالخلق الطيب ، وأقبلوا على شرب البيرة والنبيذ بكميات كانت تفقدهم وعيهم ، وكثيراً ما عبر المدرسون عن استنكارهم لموقف الطلبة .

ولا يسمح للبنات بالإلتحاق بالمدارس ، ولكن بنات الطبقات الاجتماعية الراقية كن يدرسن نفس المناهج التي كان يدرسها الأولاد ، ولكن على أيدي مدرسين خصوصيين . ويساورنا العجب لحجب التعليم عن البنت مع ما نالته المرأة في مصر القديمة من مركز أشرت إليه سابقاً .

موارد التعليم : سيطرت السلطات الرسمية والدينية سيطرة كاملة على المدارس وإن لم تنص القوانين على ذلك ، بل تحكم العرف في إبقاء هذه السيطرة . أما هيمنة هذه السلطات على تدريب الفنانين والصناع فكانت غير مباشرة ، إذ أن الفن والصناعة قد خضعا لمتطلبات السلطات الرسمية والدينية .

ويلوح أن مصاريف الدراسة كانت قليلة جداً سواء في المدارس العامة أو

كليات المعابد . وكان الوالدان يمدان ابنهما بالطعام حتى يصل إلى صفوف مهنة الكتاب ، وحينئذ كانت تصرف له وجبات مجانية من المخازن الملكية . أما كليات المعابد فبحكم ارتباطها بهذه الأماكن الدينية فكانت — بفضل البذخ فى تقديم القرابين — غنية جداً ، ونعم فيها الطلبة بحياة من الرغد جديرة بالذكر.

* * *

هكذا كانت التربية المصرية حافظة للثقافة وعاملة على استمرار بقائها ، وإذا كانت مصر قد حققت تقدماً هائلا فى ميادين مختلفة ، فقد يرجع الفضل فى ذلك إلى طبقة مختارة كان لديها من الوقت والتفرغ والبواعث ما أتاح لها فرص التفكير والإنتاج ، بل إن التعليم النظامى كان فى أيدى هذه الطبقة توجهه الوجهة التى تريدها ، وبذلك سيطرت على عقول المصريين أجيالا طويلة . لقد رأى المصريون مجتمعهم على أنه من خلق الآلهة ، ومن أجل هذا فهو أحسن المجتمعات . ولم يدر بخلدهم أن يعبثوا بالتغيير فى هذا المجتمع وإلا غضبت الآلهة .. ولذلك فشلت محاولة أخناتون فى دعواه للتوحيد . وكان على البشرية أن تنتظر قروناً أخرى ورجالا أخر لتهضم هذه الفكرة .

ولا يجب علينا أن نترك زمن الفراعنة دون أن نشير بفخر مبتزن واعتزاز عاقل إلى نجاح رحلة « رع ٢ » والتى قام بها هايردال النرويجى ومعه سبعة من جنسيات مختلفة رافعين علم الأمم المتحدة على مركب من البردى عبرت المحيط الأطلسى . وقد اختلفت الآراء فيما إذا كان المصريون القدماء قد سبقوا كولمبس إلى العالم الجديد ، وحول اتصالهم بأهل المكسيك ، وحول وجود أهرامات مكسيكية على غرار الأهرامات المصرية .

وقد يكون من الأوفق ألا نتعجل القول بأن المصريين القدماء قد اكتشفوا العالم الجديد ، وأنهم أقاموا حضارة هناك ، كما يجب علينا أن نأخذ بحذر شديد كل ما قيل عن وجود مسلات « وعددها سبع » على سطح القمر التقطتها عدسات رواد الفضاء . وبعد فان آلاف الأسئلة تنتظر فى لهفة إجابات شافية.

وسواء وصل المصريون القدماء إلى أرض الأمريكتين أو لم يصلوا فانه

مما لا شك فيه أن ما خلفوه من تراث مادى وفكرى لا يمكن التقليل من شأنه. ثم إنه قد جاءت على مصر فترات أصابها خمود وركود ، وغزاها غزاة فى القرون القليلة السابقة لميلاد السيد المسيح. فقد غزاها الفرس وأقاموا بها سنوات طويلة . وجاء الإسكندر المقدونى وبنى الإسكندرية وكانت جامعة عظيمة فيها

جامعة الإسكندرية

ورث البطالمة مصر بعد موت الإسكندر المقدونى ، وإليهم يرجع الفضل فى جعل الإسكندرية مركزاً ثقافياً عالمياً ، بل إنها انتزعت القيادة الثقافية من أثينا الإغريقية ، وقد انتهج البطالمة خطة قوامها إنشاء دار خاصة للدراسة والبحث أطلقوا عليها اسم الموسيون Mouseion ومعناها دار ربات الفنون(١). وقد أثرى ملوك البطالمة هذه المكتبة بحوالى سبعمائة ألف لفافة بردى من المصنفات اليونانية والمصرية والعبرية ، والأثيوبية وغيرها .

كما أقبل على الإسكندرية العلماء والشعراء من شتى أنحاء العالم المعروف وقتئذ ، ومنهم كاليماخس وثيوا كريتوس ، وأبولونيوس الرودسى وغيرهم من القمم الذين أعطوا الإسكندرية اسماً لامعاً لجامعتها ومكتبتها ، حتى سميت هذه الحقبة باسم الأدب الإسكندرى ، وذلك لشدة تأثير مدرسة الإسكندرية على الإنتاج الأدبى فى العالم فى ذلك الوقت . ولم يقتصر التأثير الإسكندرى على ميدان الأدب بل قامت بها حركة علمية ارتفعت بعلوم الرياضة والطبيعة والفلك والهندسة إلى آفاق جديدة متقدمة . وكان من علماء الإسكندرية اقليدس العالم الرياضى والهندسى ، وأرشميدس صاحب قانون الطفو ، وأراتوستنيس صاحب المحاولة الكبرى لقياس محيط الكرة الأرضية(٢) .

هذا، ولنا لقاء آخر مع مدرسة الإسكندرية وعنها، وفى تأثيرها التربوى والتى لا تزال انطباعاتها وتأثيراتها فيما ليس بالقليل من أنظمة وطرائق ومناهج التعليم فى عالم اليوم .

---

(١) مصطفى العبادى : مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ص : ١٤٣ .

(٢) نفس المرجع السابق . ص ١٤٤ — ١٤٥ .

الفصل الثالث
التربية الإغريقية

مدخل

على دارس تاريخ التربية ألا يدهش للوفرة في المادة العلمية التي يجدها عن حياة اليونان القدماء وفلسفتهم وتربيتهم . فالكتب الغربية التي تناولت التربية وتطورها بالبحث والشرح والتعليق أبت إلا أن تعطى الإغريق نصيب الأسد، وقد يقول بعضهم إن وفرة ما عندهم من مصادر عن هذه الفترة في حياة البشرية مع ازدهار للحياة الفكرية في المدن الإغريقية تحتم عليهم أن يفردوا لها مكان الصدارة . على أن بعض الدارسين يرون في هذا تحيزاً من غربي لغربي ، ويهتفون صائحين بأن ييمم مؤرخو التربية وجوههم شطر الشرق ، وسوف يجدون فيه الكثير من الفكر الذي يستحق كل عناية ... في وقت سبق فيه الشرق الإغريق بأكثر من عشرين قرناً .

وتقع اليونان على حافة العالم الغربي متوسطة الشرق والغرب ، ولم تتقابل حضارتا الشرق والغرب على أرض اليونان القديمة فحسب ، بل إن هذه الأرض ذاتها فجرت ينابيع من الحكمة والفلسفة سالت على الشرق ثم أغرقت الغرب إغراقاً ما عاد بعده بمستطيع أن يقبل مزيداً من التراث الفكرى الذى خلفه الشرق . وتمر قرون طويلة قبل أن يتطلع الغرب حواليه ثم يمد عنقه إلى الشرق الغامض يتأمل — في حذر شديد — في أديانه وتعاليمه ونظرته للحياة الدنيا والآخرة(١) .

---

(١) وتقول الأنباء الواردة من العالم الغربي وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية أن أعداداً غير قليلة من الشباب اعتنقوا بعد أن آمنوا ببعض ديانات الشرق .

واليونان شبه جزيرة تمد أصابعها وجزرها فى البحر المتوسط مناخه المعتدل الداعى إلى حرية الحركة . وليس شبه الجزيرة سهلا يرمح فيه الإنسان والحيوان كيفما شاءا ، بل جبالا ووهاداً تتطلب مشقة وعملا وجهداً جسمياً . وعلى أرض شبه الجزيرة تناثرت دول أطلق على كل منها « مدينة دولة » City State ولكل منها نظامها وقوانينها وتشريعاتها وأطماعها ...

وعشرات من الآلهة للبر والبحر وللحرب والسلم والجمال .. وتحارب الآلهة بعضها البعض الآخر .. وإذا كان فرعون مصر إلهاً يموت فآلهة الإغريق خالدة لا تموت ، ولكنها تغضب وتثور وتهدد وتنذر ثم تهدأ ، ويرقص الإغريق ويقيمون الاحتفالات ، وتسيل أنهار من خمر مصفى ، وتمد الموائد، ويباح ما نراه اليوم إثماً وجرماً .

ولم تعرف اليونان القديمة وحدة ، واختلفت بين مدنها الأنظمة الحكومية بين ديموقراطية واستبدادية ممعنة فى جبروتها وسطوتها . وقبل أن نطرق أبواب مدينة من هذه المدن — وهى حديثة فى تاريخها — نتساءل عن أحوال بلاد اليونان فى عصور التاريخ المبكرة . والمعلومات قليلة ، بل نادرة وتعتمد على الأساطير ، فيقال مثلا إن سيكروبيا المصرى هو الذى أسس مدينة أثينا وحمل إلى هذه الأرض فنون الحياة المتحضرة . كما أن مصرياً آخر وهو دانايوس هو الذى أسس آرجوس ، وقد طار إلى بلاد الإغريق ومعه بناته الجميلات وقد بلغ عددهن خمسين عذراء وانتخبه السكان ملكاً .

ويظهر الإغريق إعجابهم الشديد بأبطال أساطيرهم ، وتقديرهم البالغ للأعمال التى تفوق إمكانات البشر ، ولا تجد الأساطير غضاضة فى أن يطير الإنسان ويحطم ما يريد ، ويهيج البحر بأمر من الآلهة ، فتثور الطبيعة وتعلو الأمواج .. بل ، وقدوة عند البطل لتحويل كل حى إلى حجر ، وأن يحمى الفارس حبيبته ويقتل حيواناً رأسه رأس أسد على جسم ماعز له ذيل التنين . وتقص الأساطير عن مانيوس ملك كريت الذى أبعد القراصنة عن شواطىء جزيرته ثم منح شعبه قوانين جاءته من الإله زيوس . كما أن البطل المغوار

تيسيوس حرر آثينا من اللصوص ومن الجزية التى كانت تدفعها لملك كريت بشرط أن يقدم كل عام للوحش مينوتاور سبعة شبان وسبع فتيات عذارى . أما هرقل فكان أعظم الأبطال ، وقد استطاع أن يحقق الأعمال الخارقة التى أطلبها منه ملك ميسينيا بموافقة الإله زيوس .

شعب وبطل وملك وإله تجمعهم الأساطير والكل سعيد بها ، بل هى محل فخر كل إغريقى فى ذلك الوقت .. وخرجت البعثة الآرجونية التى تتكون من خمسين بطلا وعلى رأسهم العظيم الهائل جاسون على سفينته آرجو ليعودوا بالفراء الذهبى الذى أخذ إلى شواطىء أيوكسين ..

واتحد الإغريق فى الأساطير لإنقاذ هيلين ذات الجمال الساحر وزوجة مينيلايوس ملك أسبرطة .. وغضب البطل الأسطورى أخيل وكان جسمه كله مغطى بالدروع إلا فتحة صغيرة فى كعبه نفذ إليها سهم قاتل ... ثم يوليسيوس وأفعاله الخارقة وتدمير طروادة وعودة الأبطال ... وكل هذه الأحداث وعشرات البطولات تكون الإلياذة والأوديسا لهومر .

ونستقى معلوماتنا عن العصر الهومرى (حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد) من الإلياذة والأودسا حيث تكون المجتمع من طبقة أرستقراطية وأخرى متوسطة وطبقة العبيد . واشتملت الطبقة الأرستقراطية على ملاك الأرض ، والمتوسطة على العمال والصناع .. وتوقفت تربية الأفراد على الطبقة التى ينتمون إليها ، فأصحاب الطبقة العليا تعلموا الفنون الحربية والموسيقى . وفى هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإغريق انقسم اليونانيون القدماء إلى أربعة فروع : الدوريون — الأيونيون — الأيوليون — الأخيون . وحتى قبل قيام المدن فقد عرف الإغريق التصارع والحرب ، ولعل أول هذه الأقسام نمواً فى الأمور السياسية كانوا الدوريين والأيونيين ، وأشهر مدن الدوريين أسبرطة أما بالنسبة للأيونيين فقد برزت آثينا ، وكانت ديموقراطية ، بينما اسبرطة ذات طابع ديكتاتورى استبدادى .

وفى مستهل القرن السادس قبل الميلاد ظهرت عدة تشريعات إصلاحية

على يد القانونى سولون، وتبعه فى أفول القرن كلايسثنيس بتشريعات أكدت ديموقراطية آثينا . ولكنها كانت ديموقراطية عرجاء ناقصة ، فالحضارة الإغريقية اعترفت أنها قامت على نظام العبيد .

ثم جاء الفرس غازين من الشرق بين عام ٥٠٠ وعام ٤٧٩ ق . م. وكانت حروب بين الفرس وبين الإغريق انتهت لصالح الأخر . وتمتعت آثينا بمركز حربى وسياسى خلق لها زعامة المدن الأغريقية(١) .

وسادت آثينا ديموقراطية فى الداخل ، ولكن النزعات الاستعمارية بصمت سياستها فى الخارج خاصة عندما بدأت تمد تجارتها غرباً حتى بلاد الغال (فرنسا) وشرقاً مع الدول الآسيوية ، وأغرى الذهب المتدفق إلى أرضها فظهرت طبقة من التجار بدأوا يتدخلون فى السياسة .

وكان لابد للعملاقين أن يتصادما : آثينا بديموقراطيتها وتقدميتها، وأسبرطة بأرستوقراطيتها ومحافظيها ، عندما حاولت آثينا أن توحد كل الإغريق فى وحدة سياسية تحت زعامتها ، ولكن أسبرطة رفضت مؤكدة حق تقرير المصير لكل مدينة دولة (إلا المدن التى تحت سيطرة أسبرطة) وكانت الحرب البيلليبونيزية من عام ٤٣١ — ٤٠٤ ق . م . حرباً بين قوة آثينا البحرية وبين قوة أسبرطة البرية. حرب بين الديموقراطية وديكتاتورية عسكرية . وأرغمت اسبرطة آثينا على قبول شروطها بعد سلسلة من الهزائم الحربية حاقت بآثينا ويقال إن سببها أخطاء فى التكتيك الحربى وخيانات . ونظر الكثيرون شذراً إلى الديموقراطية ردحاً من الزمن ، ومع ذلك ظلت جذورها تنمو ، ولكن فكرة توحيد بلاد الإغريق لم تظهر على السطح مرة أخرى .

وفى القرن الرابع قبل الميلاد حاولت اسبرطة أن تسيطر على اليونان ، ولكن فارس أعادت الكرات الهجومية ، مما أضعف عضد اسبرطة ، وبلغ ضعفها درجة مكنت منها مدينة طيبة الإغريقية التى أصبحت صاحبة الكلمة العليا فى بلاد اليونان ، ثم بدأت تضعف . ومرت أجيال لم تعرف فيها بلاد

---

(١) ول ديورانت (ترجمة بدران) — الجزء الثانى من المجلد الثانى . ص ٦ — ٨ .

الإغريق الراحة والسلام ، فالمدن تأكل بعضها ، ولا يكاد المغيرون من مدينة يستقرون بعد غزوة إلا وتهاجمهم مدينة أخرى .. حروب ألقت ظلالها على فترات السلام القصيرة الهزيلة ، فأحالت خريطة بلاد اليونان القديمة إلى جلنوات من نار وبحار من دم لا يكاد يجف .

وبينما معظم بلاد الإغريق تعوم فى بحار الدم كانت مقدونيا فى الشمال تتوحد على يد فيليب المقدونى الذى عرف الأسر فى طيبة وتعلم الفنون العسكرية . وفى عهده وعهد إبنه لم تتوحد اليونان فقط ، بل امتدت إمبراطورية الإسكندر شرقاً إلى الهند وشملت آسيا الصغرى وفارس وسوريا ومصر . وبعد وفاة الإسكندر قسمت إمبراطوريته إلى أقسام ثلاث : مقدونيا وسوريا ومصر . وبموت الإسكندر بدأت اليونان ترنو ببصرها إلى عهود بركليس وأفلاطون .

وتمثل اسبرطة وآثينا نوعين متميزين من الثقافة الإغريقية ، ويتخذهما
وبموت الإسكندر بدأت اليونان ترنو ببصرها إلى عهود بركليس وأفلاطون .

وتمثل اسبرطة وآثينا نوعين متميزين من الثقافة الإغريقية ، ويتخذهما المؤرخون والمربون نموذجين للحياة والتربية الإغريقية . وسوف أتعرض لهما بقليل من الإسهاب الذى يتناسب وحجم كتاب يتناول بالعرض السريع تطور الفكر التربوى .

اسبرطة[1]

كان الغازى إذا أخضع مدينة لسيطرته أصبح السيد الحر ، أما الذين حلت عليهم الهزيمة فهم عبيد يأتمرون بأوامر الأحرار ، والحر هو من يفكر لنفسه والمتمتع بالحقوق السياسية وصاحب الأنشطة الرفيعة ، وهو الذى يتعلم ويحذق الفن والشعر والموسيقى والأدب . وقد غزا الاسبرطيون لاكونيا واستقروا فى كبرى مدنها (اسبرطة) متسيدين على البريويكى والهيلوت السكان الأصليين .

---

(١) لشرح أوفى فى التربية اليونانية والرومانية — انظر كتاب « التربية فى المجتمعين اليونانى والرومانى » للاستاذة فتحية حسن سليمان .

وبيريويكى تعنى « السكان المتجولين فى الأنحاء المجاورة » وهذا كان حالهم فقد تناثروا على مشارف اسبرطة فى مدن صغيرة بلغت حوالى مائة مدينة ، وكانوا أرقى من الهيلوت Helots وهم العبيد فقد تمتعوا ببعض الحقوق المدنية والسياسية وكونوا الطبقة المتوسطة التى بلغ عدد أفرادها حوالى ١٣٠,٠٠٠ فى حين كان عدد العبيد الهيلوت حوالى ٢٢٥,٠٠٠ أما الإسبرطيون السادة فكان عدد حوالى ٤٥,٠٠٠ سيد(١) . وكانت مهمة العبيد خدمة أسيادهم ، أما البيريويكى ومنهم ملاك وتجار وصناع فكان عليهم دفع ضرائب باهظة للإسبرطيين السادة(٢).

وبينما عاش الإسبرطيون السادة حياة ديموقراطية إلا أنهم كونوا طبقة متعالية فى أرستوقراطيتها على الطبقتين الوسطى والعبيد . واتخذ نظام الحكومة شكلا جمهورياً من وجهة نظر ، وشكلا ملكياً من وجهة نظر أخرى. فكان هناك ملكان وجمعيتان للمواطنين ، وفيهما كانت السلطة الفعلية للدولة . وأعلى الجمعيتين تكون مجلس الشيوخ ويتكون من ٢٨ عضواً كل منهم يزيد سنه عن ستين سنة ، ويتولى عضويته مدى حياته. أما الجميعة الأخرى فكانت تضم أعضاء فوق من الثلاثين وصلوا إلى كراسيهم بالانتخاب ، ثم انتخب الأعضاء خمسة منهم يمثلونهم وسموا الـ Ephors.

وكانت سياسة اسبرطة تقوم على التفوق العسكرى لتظل للسادة السيادة على بقية السكان .ولهذا تكون نظامهم التربوى بهذه الفلسفة(٣) . ويرجح أن نظام التربية الإسبرطية يرجع إلى المشرع ليكرجس فى حوال منتصف

---

(١) Mulhern, op. cit., p. 134.

(٢) McCormick, op. cit., p. 89.

(٣) منرو ، بول (ترجمة صالح عبد العزيز) : المرجع فى تاريخ التربية — جزء أول ص ٧٢ - ٧٣ .

القرن التاسع قبل الميلاد . وكان هدفها إعداد الفرد لمكانه فى الدولة . فالولد يعد ليكون ذا كمال جسمى شجاعاً متحلياً بعادات الطاعة العمياء للقانون ، وحتى يكون الجندى الذى لا يهزم ، متقشفاً وضابطاً لشهواته مخاطراً ومتحدياً المشقات ، أما المرأة الإسبرطية فكانت تربى لتتصف بالترفع والنشاط فى الحياة

وكانت الدولة تمتلك الطفل منذ لحظة مولده ، وهى التى تحدد ما إذا كان هذا الطفل يستحق الحياة أو الموت ، ويحدد هذا القدر مجلس من المسنين ، فاذا أنسوا فى الطفل ضعفاً أو هزالا تركوه فى العراء ، ثم يعودون إليه بعد فترة ، فاذا كان قد تحمل الجوع والجو سمحوا له بالحياة ، وإلا فخير لهم أن يموت فلا ينمو مواطناً ضعيفاً .

ويسمح للطفل بالبقاء تحت رعاية الأم فى البيت لمدة سبع سنوات ، ثم يرسل كل الأطفال إلى مؤسسات تديرها الدولة حيث يتولى أمرهم مدرب Paedonomos يعاونه بعض المساعدين . ويصبح الطفل عضوا فى أسرة أكبر هى الدولة ، حيث يعيش مع غيره من الأطفال فى ظل نظام قاس . ويأكل الأطفال سوياً ويلبسون ملابس متشابهة ، وينامون فى معسكرات يغلب عليها طابع التقشف ... وكل شىء مشاع بينهم ، فكل شىء ملك للدولة ، ولم يسمح لهم إلا بارتداء القليل مما يستر الجسم ، وبالتغذى بالضرورى ويقسم الأطفال إلى مجموعات ، تتكون كل مجموعة من أربعة وستين طفلا ، وعلى رأسهم Eiren ولد اختير لشجاعته وحسن تصرفه . ويصف المؤرخ بلوتارك أولئك الصبية الذين لم يتجاوزوا الثانية عشرة فيقول : « كان كل غلام يظهر الخلق الحسن وحسن التصرف والشجاعة والإقدام بين أنداده يصبح زعيما للجماعة ، وكان الباقون يرمقونه بأعينهم ويطيعون أوامره ، كما يتحملون — بكل صبر — أى عقاب كان ينزل بهم . لذا كانت التربية تهدف إلى تمرين الأطفال على الطاعة » .

وكانت حياة الإسبرطى تدريباً مستمراً للحرب ، فكان الواحد منهم ينام فى المعسكرات حتى يبلغ سن الثلاثين ، ويأكل فى الميس العام حتى يبلغ سن

الستين ، وكان لا يسمح للفرد إلا بقدر قليل من المال والحاجات العينية : مما يحتاجه لبعض الضروريات . وإذا كانت الدولة قد منحت كل إسبرطي حر قطعة من الأرض يزرعها ويفلحها له العبيد ، فانها تطلبت منه أن يدفع لها مبلغاً في الشهر ، وإذا فشل فرد في تقديم ما يطلب منه طرد من الميس وحرم من المواطنة . وكان يطلب من المواطن إعادة إردبان من الشعير ، وثمانية جالونات من النبيذ ، وستة أو سبعة أرطال من الجبن ، وأربعة أرطال من التين المجفف ، وكمية معينة من اللحوم .

ولم تسنح للطفل الإسبرطي فرص لتدريب العقل ، فقد غطت التربية العسكرية الجوانب الأدبية في مناهج التعليم ، بل لم يتعلم القراءة ولا الكتابة في مدارس الدولة إلا على أيدي مدرسين خصوصيين . أما أشعار هومر والأغاني الوطنية فقد اهتم المسئولون بها على أساس أنها تدعو إلى الحماس وتوقظ الهمم أكثر من كونها مادة للتقدير الأدبي والفني . وإذا كان معظم الإسبرطيين قد جهلوا القراءة والكتابة ، فان أفلاطون يبدى إعجابه بسرعة بديهة الاسبرطي وسرعة رده ، ولو أنه لأول وهلة يظهر كما لو كان غبياً . وكان الفتى الإسبرطي يستمع إلى مجادلات ومحادثات الشيوخ أثناء تناولهم وجبات الطعام أو مسيرهم في الطرقات .

وعلى أن الجانب الأكبر من التربية الاسبرطية كان مكرساً للتدريبات العسكرية والتربية الرياضية . فكان الأولاد يمتطون ظهور الجياد ويمارسون السباحة يومياً ، ويقضون وقتاً طويلا في التمرينات التي تقوى العضلات وتبني أجساماً مرنه وقوية ، وكان الخمسة الكبار Ephors يزورون معاهد التعليم بصورة دورية للتفتيش على سير الدراسة والتدريب . ويجلس الواحد منهم يراقب عن كثب كيف يؤدب المعلم تلاميذه وكيف يجادلهم ويعاقبهم ، حتى إذا فرغ الدرس ولم يرض الزائر عن تهاون المعلم في عقابه تولى هو معاقبة المؤدب أو المعلم .

والقسوة والعنف كانا شعار التربية ، فالصبية يجرون ويقفزون ويتلاكمون

ويتصارعون ، ثم قليل من الرقص والموسيقى ، ثم سباحة وتحمل مشاق وتخطى عقبات ، ففى بعض المناسبات كان الأولاد والشبان يضربون ضرباً مبرحاً أمام مذابح الإلهة أرتيميس . ويسمح فى المصارعة والملاكمة بأى أسلوب يمكن الفرد من التغلب على خصمه كقطع جزء من جسمه أو إحداث عاهة به .

ومع هذه الشدة فكانت هناك تربية خلقية تلازم هذه التمرينات ، ولعل أهمها تقديس وطاعة الرؤساء ، أما الأمانة ، والصدق فلهما معايير قد لا نرتضيها اليوم . والتواضع مطلوب ، فالصبية يمشون فى الطرقات وأيديهم تمسك بأطراف العباءة وعيونهم شاخصة إلى الأرض . ولكن لا بأس من الكذب على غير الاسبرطيين ولا بأس من السرقة ، وعلى السارق ألا يضبط وإلا أصابه الجلد والامتهان بتهمة الإهمال وعدم الحرص والفشل . فالسرقة والتلصص تدريبان على أعمال الحرب .. وكل تدريب يؤدى إلى نصر فى الحرب مرحباً به عند الاسبرطيين . وشرب الخمر إلى الثمالة مرذول ، ولكى يدرك الإسبرطى الحر مثالب السكر الشديد فكان يؤتى ببعض الهيلوت العبيد ويرغمون على احتساء الخمر بكميات تلعب برءوسهم ويعرضون للسادة الأحرار !! وإذا زاد عدد العبيد فهذه كانت فرصة للتدريب على القتل ، فيطلق الطلبة إلى الطرقات والمنازل ليتمرنوا على فنون القتال ضد العبيد العزل .

وخضع الإسبرطى للعقوبات البدنية حتى يدخل الشاب ملتحقاً بفرقة الإفيبى Ephebi أى الطالب الحربى بعد سن الثامنة عشرة ، حيث كان يتلقى تدريبات عسكرية متقدمة ، كما كان يعمل معلماً للأطفال ومشرفاً عليهم . وإذا فشل الأطفال فى إجابات عن أسئلته كان رئيسهم Eiren يتلقى ضرباً مبرحاً ، وبالتالى يذهب هو ويضرب الأطفال الذين خذلوه بأخطائهم أو فشلهم ويتضح أن المعرفة العسكرية كانت تزرع فى نفوس الإسبرطى منذ صغره ، حتى إذا ما كبر وأصبح بفرقة الإفيبى كان مؤهلا لتلقى أعنف التدريبات العسكرية . ثم ينتقل إلى دراسة أكبر بعد اجتياز عده امتحانات عسيرة وشاقة . ويبقى فى فرقة الميللبرينس Milleirens عشر سنوات ، يصبح بعدها فى سن الثلاثين

أى رجلا مكتمل الرجولة ، مواطناً ومحارباً ، وعليه أن يتزوج حينئذ .

أما البنات فقد عهدت تربيتهن إلى الأمهات ، وكن يخرجن حافيات لا يستر أجسادهن إلا ثوب واحد ، وخضعن أيضاً لتدريبات رياضية ، وتدربن على المصارعةوالسباحة والجرى ورمى القرص والرمح . وكن يقسمن إلى جماعات ، كما هو الحال بالنسبة للبنين . وكان من رأى المشرع (ليكرجس) أن تطهر الفتيات من كل صفات الأنوثة المكتسبة كالحياء ، ولذلك فكن يرقصن عاريات تماماً أمام الرجال . ولكن بعد الزواج كانت المرأة الإسبرطية تتحجب وتلزم بيتهامعظم الوقت فى انتظار عودة زوجها .

إن نظرة عامة على التربية الإسبرطية تبين أنها استغلت الأفراد لخدمة الدولة كل الإستغلال . فالفرد للدولة منساعة مولده ، وهو يعدليكون حامياً ومدافعاً عنها ، والبنت تعدجسمياً وخلقياً لتكون زوجة تقدم للدولة محاربين أصحاء أشداء . بل إن الرجل المسن كان يعير زوجته لغيره من الرجال حتى تنجب للدولة أطفالا أقوياء . وقد هيمنت الدولة تماماً على التربية وحققت ما أرادته من أهداف بخلق المواطنين القادرين على حمايتها وتحقيق مطامعها . أفراد أشداء لهم معاييرهم الخلقية التى ناسبت عصرهم ، متحمسون لوطنهم ومتعصبون له .. ولكن عندما حلت باسبرطة الهزيمة تداعى هذا البنيان وطفت موجات من الانحلال الخلقى والفوضى بعد فترة طويلة من النظام والجمود .

قد ضحت الدولة فى اسبرطة بالفرد ، وفكرت الدولة للفرد ، وعندما حلت الساعة التى تحتم فيها على الفرد أن يفكر لنفسه ، وجد نفسه عاجزا .

وفى محاولة لتقييم التربية الإسبرطية نجد أن الخضوع للقوانين خضوعاً أعمى ساد حياة الاسبرطيين ، ودمغ هذه الحياة بجمودشديد يذكرنا بالجمود الذى عاناه المجتمع المصرى قبل ذلك بأكثر من ألفسنة ، وإذاكان الآلهة فى مصر القديمة قد شرعوا عن طريق الفرعون وكبار رجال الدين ، فان قوانين (ليكرجس) الإسبرطية كان لها نفس التقديس والتبجيل. بل كان من حق الإله الدنيوى (الفرعون) فى مصر أن يغير ، وأن يفسر الكهنة القوانين كيفما

شاءوا ، ولكن لا أحد فى اسبرطة كانت له هذه القوة .. بل لم يكن لأحد السلطة فى اسبرطة حتى على تغيير عدد أوتار القيثارة أو طريقة طهو الطعام .

وكان من نتيجة هذه التربية العسكرية التسلطية فى اسبرطة أن طبعت الأفراد « بخصال كانت سبباً فى فشلهم فيما بعد ؛ فقد عرف عن الإسبرطيين أنهم لم يتعودوا الاعتماد على النفس أو توجيهها ، كما أن قدرتهم على التفكير أو التخيل كانت محدودة وأنهم لم يتعودوا مواجهة المشكلات ومحاولة حلها بتعقل وروية ، فلم يعط الإسبرطيون الفرصة لتحمل المسئوليات ، بل إن الدولة وجهتهم فى كل شيء ، ورسمت لهم طريق الحياة ولم يكن عليهم إلا الأنصياع للأوامر والبعد عن النواهى »(١) وقد أدت هذه التربية إلى جدب وقحط فى التراث الفكرى وانهيار لحرية الرأى وعدم قدرة الإسبرطيين على تكييف أنفسهم تبعاً لتغير الظروف .

آثينا

ولعل أهم ما كانت تهدف إليه التربية الآثينية ، بمقارنتها بشقيقتها المحاربة اسبرطة ، أن يسير الفرد فى حياته بالحكمة التى يغفلها العقل فى أدائه ما يلقى عليه من واجبات .على أن الدولة الآثينية تطالبت فى مواطنيها قوة الجسم والجرأةوالإقدام فى ساحة الوغى ، وما أكثر ساحاتها . ولكن آثينا لم تتبع ذلك الأسلوب العسكرى الاستبدادى الذى اتبعته اسبرطة ، فقد قدست آثينا الأسرةعلى أساس أنها ركيزة فى نمو شخصية الطفل وتشكيلها .. وتطلبت من الأسرةالعناية بالطفل ، حتى إن مشرع آثينا الأعظم (سولون) أعفى الإبن من مساعدة أبيه إذا قصر هذا فى تربيته عندما كان طفلا . وقد اهتمت آثينا ، على عكس اسبرطة ، بتعليم الموسيقى إلى جانب التربية البدنية ، على أن المدارس كانت خاصة يملكها أفراد ، ولكنها تحت إشراف الدولة التى أشرفت أيضاً على تربية الأطفال فى منازلهم .

(١) فتحيه سليمان ، المرجع الأسبق ، ص ٢٥ .

وقد اعتز الآثينيون بأنفسهم اعتزازاً كبيراً قائلين : إنهم كانوا خير من في شبه الجزيرة اليونانية وأرقاهم وأعلاهم حكمة وثقافة .. أعلى من كل سكان الدويلات الإغريقية . ولم يبخل دارسو الثقافة الإغريقية في إسداء المديح للآثينيين لتقدمهم السياسي وإنجازاتهم التربوية . فقد أعطى الآثينيون العالم لأول مرة نموذجاً للديموقراطية ، على المستويين النظرى والعملى .

وقد حكم الآثينيين ملك حوالى القرن العاشر قبل الميلاد ، ثم تحول اللقب إلى « أرخون » أى الحاكم ، وإن كان المنصب قد ظل وراثياً فى أسرة معينة . ولكن سلطته الفعلية خرجت من يديه لتكون وديعة فى جمعية عامة يهيمن عليها النبلاء .. ثم أصبح الأرخون ينتخب لمدة عشر سنوات ، نقصت إلى سنة واحدة عندما صار عدد الأرخون تسعة . وقد أعطى سولون فى قوانينه المواطنين مجموعة من الحقوق تتفاوت حسب ثراء كل . وتحت حكم كليسثنيس فى الأيام الأخيرة من القرن السادس قبل الميلاد بدأت الديموقراطية الحقيقية تنتعش .

وتكون المجتمع الآثينى من المواطنين والأجانب والعبيد . وقدر عدد السكان فى القرن الرابع قبل الميلاد بواحد وعشرين ألف مواطن ، وعشرة آلاف أجنبى ، أما عدد العبيد فوصل إلى ٤٠٠,٠٠٠ عبد ، أى حوالى عشرين عبداً لكل مواطن حر(١) ولم تكن للعبيد حقوق مدنية ، ولكن كانت هناك تشريعات لحمايتهم من عبث الأحرار واضطهادهم . أما الأجانب فلم يكن لهم الحق فى الإشتراك فى حكومة الدولة ولا تملك أرض ، وللأجنبى أن يعمل بالتجارة على أن يدفع ضريبة سنوية ، وقد يخدم أحياناً فى الجيش أو البحرية . وكان العبد يعمل لسيده أو يعمل للحكومة أو لسيد آخر ، على أن يدفع لسيده جزءاً مما يتقاضاه . وعمل العبيد فى أعمال يدوية ، مما أضفى على هذه الأعمال مهانة كانت تثير تقزز السادة الأحرار الذين استمتعوا بوقت فراغ أتاح لهم الاهتمام بواجباتهم كمواطنين ، ومنها حضورهم ساحات المحاكم

---

(١) McCormick, op. cit., p. 95

الجمعيات العمومية والخوض فى سير الناس ممن يهمهم التحدث عنهم ، ونقدهم والتشهير بهم إذا لزم الأمر . وكان السيد الحر يمضى معظم وقته فى السوق أو الساحة Agora ، ولا يذهب إلى بيته إلا ليأكل ويستريح وينام . وما شئون البيت فقدعهد بها إلى زوجته والعبيد .

وكان الأثيني غيوراً على زوجته وابنته ، وتتزوج البنات فى سن الخامسة عشرة أو أقل من هذا السن أحياناً ، أما الرجل فلا يتزوج غالباً إلا بعد سن الثلاثين. ونساء الأحرار قلما كن يخرجن إلا باذن من الزوج وبحراسة عبد . وتمضى الفتاة وقتها فى تعلم الفنون المنزلية تحت إشراف أمها ، مثل الغزل والنسج والحياكة وأشغال الإبرة ورعاية المريض ، والاهتمام بجمالهن ومظهرهن.

وكانت ملابس الرجال والنساء متشابهة تقريباً ، ترتدى النساء ما يشبه الجلباب حيث يصل إلى أقدامهن ، ويرتديه الرجال ولا يكاد يصل إلى تحت الركبة ، وخاصة للفلاحين والصناع والمحاربين ، وفوق الجلباب كانوا يرتدون عباءة ، وبالقدم صندل يخلع عندما يجلس الفرد لتناول الطعام . وقد غطت الفتيات وجوههن بحجاب شفاف ، كما استعملن حشوات لتغطية عيوب الجسم أو مشدات لإخفاء الترهل ، وعلاقات للصدور ، ومانعات لحصل الشعر المتمردة ، وأقراطاً وعقوداً وأساور حول المعاصم وحول أسفل السيقان ، وعرفت وجوههن أصباغاً شتى لتزيد الجميلة جمالا ولتصلح تجاعيد الزمن أو لتحسن ما أهملته الطبيعة ... وكثيراً ما حملت الفتيات والسيدات مظلات وقاية من شمس أو مطر أو استكمالا لرشاقة ، ويعبثن بمراوح يستجدين بها بعض النسمات أو يحركنها كجزء متمم للأناقة . أما الرجال فقد أرسوا خاتماً حول أصبع ، مستعينين بعصى لم تكن ليتوكأ عليها الرجل فى مشيته المتئدة التى تجاذب فيها أطراف الحديث والنقاش مع غيره .

وذهب الأطفال إلى مدارس أدارها أفراد منذ الصباح الباكر ويستمرون بها حتى تغيب الشمس ، وقد بدأ الإشراف الحكومى على المدارس منذ تشريعات سولون عام ٥٩٤ ق . م . فقد أصر سولون على ضرورة تعلم كل

طفل مهنة ، كما حدد ساعات الدرس ، وكذا الشروط الواجب توفرها فيمن يقوم بمهنة التربية وسنه . وكم من التلاميذ يستوعبهم إشراف المربى الواحد . وكان سولون هو الذى أدخل دراسة (هومر) فى المدارس .

هدفت التربية الآثينية إلى تكوين تناسق بين روح مرهفة تحس بالجمال وتقدر الأدب ، وجسم رشيق قوى ، هدفت إلى تكوين الرجل الكامل جسما وعقلا وخلقاً .. الجندى الذى يذود عن الوطن ، والمواطن القادر على الإسهام فى ثقافة بلده بتتبع كل جميل فى وقت السلم . كانت تربية لاستخدام وقت الفراغ فى نمو متزن للفرد ، واستخدام مثمر لإمكاناته الجسمية والعقلية والروحية . وعلى الوالدين فى بواكير الطفولة مسئولية كبيرة فى هذه التربية فيسمعان الطفل قصصاً وأساطير ويدللانه ، حتى إذا كبر بدأ الطفل يعرف الشدة ، والضرب بالنعال والعصى ... ولكن لا يفتقد العطف والحب منهما .

ويذهب الطفل إلى المدرسة حوالى السابعة من عمره . ويقسم اليوم المدرسى بين البالسترا Palaestra أو الجمنازيوم والديدسكاليون Didaskaleion أو مدرسة الموسيقى ، وفى الجمنازيوم يدرب التلاميذ على كل التمرينات الرياضية كرمى القرص والرمح والمصارعة والجرى والرقص والسباحة وتدليك الجسم بالزيوت ليحتفظ برشاقته ، أما مدرسة الموسيقى فقد عنى بها أيام الإغريق دراسة الأدب والتربية الخلقية . وفى المدرسة يتعلم التلاميذ القراءة والكتابة والحساب إلى جانب الأغانى الوطنية والشعر .

وكان يرافق التلميذ فى ذهابه إلى المدرسة عبد مسن اضطرته شيخوخته إلى عجز عن أعمال تحتاج إلى مجهود فعهدوا به إلى التلميذ يصحبه فى غدوه ورواحه من المدرسة . وكان هذا البيداجوج pedagogue يقوم بتقويم أخلاق التلميذ ويراقب سلوكه وعاداته فى الحديث والمشى والمجلس والمأكل ومعاملة الناس .

أما المربون فى المدرسة فكانوا يأخذون معاشهم مما يدفعه التلاميذ . وقد يستطيع مرب مما يجمعه أن يجمع التلاميذ فى فصل دراسى . أما غيره فكان يعقد حصصه فى الهواء الطلق ... فى ظل معبد أو فى أحضان شجرة وارفة

الظلال ... أو فى مكان هادىء على قارعة طريق لا يطرقه كثير من المارة ... المهم وجود المربى والتلاميذ والمادة التى ينقلها المربى إليهم . وكانت الغالبية من المربين يأخذون أجرهم عيناً لا مالا ، فى آخر يوم من الشهر بعد أن يخصم الأب أجر الأيام التى تغيبها ابنه. وكان لأبناء الأغنياء امتياز تلقى التربية على أيدى أفراد عرفوا بغزارة العلم والحكمة . وكانت لهم شهرة واحترام بين سكان آثينا .

وقد اتبع الإغريق فى تدريس القراءة الطريقة التركيبية ، فيتعلم التلاميذ حروف الهجاء أولا ثم يكونون منها مقاطع ثم كلمات . ثم يبدأ التلاميذ الكتابة على الرمل ، ثم على الشمع ثم على جلد رقيق مستخدمين قلماً من الغاب وحبراً مصنوعاً من الصمغ والصناج ، كما كان يفعل قدماء المصريين ، ولكن هؤلاء استخدموا ورق البردي كما استخدموا لوحة العدد فى تعلمهم مبادىء الحساب ، وكانت الحروف هى المستخدمة بدلا من الأعداد ، كما استخدمت الأصابع فى عمليات العد داخل المدرسة وخارجها حيث يوضع أصبعان متجاوران للدلالة على رقم معين . ودرس التلاميذ بعض المعلومات الجغرافية من دراستهم لإلياذة هوهومر . أما الشعر فكان يستظهر ويسمع بمصاحبة الموسيقى .

وحوالى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة كان الشاب الآثينى ينتقل من الباليسترا إلى الجمنازيوم العام بعد أن يتم المدرسة الإبتدائية وكانت ثمانى أو تسع سنوات . وكان أبناء غير ميسورى الحال يتوقفون عند التعليم الابتدائى ثم يتجهون إلى بعض الصناعات للتكسب . وقد عرفت ساحتان عامتان هما الأكاديمية والليسيه Lyceum وخلدتا لارتباطهما بكل من أفلاطون وأرسطو على الترتيب . وفى هذه الساحات اتخذت التربينات الرياضية طابعاً قاسياً إذا قورنت بالباليسترا وكانت الدولة تملك هذه الساحات ، ويعمل فيها موظفون رسميون ومهمتهم إعداد الشباب لمتطلبات الدولة .

هذا ، ولعلى أجد أخيراً فى أن أنقل الوصف الكامل لتربية الطفل الآثينى

كما رآها أفلاطون(١).. تبدأ تربية الطفل وتوجيهه فى سنى حياته الأولى ، وتستمر طيلة حياته . ومنذ أن يبدأ الطفل يميز من حوله تتنازعه الأم والمربية والأب والمرشد لتوجيهه . ولا يمكنه أن يقول شيئاً دون توجيه منهم بأن هذا حسن وذاك سيء ، وأن هذا مشرف وذاك عار ، وهذا مقدس وذاك غير مقدس . إعمل هذا وتجنب ذاك ، فاذا أطاع كان طيباً وحسناً ، وإذا لم يطع عرض نفسه للتهديد وللعذاب الشديد فيلكم كما لو كان جماداً . وبعد ذلك يرسل إلى المدرسين الذين يطلب منهم الإشراف على سلوكه قبل أن يشرفوا على تعليمه القراءة والموسيقى ويعمل المدرسون ما يطلب منهم ، وإذا ما تمكن الطفل من معرفة الحروف الأبجدية وبدأ يفهم ما هو مكتوب ، أمدوه بمؤلفات أعاظم الشعراء ، تلك المؤلفات التى عليه أن يقرأها فى المدرسة ، ويجد التلميذ بين ثنايا الأشعار الكثير من النصائح والكثير من القصص ومفاخر مشاهير الرجال القدماء ويطلب منه حفظها عن ظهر قلب حتى يعمل على تقليدهم وبحدث نفسه بالرغبة فى الوصول إلى ما وصلوا إليه من مكانة رفيعة . وبعد ذلك يتسلمه مدرسو الموسيقى ويصلحون من مزاجه بحيث يصبح معتدلا ولا يقع مطلقاً فى المعاصى . وعندما يعلمونه استخدام الآلة الموسيقية تعرض عليه أشعار مشاهير الشعراء أصحاب الأغانى الشعرية . وينشدون هذه الأشعار على نغمات الموسيقى ، ويجعلون من توقيعها وأنغامها مزيجاً تألفه أرواح الأطفال حتى يطبعوهم بطابع الظرف والاتزان وتقدير الزمن ، ويصبحوا قادرين على الكلام وعلى العمل . ذلك أن حياة الإنسان فى جميع مناحيها فى حاجة إلى الانسجام والتوقيت . ثم يرسل الطفل إلى أستاذ الألعاب الرياضية حتى يتمكن الجسم من أن يلبى نداء العقل الفاضل وحتى لا يضطر الشباب فى المستقبل نتيجة ضعف أجسامهم أن يلجئوا إلى الهرب من الجيش إبان الحروب. هذا هو ما يفعله القادرون من التلاميذ مادياً وهؤلاء هم الأغنياء وحدهم وهم يبدأون عملية التربية فى وقت مبكر جداً وينتهون منها فى سن متأخرة .

---

(١) منرو ، بول : المرجع الأسبق ، ص ٨٦ – ٨٨ .

وبعد أن يفرغ هؤلاء التلاميذ من أساتذتهم ترغمهم الدولة على تعلم القانون حتى يعرف كل مواطن ماله وما عليه وحتى يعيش حياة واقعية مرسومة لا حياة خيالية ، كما كانت الحال فى تعلم الكتابة والقراءة إذ كان مدرس الخط يرسم خطوطاً نموذجية ويجعل الطفل يتتبع هذه الخطوط ... فكذلك كان تدريبه على القانون ، وكانت المدينة تضع قوانينها وهذه كانت من اختراعها ومن عصارة أفكار رجال قانونها القدماء وكان الغرض من هذه القوانين أن يعرفها الشباب قادة كانوا أم محكومين ومن يخالف هذه القوانين فلابد من إصلاحه . أى استدعائه للمحاكمة .. وهذا ينطبق على هذا القطر كما ينطبق على غيره من الأقطار .

وفى حوالى سن الثامنة عشرة ولمدة سنتين ، يقسم الآثينى يمين الولاء لدولته ، ويتمرن على فنون الحرب ومعيشة الجندية ، وغالباً ما تكون فى حراسة الحدود ، ويتدرب على استخدام الأسلحة (الثقيلة) كالدروع وإلقاء الرماح ، وفنون التكتيك العنيفة . وكان يطلق عليه فى هذه الفترة اسم Ephebe أى الشاب . وبعد انتهاء السنتين يتقدم إلى « الجمعية العامة» ويتقبل من الدولة رمحاً ودرعاً ويصبح مواطناً . ثم يقسم أمام المواطنين كبار السن أن يكون مخلصاً للقوانين وللعرف ، وألا يهجر دولته وأن يظل على الدوام مستعداً للذود عن حياض وطنه ، وأن يعمل على تنميته بتثقيف نفسه وبالنجاح فى أعماله الخاصة . وقد كانت أمام الآثينى الحر الفرص لاستمرار ثقافته فى النحت والتصوير والفن المعمارى والدراما .

وجلس الآثينيون فى ظلال الأشجار يتجادلون ويتناقشون فى كل ما يهم دولتهم وطرقوا أبواب الأدب والفن والحكومة والسياسة والفلسفة . وكانت هذه الجلسات الظليلة ، والمناقشات الممتعة فاتحة التفكير الذى نما وتطور ، وما زال يؤثر فى أفكار العالم إلى اليوم .

أثينا فى عصر الانتقال : (من حوالى ٦٠٠ ق . م . إلى الغزو المقدونى فى

٣٣٨ ق . م) . كان من نتائج تربية آثينا فى عصورها القديمة أن اكتمل نمو الفرد وظهر التقدم القومى بصورة لم ير التاريخ لها مثيلا من قبل . وقد بلغ هذا العصر ذروته أيام بركليس .. وبدأ اتجاه نحو تمجيد الفردية إلى درجة أدت فيما بعد إلى أن أصبحت الدولة فى خدمة الفرد . وترجع أسباب التغير فى هذا الاتجاه الخطير إلى :

١ — عوامل سياسية : فقد استبدلت قوانين سولون بدستور ديموقراطى من وضع كليستينز عام ٥٠٩ ق. م ومنح كل سكان آثينا الأحرار لقب « مواطن » وأصبح من حق « الجمعية العمومية » نفى كل مواطن خطر على الصالح العام عن طريق الاقتراع السرى . وقد استطاعت آثينا هزيمة الفرس ، وتزعم حلف ديليان عام ٤٧٧ ق. م ، وتحول الحلف إلى إمبراطورية . وبدأ الذهب يدخل بوفرة خزائن الديموقراطية . وتمتع الأفراد بحريات أكثر للعمل وللكسب. على أن الجديد فى سيطرة آثينا أنها لجأت إلى أساليب الإقناع والديبلوماسية أكثر من التجائها للقوة للاحتفاظ بسيادتها . وقد أدى هذا إلى الاهتمام بتكوين المواطنين القادرين على المجادلة والإقناع .

٢ — عوامل اقتصادية وسياسية : مدت آثينا ذراعها باتساع رقعة زعامتها وإرسالها مندوبيها وتجارها والمتكلمين المجادلين من أبنائها يحملون معهم فكرة التآخى والوحدة بين الشعب الإغريقى المقسم إلى دويلات عديدة . وقد ظهرت طبقة من المعلمين اسمهم « السفسطائيون » أو الرجال الحكماء أو المدرسون المتجولون يعملون حيث يجدون تلاميذ قابلين دفع ثمن دراستهم . ومن التجار والرحـــالة والزوار والسفسطائيين والسفراء والاتصالات بين الدويلات بعضها بالبعض الآخر ، ثم فوق كل هذا التسامح فى المناقشة وإبداء الرأى مما أدى إلى نقد للأفكار القديمة ، من كل هذا وذاك أصبحت آثينا قلباً كبيراً ينبض بالحياة الفكرية ، ومركزاً مضيئاً للتفكير الحر.

٣ — العوامل الأدبية : وتتمثل فى الدراما بشقيها المأساة والملهاة : وقد عرفت آثينا أدب المأساة (التراجيديا) الذى يدور حول مشاكل دينية

وأخلاقية واجتماعية ، وشخصياتها من الآلهة والأبطال الخرافيين ، وتدور موضوعاتها حول الصراع بين الواجب والهوى . ثم بدأت الهزليات (الكوميديا) تنتشر فى النصف الثانى من القرن الخامس وتهاجم فى نقد ساخر المظاهر الخادعة من غش وسفه وتبذير وفساد ، وكان هذا دليلا على غلبة الميول الشخصية على الواجب فى مضمار الحياة العملية .. والأدب عبر عن الواقع ، والواقع كان يؤكد الفردية . ولذلك فان التربية أكدت الفردية .

٤ — العوامل الخلقية والدينية : لم يلعب الدين فى المجتمع اليونانى نفس الدور الذى لعبه فى المجتمعات الشرقية ، فلم يكن أساسياً لتقدمهم الاجتماعى ولكنه مع ذلك أمد الحكومات ببعض المساعدة وزاد من قدسية الأسرة وخط للناس طريقاً للحياة ليس قوامه الراحة ولين العيش والمتعة الشخصية أو العظمة الذاتية ، ولكن العمل للصالح العام (١). ثم بدأ الناس ينبذون الاتجاهات القديمة والخرافات ولم يعد مستقبل الإنسان فى رأيهم مسيراً بارادة الآلهة أو رغبة السماء ، كما زال الاعتقاد فى تدخل الآلهة فى حياة البشر . ثم نشب الصراع بين المحافظين على التقاليد والنظم وبين المتشككين فيها الذين عمدوا إلى هزها هزاً عنيفاً .

٥ — العامل الفلسفى : وكان لابد من طريق لتفسير الكون وما فيه بعيداً عن التفسيرات التى أوردتها الأساطير والحكايات الخرافية ، وخاصة بعد أن انكشف الغطاء عن الآلهة وقدراتها . وأورقت شجرة الشك التى تولاها السفسطائيون ، شك فى كل ما جاء به الفلاسفة السابقون مثل هيرقليط وزينو ، بل إن جورجياس أنكر وجود الأشياء قائلا : إنه إذا فرضنا وجودها فليس من الممكن معرفتها ، وإذا فرض أنها كانت موجودة ومعروفة وأمكن معرفتها ، فمن غير الممكن إيصال العلم بها إلى الغير . وتفشى بين الشباب الاعتقاد بأن الإنسان أو الفرد هو مقياس كل شىء .. وهذا يعنى أن معيار الصدق ومقياس الحقيقة وطبيعة المعرفة أمر ذاتى . كما أن الفضيلة والحكمة

(١) منرو ، بول : المرجع السابق — ص ١٩٧ .

يمكن الوصول إليها عن طريق التفكير أو المعرفة لا عن طريق التقاليد الموروثة(١).

وقد تزعم حركة التمرد على التقاليد جماعة السفسطائيين ، ولم يكونوا من أبناء آثينا فقط ، ولكنهم يونانيون متجولون احتكوا بكثير من الحيوانات اليونانية والشرقية ودرسوا عن القوى الطبيعية وظواهرها والحياة الاجتماعية بمحاسنها ومثالبها والحياة السياسية بقوتها وضعفها . وكانوا خطباء مفوهين ومناقشين مقنعين ، وسرعان ما جذبوا إليهم الشباب الذى شاقه تعلم الخطابة والبلاغة وأصول الحوار والمناقشة . ولكن المحافظين من المبقين على التقاليد هاجموهم على أساس أنهم يدعون المعرفة فى كل شيء ، وأيضاً لأنهم يتقاضون أجوراً لقاء الخدمات التى يقدمونها للشباب ، ولذلك فقد اتهموا بالإلحاد وتعليم المبادىء اللا أخلاقية . ويدافع السفسطائيون عن أنفسهم قائلين إنهم يناقشون الأخلاق والدين من وجهة نظر تختلف عما ألفه المحافظون والرجعيون أصحاب الأفكار المصطبغة بالتعصب والتزمت ، فليست هناك كما قال فيلسوفهم بروتاجوراس أفكار ولا مقاييس عامة .

وبانتشار الأفكار الجديدة كان لابد للتربية أن ينالها تغيير ، فان الفترة التى كان يقضيها الشاب الآثينى بين سن ١٦ سنة إلى ١٨ سنة والتى كانت تكرس للتربية الرياضية العنيفة أصبحت تكرس للتدريب العقلى الراقى . فيجمع السفسطائيون المريدين من الشباب فى أى مكان .. فى الطريق .. فى الملعب .. فى غرفة ، ويتلقى الشباب ضروب المعرفة .

وانتشرت الاتجاهات الجديدة التى ولدها السفسطائيون فى المدارس الابتدائية فأصبحت التربية تعمل على تنمية اعتداد التلاميذ بأنفسهم واللباقة فى الحديث والمرح والحرية فى السلوك . بل تغير عدد أوتار القيثارة واستخدمت آلات موسيقية جديدة كالناى ، وقلت الرياضة البدنية ، واستخدم ماء دافىء فى الحمامات ... وهكذا بدأ العنف والشدة يتسم بان تدرجياً من حياة الأفراد .

---

(٢) فتحية سليمان : المرجع السابق — ص ٥٠

غير أن هذا اللون من التربية أدى الى انتشار اللامبالاة بين الأفراد وانحلال خلقي وتفكك فى روابط الأسرة وسعى مستمر وراء المال وجمعه . ووقف نفر من الرجال يرون هذا الضياع والسقوط ويتطلعون إلى المعابد الضخمة وإلى المسارح التى شهدت روائع سفوكليس ويوريبيديس وأرستوفان.. ثم إلى بقايا أسطول جبار هزت به آثينا إمبراطورية فارس العاتية .. يرون كل هذا أصبح فى أيدى أجيال غابت عنها الأخلاق التى شيدت ذلك المجد .

ثم شموس أشرقت محاولة تبديد الظلمات : سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو .

من فلاسفة الإغريق

في طبيعة العملية التربوية التغير ، بمعنى أن التربية ليست جامدة ولكنها تتشكل وتتطور حسبما تمليه الظروف ، وهذه الطبيعة المتغيرة تحتم الحاجة إلى علامات للطريق لتوجه أنشطة التربية ، وتلجأ هذه العلامات إلى الفلسفة تستوحي منها . ولأن التربية تهتم بما سيكون عليه الإنسان فعليها أن تتساءل : ما أهداف هذا الإنسان ؟ ثم تتساءل عن ماهية الخير ، ما هي ؟ وهذا ما تبحث فيه الفلسفة تحت عنوان الأخلاق . ولكن كيف يتأتى للإنسان أن يعرف الخير ؟ ومتى يستطيع الإنسان التأكد من أنه يعرف ؟ بل ما المعرفة ؟ وكيف يتأكد المربي من الصدق ؟ وما الحق ؟ وهذا فرع آخر تبحث فيه الفلسفة عن المعرفة . وثمة مشاكل أخرى من نوع مختلف ، فما طبيعة العالم الذي تمارس فيه التربية ؟ هل هو هائج متحرك أو راكد ساكن ؟ هل من الواجب أن يتعلم الإنسان ليومه أو لغد آت في المستقبل ؟ ثم ما طبيعة الطبيعة البشرية للمتعلم ؟ وهذه أسئلة تتعلق بالوجود أو الواقع . هذه وغيرها من المسائل هي التي تكون مشاكل فلسفة التربية .

ويرى البعض(١) أنه لا يوجد شيء اسمه فلسفة التربية ، وإنما توجد فلسفة ، فوجهة نظر الفرد عن المدارس والتدريس إن هي إلا امتداد لفكرته عما يحيط به . ويرون أن فلسفات التربية هي تقريرات عن تضمينات الحياة فيما يختص بتنشئة الفرد . ولسنا بصدد مناقشة جدلية عن تسمية ما ، ولكن الذي يهمنا أن نقرر أن الفلسفة تهتم بأمور الحياة والموت ، وتطرح أسئلة عديدة محيرة ومقلقة لمعلوماتنا عن الإنسان والتاريخ ، ولكنها أسئلة لا يمكن تجاهلها طالما أن الثقافات تتعرض لعقبات وبديلات تدفع الناس للتفكير ، ثم يسلكون بناء على تفكيرهم .

---

(١) Sayers, E.V. and Madden, W. : Education and the Democratic Fatih, p. 3.

والتربية هى الأخرى تتعرض للمشاكل والعقبات والبديلات ونواحى الاختيار ، فهى عامل مشترك فى كل أوجه الثقافة البسيط منها والمعقد . وهى بهذا لا تستطيع أن تتخلى عن الفلسفة ، كما لا يمكن للثقافة أن تتجاهل الفلسفة .

ما الفلسفة ؟ هى تعبير عن المعتقدات ووجهات النظر . والسؤال هو متى نتفلسف ؟ كثيراً ما حاولت أنت وغيرك أن تصوغ فى تعبيرات من خبراتك آراء معينة تهمنا كمعتقدات عن الدين ، عن الحب ، عن حرية الرأى ، عن السياسة .. الخ ، وكل منها تحوى أسئلة مثيرة للتفكير ، كما تثير اهتمام الكثير من الناس فى كل مكان . وتوجد فى المجتمعات آراء مختلفة يتبناها أو تصدر عن أفراد يحاول كل أن يعبر عن رأيه فى موضوع ما . هذا التعبير عن الرأى قد نطلق عليه فلسفة أو أى إسم آخر ، ولكن يحق لنا القول إننا جميعاً نتفلسف(١) عندما نحاول أن نعبر عن الأشياء التى نعتقد فيها والمرتبطة بحياتنا وعلاقتنا بغيرنا .

وجماعة المربين كجماعة فى المجتمع لها معتقداتها وآراؤها التى تسعى إلى استخدامها وتحقيقها ، فعندما يتفلسفون عن المدارس فانما هم يركزون على ناحية مهمة تهم معظم أفراد الشعب . على أن بعض المربين لا يسمون هذه المعتقدات بالفلسفة ، قائلين : إنهم ذو وعقول عملية ، بل إن بعضهم يؤمن بما يسمى « علم التربية » كتحد صارخ لما يذكر عن فلسفة للتربية ، أو فلسفة على وجه العموم .

ومع ذلك فالفلسفة لا تنفصل عن خبرة الحياة ، وهى متضمنة فيها ولا يعبر عنها بشكل ظاهرى ولكنها موجودة وراء تفكيرنا وتصرفاتنا ، بل هى معنا فى آداء واجباتنا اليومية . فكل فرد له وجهة نظر ، وفى كل وجه من أوجه الحياة المادية أو الروحية أو العادية أو المهنية نؤمن بأشياء معينة عن المناشط التى نؤديها .

وفى الحقيقة إننا لا نستطيع أن نعمل دون معتقدات نؤمن بها ونسلك على

---

(١) Brameld, Th. : Philosophies of Education in Cultural Perspective, pp. 19-27.

هديها ، فالتاجر مثلا يعمل ويتصرف ليحصل على ربح ، وخلف كل تصرفاته تكمن هذه الفكرة . كما أن خطيب المسجد مؤمن بالإسلام وتعاليمه . فلا يعيد النظر فى هذا الإيمان كل يوم جمعة قبل الصعود إلى المنبر . وكذلك المربى تحدد سلوكه وجهة نظر معينة عن التربية .

كل منا إذن له فلسفة ويتفلسف ، وإذا كان هذا حال المدرس فيجب عليه أن يتفهم بعض الآراء الفلسفية التى قد يقتنع ببعض منها اقتناعاً يجعله يؤمن بها ، ومن ثم تتشكل وجهة نظره أى فلسفة . والجدير بالذكر — بل ما يجب أن يؤكد عليه — الحرص فى تخير وجهات النظر الفلسفية مما لا يكون شاذاً غريباً عن ظروفنا الاجتماعية ، فقد يحاول البعض أن يتخير غير المألوف حتى يتحقق له الظهور بين غيره وأقرانه . إن إعمال العقل والتفكير المتزن أمران لازمان للباحث عن فلسفة للتربية يؤمن بها ويسلك على هديها .

السوفسطائيون وسقراط

اهتم الإغريق فى القرن الخامس قبل الميلاد بمشاكلهم التربوية ، فقد بدأ بعض المفكرين يفحصون طرائق الحياة والنظم الاجتماعية التى عاشها الإغريق قروناً طويلة ، ولاح لهم أن ثمة تغييرات قمينة بالحدوث . خاصة بعد الحروب التى خاضوها والانتعاش الاقتصادى الذى فاض عليهم ، كان لابد إذن من تعديلات اجتماعية ، فالنظام الموجود وقتئذ أصبح لا يناسب ما طرأ على المجتمع من تغييرات . وتطلعوا إلى التربية ونظامها . كيف يتعلم الأحداث ؟ وماذا يتعلمون ؟ إن العادات والتقاليد القديمة أصبحت غير مناسبة ، كما أن الاتجاهات الجديدة لا ترضى جميع المواطنين ، كان هذا هو الموقف الذى مهد الطريق للفلسفة لتقول رأيها .

وكان السفسطائيون هم أول من تصدوا لمشكلات النظرية التربوية التى تمخضت عن القلق الاجتماعى . وكانوا من أشد المهاجمين للنظم القديمة التى لرتمت فى أحضان التقاليد ، وكان سلاحهم التفكير فى إطار من احتياجات الأفراد الذين ذهبوا إليهم طالبين العلم والمعرفة ، وقالوا : إن الإنسان هو مقياس الأشياء، ثاروا على التقاليد القديمة التى كانت هى مقياس الأشياء . ودفع لهم طلاب العلم ثمن ما يتعلمونه ، غير أن ما يؤخذ على السفسطائيين أنهم يدافعون عن وجهة نظر تتناسب مع من يدفع لهم ، فقد يؤيدون رأياً فى وقت ، ويؤيدون نقيضه فى وقت آخر .

وقد جذبت طريقة السفسطائيين الشباب المتحمس . وأغضبت المحافظين وكبار السن . وقد احتقرهم البعض لأنهم اتخذوا من العلم سلعة يبيعونها . وخافهم الكثيرون لما فى آرائهم من ثورة على القديم والمتعارف عليه . ومع ذلك فقد هرع إليهم الشباب لما اتسمت به آراؤهم من حرية وانطلاق ، ولما أضفوه على الفرد من تمجيد وإعزاز ، فقد عملوا على تحرير العقل من الجهالة والروح من الخوف . والجسم من الوهن ، لقد عملوا على نمو الإنسان ككل ،

ونسب إليهم المناصرون أنهم كانوا دعاة الحرية البشرية(١) .

وكان السفسطائيون يعلمون الحساب والهندسة والفلك والتاريخ الطبيعي والنحو والبيان والتاريخ والأساطير والمنطق والسياسة والأخلاق وفقه الدين والرسم والموسيقى والتكتيك الحربي ، ولكنهم ركزوا على البيان ، أما بقية المواد وغيرها فكانت تهدف إلى مد المتكلم بحصيلة من المعلومات تفيده فى مناقشاته . ولم يعلم السفسطائيون المنطق حرصاً على معرفة الصدق والحق ، ولكن للفوز فى مناظرة أو مناقشة كلامية . وهذا ما سمى بالسفسطة . وكانوا ينكرون وجود الموجود أو الحقيقة الموضوعية ، وأن رأى الفرد هو الصدق الوحيد ، أليس الإنسان هو مقياس الأشياء ؟

ولكن المحافظين وأنصارهم ردوا على هجوم السفسطائيين قائلين إنهم جماعة من المنافقين الذين يتذبذبون فى أقوالهم حسبما يدفع لهم ، وهاجموا طريقة السفسطائيين القائمة على التفكير ، منكرين على الإنسان قدرته على الفضيلة أو الكرامة عن طريق الطرق العقلية والجدل . وأكد المحافظون أن معيار الفضيلة تحدده أشراف القوم بما يسلكونه . والفضيلة فى نظرهم تورث ويمكن تعلمها لمن يعيش مع الأشراف متتلمذاً عليهم فى سلوكهم ، فاعلا النبيل من الأعمال ، ولكن لا يمكن تعلمها عن طريق التفكير والذكاء . ومعنى ذلك أن الأسلوب الديموقراطى السفسطائى لتعليم الفضيلة لجماهير الشعب — كان لابد وأن يفشل فى رأى علية القوم .

وظهر الصراع بين المحافظين وآرائهم وبين السفسطائيين وآرائهم ، صراع بين أرستقراطية وديمقراطية ، وقد أولى سقراط (٤٦٩ — ٣٩٩ م (٢) هذا الصراع اهتمامه الكبير ، وهو أعظم مفكرى آثينا فى القرن الخامس . وقد نشأ سقراط نشأة متواضعة ، فكان متجهاً بحكم نشأته ناحية الديموقراطية . وقد رأى سقراط الحاجة إلى تربية من نوع ممتاز ، تربية إنسانية متجهة إلى الإنسان

---

(١) Mulhern, op. cit., pp. 144 - 149.

(٢) تحديد سنة تولد سقراط فيها أقوال كثيرة ، وإن كان عليه أنه ولد عام ٤٦٩ ق.م.

ويكون موضوعها الرئيسى الجوهر الروحى للإنسان . ولكنه لم يقصد من هذا ما قصده السفسطائيون بقولهم إن الإنسان مقياس كل شىء ، ولكنه قصد إلى القول بوجوب أن تكون المعرفة مستقلة ، أى أن عقل الإنسان يجب أن يبحث فى الأشياء باستقلال وحرية كاملة ، وأن يحكم كل ما هو موروث . فلا قيمة للأفكار أو العقائد من حيث هى قديمة أو حديثة ، ولكن تتأتى قيمتها من حيث أنها تعبر تعبيراً صحيحاً عن حقيقة الأشياء . ويختلف سقراط عن السفسطائيين فى أن « الأحكام التى يصدرها العقل أحكام موضوعية صادرة عن طبيعة الأشياء نفسها ، وليست أحكاماً صادرة عن الهوى الفردى كما انتهى إلى ذلك السفسطائيون »(١) .

أما عن منهج سقراط الفلسفى فكان يبدأ بادراك الإنسان لنفسه ، أى يبدأ البحث بادراك الإنسان لذاته لكى يعلم الفرد هل لديه علم صحيح أو أن ما عنده إن هو إلا علم مشوه ، أو أنه جاهل تماماً . وكان سقراط يعمل على أن يثبت لمتحدثيه أنهم جهلة ، ومن الجهل تتكون النقطة الأولى للبحث الفلسفى . ويظهر سقراط جهله بالموضوع ، ثم يلقى أسئلة قد تظهر لهم أنها ساخرة ولكنها تنتهى باثبات أنهم إذا علموا شيئاً فهو غير صحيح ، وكثيراً ما كان يثبت للمتحدث أنه يناقض نفسه . ومن الركائز التى ترتكز عليها قوة سقراط أنه فى محاولته للبحث عن الحقيقة ، حاور غيره ممن ادعوا العلم ، وباستخدام طريقته كشف أنهم لا يعلمون ، ولكنهم يدعون العلم ، أما هو فيعلم أنه جاهل ، او هو يعلم بأنه لا يعلم ، وهذا علم صحيح .

ويبدأ سقراط خطوة ثانية وهى التوليد — وكان سقراط يقول فى هذا المعنى إنه يحترف صناعة أمه ، وكانت قابلة ، إلا أنه يولد نفوس الرجال — فيسأل من يحاوره عما يعرف فى مسألة من المسائل ، ويرد المحاور فى ثقة واعتداد ، ثم يبدأ سقراط أسئلة كان قد أعدها بحيث يختلط الأمر على محاوره فيتناقض نفسه . وكان سقراط « يستعمل دائماً طريقة توكيد البرهان عن طريق

---

(١) عبد الرحمن بدوى . أفلاطون : ص ٣٨

نفى العكس . فسقراط حين كان يبحث فى تعريف مسألة من المسائل ، يأتى بكل الأشياء التى تضاد هذا التعريف ، فى الظاهر على الأقل .. فمثلا إذا سأل أوتيديموس ما الظلم ؟ يجيب أوتيديموس بأن الظلم هو أن يكذب الإنسان وأن يخدع وأن ينهب .. الخ . فيقول له : ولكن هل يعد ظلماً أن يكذب الإنسان على عدوه أو يخونه ، أو ينهبه ؟ حينئذ لابد من تصحيح التعريف الأول . وهذا التصحيح يتم بأن يقول أوتيديموس : إن الظلم أن يفعل الإنسان هذه الأشياء ضد أصدقائه . وهنالك يجيب سقراط بأن ذلك لا يتم فى كل الأحوال : فهلا يعد الكذب فضيلة حينما يكون باعثاً على الشجاعة أو حاثا على طلب العلم ، أو مانعاً صديقاً من أن يستخدم سلاحاً لانتحاره ؟ حينئذ يجيب أوتيديموس بأن الظلم إذن أن يرتكب الإنسان هذه الأشياء ضد أصدقائه أيضاً حينما يريد الإضرار بهم . وهكذا يستمر الحوار (١)».

وكان سقراط يحاول دائماً الاستفادة من الآخرين ، وأن يساعد الإنسان للوصول إلى تعريف الشىء تعريفاً صحيحاً ، وكان سقراط يتعلم بينما هو يعلم عن طريق الحوار .

وكان سقراط يستعين بالاستقراء ويتدرج من الجزئيات إلى المعانى أو الأحكام العامة ، كما أن سقراط آمن بأن الإدراك الحسى هو أساس المعلومات جميعاً . ولأن هذا الإدراك يختلف باختلاف الأفراد ، فان المعلومات التى تجىء عن طريقه مختلفة ، فنحن لا نعرف عن الحقيقة إلا الصور المختلفة التى تقدمها لنا الحواس . ولذلك اتجه سقراط إلى بناء تحصيل المعرفة على العقل لا على الحواس معارضاً بذلك آراء السفسطائيين . ويرى سقراط أن العقل عامل مشترك عند جميع الناس ، وما دام العقل أداة المعرفة ، فالحقائق الخارجية ثابتة لأن الناس جميعاً يرونها بمنظار واحد ، هو العقل الذى لا يختلف إدراكه فى شخص عن آخر (٢) وكان رأى سقراط هذا هو الأساس الذى نشأت عليه كل المذاهب العقلية المثالية « Idealism » .

---

(١) عبد الرحمن بدوى . المرجع السابق ، ص ٣٧–٣٨

(٢) أحمد أمين وزكى نجيب محمود : قصة الفلسفة اليونانية ص : ١١١–١٢٢ .

ويذكر أن سقراط انصرف عن البحث فيما يتصل بالطبيعة والآلهة ـ موثراً أن يدرس الإنسان نفسه أولا ، ثم يدرس المتصل بالإنسان ، وكان يرى أن عقل الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى البحث فى الطبيعةوالإلهيات .

ورأى سقراط أن الإنسان لا يمكنه أن يعمل الخير إلا إذا عرف ماهية الخير أى عرف الإدراك العقلى للخير ، فالعمل الأخلاقى موئسس على المعرفة ويجب أن يصدر عنها ... بل إن الفضيلة والعلم شىء واحدفيستحيل أن تعرف الخير معرفة صحيحة ولا تعمله ، كما يستحيل أن تعمل الخير ولا تعرفه ـ فيكفى فى نظرسقراط أن يعلم الإنسان ما الفضيلة حتى يكون بمنجاة من فعل الرذيلة ، وكل عمل شر إنما يصدر عن الجهل بالفضيلة ، لأن الإنسان لا يسعه إذا عرف الخير أن يفعل شراً (١) .

وانتهت حياة سقراط بمحاكمته ، فقد اتهم بانكاره آلهة اليونان . وكذا بدعوته لآلهة جديدة ، كما اتهم بافساد الشباب الذى سحرته آراوه فالتفوا حوله . وزاد أعداء سقراط لأنه هاجم الديموقراطية منكراً انتخاب الزراع والصناع لمناصب الدولة ، كما أغضب الأرستقراطيين لما يبدونه من استبداد وظلم . ووقف سقراط أمام قضاته ، ودافع عن نفسه مشفقاً على القضاة أنفسهم من موقفهم المخزى ومتألماً لما صارت إليه الأمورمن فساد . وحكم عليه بالموت ـ وسجن ثلاثين يوماً . وكان الغروب موعد إعدامه ، فأمر سقراط بالسم ، وتناول الكأس بثبات . وبكى تلاميذه فنهرهم بينما السم يسرى فى أوصاله ، وعندما أحس بالثقل فى ساقيه عرف أن السم ينهى أجله . وغشته برودة فى جسمه من أسفل إلى أعلى ، فاقداً الإحساس تدريجياً حتى توقف قلبه ـ غربت شمسه .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٨ .

أفلاطون

عندما دخل الحواريون على أستاذهم سقراط فى ساعاته الأخيرة كان السجان قد فك القيود الثقيلة التى كبل بها السجين المحكوم عليه بالموت . وشهد الحواريون موت أستاذهم الذى آثر الشجاعة فى الموت على التذلل والضعف أمام قضاته . هكذا مات سقراط أمام تلاميذه ، ويقال إن أحدهم (أفلاطون) لم يشهد موته إما لمرضه كما يذكر هو ، وإما لأنه لم يستطع أن يقاوم الألم الذى كان سيعانيه لو أنه شهد هذه النهاية .

ويذكر أن أفلاطون ولد بين سنتى ٤٢٩ — ٤٢٧ ق . م من أسرة أرستوقراطية موسرة . وكان على النقيض من أستاذه الذى تتلمذ عليه فى ثمانى السنوات الأخيرة من عمره . فبينما كان سقراط دميم الخلقة قبيح الوجه ، كان أفلاطون حلو المحيا ذا جسم رياضى ممشوق . وكان عمره عشرين عاماً عندما تتلمذ على سقراط وجلس إليه بينما كانت الحرب بين اسبرطة وأثينا مشتعلة . وزعزعت هذه الحرب البلليبونيزية دعائم القوة فى أثينا ، بل وزادت الديمقراطية فى سيادتها فأمسك الدهماء بمقاليد الأمور ، وعاثوا فساداً ، حتى إذا انتهت الحرب دانت السيادة للأرستوقراطيين الممثلين فى ثلاثين طاغية . وأراد هؤلاء أن يصلحوا ما فسد ، فعمدوا إلى البطش والقسوة ، وعاشت أثينا ترتجف .

وقد شهد أفلاطون حكم الدهماء وحكم الأرستوقراطيين ، وكلاهما فشل ، وكان ذلك قبل أن يجلس إلى أستاذه سقراط يحاوره . ولما لم يكن هناك إلا أحد أمرين فى السياسة : الديموقراطية أو حكم الأقلية — وبعض هؤلاء كانوا أقاربه وكلاهما فشل — فقد ولى أفلاطون وجهه شطر الشعر ينظمه ، حتى تعرف إلى سقراط ولازمه . أما ما نظمه من شعر فقد أحرقه فيما بعد .

وبعد موت أستاذه رحل ، بعد أن لفت الأنظار إليه بدفاعه عنه ومناداته ببراءته وعظمته وعبقريته ، وطلعت أقاويل عنه وجد معها أن الخير له فى الترحال والسفر . وطاف بإيطاليا حيث جلس إلى الفيثاغوريين وأخذ ما

يعلمونه ، ثم أقام ببلاط الملك ديونيسيوس فى صقلية . ولما علم هذا الملك بما يتكلم عنه أفلاطون فى موضوعات الأخلاق والفلسفة عموماً ثار غاضباً . وأخذ أتباعه أفلاطون ليباع فى سوق العبيد ، ولكن رجلا من محبى الفلسفة أنقذه . ويقال إن أفلاطون زار مصر ضمن جولته التى استمرت عشر سنوات عاد بعدها إلى آثينا . ويقال إنه أمضى فى رحلته اثنتى عشرة سنة .

ثم عاد أفلاطون إلى آثينا ليستقر فيها رجلا أخذ الحكمة عن سقراط ثم تجول فى الأقطار ينهل من الفلاسفة والحكماء . عاد إلى آثينا معلماً وفيلسوفاً ، ولكنه لم يتجول فى الطرقات و الساحات ويقف يناقش كما كان يفعل أستاذه سقراط ، بل اتخذ له ملعباً فى شمال شرق آثينا كان يسمى باسم أحد الأبطال القدماء هو أكاديمس وكان فى منطقة ذات أشجار على شاطىء نهر ، وأطلق على هذا الملعب اسم الأكاديمية . وتكأكات الوفود إلى هذا المكان الجميل أربعين عاماً . وفى خلال هذه المدة كتب أفلاطون الكثير وعلم الكثيرين . وبفضل أفلاطون تقدمت الفلسفة ، فقد أتيح لها الهدوء والدراسة العميقة المتصلة . وقد علم أفلاطون وكتب فى كل ما يهم الناس ، عن تحسين النسل ، والشيوع والاشتراكية ، ومساواة المرأة بالرجل فى الحقوق جميعاً ، والحريات فى القول والرأى والعلاقات الجنسية ، وتأميم الثروة ، وغيرها . وقد صاغ كتبه فى أسلوب الحوار متخذاً من سقراط بطلا فى الكثير من المناقشات المكتوبة ، مازجاً بين فلسفته وفلسفة سقراط حتى لا تستطيع أن تميز بينهما فى كثير من المواضع (١) .

وعلم أفلاطون آراءه فى أكاديميته . كما ساعده أساتذة آخرون مثل أكسينوقراطيس وأرسطو الذى كان أستاذاً للخطابة . وقد وضع أفلاطون فى أكاديميته منهاجاً يدرسه الشباب حتى يتمكنوا من إدارة أمور الدولة إدارة سليمة صحيحة . بل إنه كان يأمل أن هؤلاء الشباب سيقيمون صرح الجمهورية

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية : ص ٦٢-٦٥

التى تصورها ، الجمهورية التى يحكمها الفلاسفة حتى تستقيم الأمور ويسود العدل والإخاء والحق(١) .

ومن حسن الطالع أن كل كتابات أفلاطون بقيت حتى وصلت إلينا ، إلا أن بعضها أضيفت إليه إضافات . وكتب أفلاطون بطريقة الحوار إلا فى مقالة « التعريفات » والرسائل الثلاث عشرة . أما مؤلفاته فقد كتب جزءاً منها وهو يتتلمذ على سقراط ، وجزءاً أثناء رحلته ، والجزء الأكبر خلال قيامه بالأكاديمية . وأهم كتبه جميعاً هو كتاب « الجمهورية » أو « المدينة الفاضلة » .

نظرية أفلاطون فى التربية

غلبت على آراء أفلاطون التربوية آراؤه فى علم النفس التى تصف الروح البشرية أو الشخصية ، وآراؤه عن المجتمع البشرى وعن الفرد والمجتمع والعلاقات بينهما ، ولذا فجدير بنا أن ندرس هذه الآراء التى صبغت فلسفته التربوية ، ونبدأ بالآراء السيكولوجية .

أولا : الفرد

لم يخضع علم النفس زمن أفلاطون إلى التجريب الذى يخضع له اليوم ، ولم تبذل أية محاولة وقتئذ للتعبير عن العلاقة بين الدوافع والسلوك الملاحظ تعبيراً رقمياً ، وكيف يختلف السلوك تبعاً للمثيرات . ولكن عرف أن علم النفس لم يحرم من لمسات تجريبية . فلكى يفهم أفلاطون الشخصية اعتمد على الاستبطان وملاحظة الآخرين .

وقد استنتج أفلاطون من ملاحظاته أن النفس تتكون من ثلاثة أنواع من القوى أو القدرات أو الملكات : قوة العقل (التفكير) وموضعها الدماغ ، والغضب ، وموضعها الصدر ، والشهوة وموضعها البطن . والعقل هو هذا القسم من النفس الذى يمدنا بالقدرة على اكتشاف الحق والباطل ، وعلى إثبات أى الأقوال حق وأيها باطل . والتفكير هو الدافع والمؤدى لكل معرفة .

---

(١) أحمد أمين و زكى نجيب محمود (المرجع السابق) ص ١٤٧—١٥٠

وأهم أنواع المعرفة التي يؤدي إليها نشاط العقل هو الحكمة ، هو معرفة طبيعة الخير والطرائق السليمة للحياة الصالحة للمجتمع والفرد . ولكن لايستطيع العقل وحده التحكم في الفعل البشري ، فقد نعرف ما يجب عمله ومع ذلك لا نسلكه .

والقوة الغضبية عند أفلاطون هي الإرادة كما نطلق عليها اليوم ، وتنفذ ما يقرره العقل . فالقوة الغضبية مرتبة في خدمة قوة عليا وهي القوة العاقلة في كل ما تشير به إذا كان خيراً . وتوكيد النفس إذن — في رأى أفلاطون — هو الذي يترجم المعرفة (أي الحكمة) إلى عمل . أي فضيلة .

أما هذا الجزء من النفس وهو الشهوة فهو مرتبط بالوظائف الجسمية . ويميز أفلاطون بين نوعين من الرغبات توصف قوتها بأنها شهية ، وهي الرغبات الضرورية وغير الضرورية . والرغبات الضرورية هي اللازمة لبقاء واستمرار الحياة كالجوع ، والجنس ، والمأوى . أما غير الضرورية فهي لا تعمل على بقاء واستمرار الحياة ، بل تعمل على تزيينها وتزويقها ، كالطعام الفاخر والثوب المزركش والحلي . وتحتاج الشهوات لتسير في طريق مرسوم إلى قوة توجهها وتساعدها .

ويأتي التوجيه بطريق غير مباشر من العقل والتفكير ، ويأتي مباشرة من القلب مركز القوة الغضبية ، فالحكمة التي يكتشفها العقل تعمل على تحقيق الشهوات الضرورية وغير الضرورية ، والإرادة هي القوة التي تنفذ ما تقوله الحكمة . ومع أن كل نفس بشرية فيها القوى الثلاث ، إلا أن الأفراد يختلفون ، بعض الأفراد قادرون على التفكير أحسن من غيرهم ، ولذا فلديهم المعرفة والحكمة . وقدرة البعض على التفكير أقل ، ولكن قدرتهم عل العمل أكثر ، وهؤلاء يستطيعون بالقوة الغضبية (الإرادة) أن يسيطروا على الشهوات . والنوع الثالث من الناس تفكيرهم قليل وقلوبهم ضعيفة ، وتظهر شهواتهم مسيطرة . ولا يستطيعون كبح جماحها إلا بقوة من الخارج ، قوة أساسها الحكمة ، التي يفتقدها هؤلاء ، أو قوة أساسها السلطة المادية الرادعة .

وباختلاف الأفراد فى القوى ، يختلفون أيضاً فى المهن التى يصلحون لها . فحيث يكون للعقل الغلبة فصاحبه يصلح للمهن التى تتطلب الدرس والتحصيل والتفكير . وحيث تغلب الإرادة ، فالمهن التى تصلح لها هى ما تتطلب أعمالا بالقوة كالحرب والشرطة. أما حيث تسود الشهوات فخير ما يصلح لها هو التجارة والإنتاج حيث الربح وحيث تتحقق اللذات الشخصية .

ولقوى النفس تاريخ عند الفرد ، فهى كائنة منذ الولادة ثم تتيقظ بعد سنوات قليلة . ولا يستطيع العقل تقبل المعرفة والحكمة قبل سن السابعة عشرة ، أما الإرادة فهى غير ثابتة . والشهوات متقلبة . ومع ذلك فيستطيع العقل قبل سن السابعة عشرة أن يتقبل صور الخير والجمال والحق ، كما يمكن للإرادة أن تتعود على ما يتقبله العقل . وهذه بدورها تتحكم فى الشهوات على هدى توجيه العقل .

وتوزع قوى النفس بين الرجال والنساء ، ولا يؤثر الجنس فى فاعلية هذه القوى . ومعنى ذلك — فى رأى أفلاطون — أن المرأة تستطيع شغل مناصب الحكم والمسائل الاقتصادية والحربية واقفة على قدم المساواة مع الرجل. ويؤكد أفلاطون ضرورة إتاحة الفرصة لكل فرد ليعمل حسب إمكاناته قدراته حتى يتمكن من حسن استغلالها ، وعلى المجتمع أن يهيء لكل فرد الفرص لاستغلال إمكاناته(١) كما أن أفلاطون قسم الشعوب بحسب تقسيمه قوى النفس : فاليونانيون يمتازون بسيطرة القوة العاقلة ، ويمتاز الشماليون بسيطرة القوة الغضبية ، أما الفينيقيون والمصريون فتسود عندهم القوة الشهوية.

المجتمع :

ويرى أفلاطون أن الحياة فى المجتمعات البدائية بسيطة حيث يعيش الناس حياة تلقائية يسودها السلام والهدوء ، موزعين الأعمال عليهم . أما فى المجتمعات المتمدينة فالحياة فيها معقدة ، وتوزيع الأعمال لا يتم بسهولة وبساطة ، بل

---

(١) Price, Kingsley : Education and Philosophical Thought, pp. 20-23.

ن أخطاراً خارجية تهدد أمنها واقتصادياتها ، ولذلك فهى تلجأ إلى السلاح والحرب لتأمين أراضيها واقتصادياتها . بل تستخدم القوة والقوانين لحسن توزيع الأعمال على السكان . وفى رأى أفلاطون أن وظيفة المجتمع اقتصادية وحربية وتشريعية لسلامة الحكم ، ووجد مثالا لهذا المجتمع فى مدينة الدولة الإغريقية . وكانت مدينة الدولة — ويسمها البعض المدينة الحرة — محدودة المساحة وتشمل مدينة تحوطها بعض القرى الصغيرة . وهى تُموّن نفسها اقتصادياً بقدر المستطاع ، وتتاجر خارجياً مع مدن أخرى . ويظهر أن أفلاطون لم يفكر فى دول كما نعهد اليوم من حيث المساحة وعدد السكان وتشابك العلاقات الخارجية .

ولكى تنجح وظائف المجتمع يجب أن يستشعر كل فرد السعادة فى عمله ، ولن يتأتى هذا إلا باتقانه هذا العمل ، فالصناع مثلا عليهم أن يجيدوا صناعاتهم وحرفهم حتى يقبل الناس على شرائها وبذلك يقتنون المال الذى يرضى شهواتهم وكذلك الأمر بالنسبة للشرطة والجيش ، فعلى كل عامل بهما أن يعتز بعمله ويسعد ويقبل عليه حتى يتحقق للدولة النصر الخارجى والأمن والنظام فى الداخل ، وإلا دبت الفوضى أو خضعت المدينة لسيطرة مدينة دولة أخرى وبذلك يتحطم مجتمعها . وعلى الجيش والشرطة العمل حسب قوانين الحكومة التى يتولاها الحكماء . وعلى هؤلاء أن يتمتعوا بالعقل والحكمة حتى تكون أوامرهم رشيدة متزنة . ومحققة لخير المجتمع .

وبهذا يوجد فى المجتمع : العمال والصناع والمزارعون والتجار مكونين طبقة اجتماعية تعمل على خدمة الاحتياجات الاقتصادية للمجتمع ، ثم طبقة الجند والشرطة وعليها حماية المدينة الدولة من الخارج والداخل ، ثم طبقة الحكام الذين يهيمنون على المدينة عاملين على خيرها وموجهين الطبقتين الأخيرتين .

تدريب الأفراد

وعلى أساس نظرة أفلاطون السيكولوجية والاجتماعية أعطى نظاماً لتدريب الأفراد .

أولا : يجب أن يخضع المسئولون عن الحكومة فى المدينه لنظام تربوى: يتكون من خمس مراحل .

١ ـ من الميلاد إلى سن السابعة عشرة : وتنقسم هذه المرحلة إلى قسمين ، ويربى الأطفال على أيدى أخصائيين فى دور الحضانة العامة بعيداً عن الوالدين. وفى الحضانة يهتم المشرفون بالنمو الجسمى للأطفال مستغلين اللعب والرياضة فى ذلك . وخلال القسم الثانى يتعلم الأطفال القرءاة والكتابة ، ويتدربون على التذوق الموسيقى الذى يشمل الموسيقى واللغة والأدب بالمفهوم الحديث . وإلى جانب ذلك يتعلم الأطفال والغلمان العلوم ، والتمرينات البدنية ، وتخضع (المناهج) التى يدرسها المتعلمون لرقابة الدولة خضوعاً كاملا فى محتواها وشكلها .

٢ ـ من سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة إلى سن العشرين : وفى هذه المرحلة يدرب الشباب تدريبات عسكرية وجسمية عنيفة .

٣ ـ المرحلة الثالثة من سن العشرين إلى الثلاثين : ويدرس فيها الشباب العلوم كالحساب والهندسة والفلك وغيرها . هذا إلى جانب دراسة الموسيقى .

٤ ـ المرحلة الرابعة من سن الثلاثين إلى الخامسة والثلاثين : وتتميز بطريقة المناقشة والحوار فى دراسة عن العالم وطبيعة الخير .

٥ ـ المرحلة الخامسة من سن الخامسة والثلاثين إلى سن الخمسين : وفيها يعين الناجحون فى المرحلة الرابعة فى مناصب حكومية .

وفى سن الخمسين يختار المبرزون فى المناصب الحكومية ليرفعوا إلى المناصب الحكومية العليا .

ثانيا : يجب أن تخضع أصحاب الإرادة إلى نظام تربوى خاص بهم ،

ولكنه مع ذلك لا يجد أفلاطون مانعاً من خضوعهم للمنهج الدراسى لأصحاب العقل والتفكير حتى نهاية المرحلة الثالثة . ويلوح أنه من الضرورى لطبقة الجند دراسة عسكرية تؤهلهم للمناصب الحربية ، فالمهم فيهم نوع من الشجاعة ، أو مقدرة على تقبل أوامر وتوجيهات أصحاب العقل؛ وإلا فقد يندفعون إلى أعمال يثيرها الطمع لتحقيق مكاسب اقتصادية خاصة بهم ، وبذلك يصبحون مصدر خطر دائم فى مجتمع متمدين .

ثالثاً : ويجب أن تخضع أصحاب الشهوات إلى نفس نظام التربية فى المرحلة الأولى والثانية وسوف تساعدهم هذه التربية على الخضوع لطبقة الجند وبالتالى لفئة المفكرين . كما أن تربيتهم سوف تساعدهم فى اتجاهاتهم الاقتصادية . وينتظر أفلاطون من نوع التربية الذى يخضع له أصحاب هذه الطبقة أنه سوف يكبح جماح شهواتهم .

فلسفة أفلاطون فى التربية

(أولا) الميتافيزيقيا والتربية :

فى مواطن كثيرة بكتاب الجمهورية لأفلاطون قال : إن العالم الملاحظ متكون من عديد من الأشياء وكل شىء له خاصيته ومكانه ويمتد منتشراً فى زمان معين . وكل شىء فى تغير مستمر فى صفاته وعلاقاته أو يتحرك من مكان لآخر ، وكل شىء ينتمى إلى طبقة طبيعية . فالشجرة التى نراها واحدة من هذه الأشياء فنحن ندركها بحواسنا ، وهى متميزة عما حولها ، وهى متغيرة (سقوط الأوراق ، النمو ، الثمار .. الخ) ، وهى تنتمى إلى مجموعة من النباتات . على أن كل شجرة يمكن أن تميز عن غيرها من نفس المجموعة ، ومع ذلك فيقول أفلاطون : إن كل الشجر يشترك (داخل مجموعة واحدة من الشجر) فى صفات عامة . فاذا اختلفت نخلة عن بقية النخيل فان لكل النخيل صفات مشتركة أو جوهر واحد يمكن أن نطلق عليه اسم (الفكرة) . وكما أن هناك (فكرة) للنخيل فهناك (فكرة) لكل مجموعة من الأشياء .

وللفكرة صفة العالمية والعمومية ، وتظهر فى مظاهر مختلفة وفى أمكنة

متعددة وأزمان متباينة . و (الفكرة) خالدة وليست متغيرة . فهناك أنواع كثيرة من النخيل فى مناطق مختلفة ، ولكن الفكرة واحدة . و (الفكرة) تتصف بالكمال والمثالية ، وقد نجد شجرة نخيل فيها عيب وأخرى قصيرة وثالثة مفرطة فى طولها ورابعة ثمارها شهية .. الخ ولكن فى ذهن عالم الثبات صورة لشجرة النخيل كما يجب أن تكون ، وعلى أساس هذه الصورة يصف نخلة بأنها سليمة وأخرى بأن عيباً فيها .

و (الأفكار) يرتبط بعضها بالبعض الآخر فى نظام ، وعندما يبلغ العلم ذروته سوف تنتظم كل الأشياء فى نظام كامل ، وعلى قدر معرفة الإنسان فقد انتظمت (أفكار) الأرقام فى علم اسمه الحساب وانتظمت (أفكار) الحركة السماوية فى علم الفلك . و (أفكار) النغم فى الموسيقى .

وتقول نظرية أفلاطون الميتافيزيقية إن خلف كل شىء مدرك فى العالم نظاماً من الأفكار يفسر ما فى هذا العالم . وما ندركه بحواسنا فى هذا العالم صور لتلك (الأفكار) أو (المثل) . وإننا فى هذا العالم نرى نسخاً باهتة من هذه المثل . والمثل كائنة وموجودة حتى ولو فى هذا العالم .

ويظهر لنا تطبيق نظرية أفلاطون هذه فى مفهومه عن الإنسان الذى يجب أن يتحلى بقوة الفكر والإرادة والشهوة . وكذلك الأمر بالنسبة للمجتمع الذى يتضمن الوظائف الاقتصادية والعسكرية والتشريعية . ولهذا فان العلاقة بين المواطنين والدولة يجب أن تكون شبيهة بالعلاقة بين (فكرة) الإنسان و (فكرة) المجتمع ، وقد سبق أن وضحت مراحل التربية المختلفة التى اقترحها أفلاطون والمبنية على هذه العلاقة بين قوى الفرد ووظائف المجتمع .

(ثانياً) الأخلاق والتربية :

وتظهر فلسفة أفلاطون فى الأخلاق منعكسة على التربية فى نظريته العامة عن طبيعة الخير . وهذه النظرية تعتمد على فكرته الميتافيزيقية ، فقد رأينا أنه يتحدث عن نظرية المثل وأن الموجودات المدركة صورة أرضية من هذه المثل التى تتصف بالكمال والخلود ، ولذلك فانه يقول : إن الخير فى كل شىء

مدرك يتوقف على الدرجة التى يقترب فيها هذا الشىء من صورته المثالية أو يعبر عنها . ولنأخذ مثلا النخلة. فالخير فيها والجمال ليس سببه ما تضفيه علينا من ارتياح أو لذة ولا على أساس مقارنة النخلة بشجرة الجميز مثلا . ولكن الخير والجمال فى النخلة هو مدى اقترابها من صورتها المثالية .

وفى رأى أفلاطون أن المجتمع الخير هو المجتمع العادل . وبقدر اقتراب المجتمع بوظائفه الثلاث والإنسان بقواه الثلاث من المثالية الموجودة فى عالم المثل ، يمكن أن يتحقق العدل بدرجة تتناسب مع درجة الاقتراب من المثالية . ولهذا فقد وجه أفلاطون نظامه التعليمى ليحقق بقدر المستطاع هذا العدل والحق.

(ثالثاً) المعرفة (الإبيستومولوجية) والتربية :

قال أفلاطون : إن المعرفة حالة عقلية تتميز بالتأكد من طبيعة شىء ما ، وهذا الشىء غير موجود فى عالم الواقع المتغير ، والتغير يجعل من المستحيل التأكد من طبيعته ولذلك فان الأشياء التى نعرفها بتأكد هى (الأفكار) فى علاقاتها المنتظمة .

وهنالك درجتان فى التأكد من المعرفة : التأكد القائم على فرض ، والتأكد المطلق . فما نعرفه عن العلوم والرياضيات هو تأكد فرضى لأن تأكدنا من صدقها يعتمد على تأكدنا من صدق الفروض التى اشتقت منها . أما التأكد المطلق فهو مرتبط بوعينا بفكرة الخير ، وهذا التأكد المطلق صعب المنال وهو يحول المعرفة الفرضية فى العلوم إلى مطلقات .

التطبيقات التربوية

تعرض أفلاطون فى كتابه (الجمهورية) و (القوانين) إلى مسائل متصلة بالتربية اتصالا وثيقاً . ولعل أكثر أشكال الوجود البشرى قيمة فى نظر أفلاطون هو التوافق بين الجمال والفضيلة عند الإنسان ، فهو يؤكد ضرورة التفاعل بين الجسم والعقل كأساس للتربية ، ثم يوسع نطاق هذا التوافق إلى أن يشمل التوافق بين الجماعات بل فى العالم الميتافيزيقى . ويرى أفلاطون

أن على الإنسان أن يوفق بين غرائزه وإراداته على هدى من مبادىء عالمية ، وأن يخضع سلوكه تلقائياً لفضائل أربع هى : الحكمة وكبح جماح الشهوات والشجاعة والعدل . وهذا هو المواطن المثالى لأنه يعرف كيف يحكم وأن يحكم بالحق .

وتؤسس الفلسفة الأفلاطونية فى التربية على هذه الفضائل الأربع . ويؤكد أفلاطون أن الفضيلة تتطلب اقتناعات خلقية ونوايا طيبة وضميراً حياً وقدرة على العمل السليم ، كما أن ارتباط الخلق والمعرفة لازمان وضروريان . وفى رأى أفلاطون أن الكمال البشرى مستحيل ما لم يعرف الإنسان كيف يحول نواياه إلى واقع . ولذلك فان بصيرة الإنسان فى طبيعة الحياة يجب أن تكون قوة دافعة فى تربيته ، وقد منح الإنسان وحده القدرة على الوصول إلى الكمال والسمو بنفسه من خلال تبصره ومعرفته نفسه ومحاولته للحياة الطيبة ، وهو قادر على تخطى عتبات ذاته الضيقة ويخضع مختاراً لقوانين عامة عادلة ، وهذا هو الإنسان الحر الفاضل .

ويرى أفلاطون أن التربية هى عملية توجيه وجذب الأطفال إلى الطريق الذى رسمته القوانين وأكدت عدالته خبرات ذوى العقول المفكرة المحنكة(١).

ولهذا فان أفلاطون فى كتابيه « الجمهورية » و « القوانين » كان يتصور مدينة مثالية تمزج بين فن السياسة والتربية ، لأنه وجد كليهما يهدف نحو تحقيق النظام الأسمى فى الحياة . وقد حاول بعض الكتاب التربويين الحديثين تقسيم أفكار أفلاطون التربوية على هدى من التقسيمات الحاضرة ، أى المدرسة الابتدائية ثم الثانوية ثم العالية . ولكن مثل هذا التقسيم مآله الفشل لأنه من العبث تفسير الماضى بعقلية الحاضر . كما أن أفلاطون نفسه ألقى الأهمية الكبرى على روح العملية لا على شكلها التنظيمى .

أما عن نظام أفلاطون التربوى فقد ألحت إلى صورة منه فى صفحة (١٠٧) . أما ما وراء هذا فهو فى رأيه تحويل عناصر الأمة الثلاثة لينصرف

---

(١) Ulich, op. cit., p.

كل فريق إلى ما أعد له . فأصحاب الشهوات يتجهون إلى ميدان العمل ، وأصحاب العاطفة إلى الحرب وهم الجنود ، أما أصحاب العقل والحكمة فيتجهون إلى الحكم وسياسة أمور الدولة . ويرى أفلاطون البدء بعزل الصغار عن الكبار حتى نبعد عنهم عادات آبائهم السيئة . ويجب أن تتاح للصغار جميعاً فرص متكافئة لينالوا نصيباً من التعليم ، لا يتميز واحد عن الآخر ، فان النبوغ والعبقرية ليسا وقفاً على طبقة دون أخرى(١) .

ويدرب الأطفال فى الفترة الممتدة للسنوات العشر الأولى على رياضة بدنية لتقوية أجسامهم ، إلى جانب دراسة الموسيقى لتهذيب الخلق وتدريب النفس على التوافق النغمى . على أن أفلاطون يحذر من الإسراف فى تربية الأجسام على حساب الموسيقى ، أو الإسراف فى ترقيق النفس بالموسيقى على حساب الجسم .

ويصر أفلاطون على أن تكون التربية فى مراحلها الأولى أدنى إلى التسلية منها إلى الجد ، لأن هذه هى الوسيلة التى يتعرف بها الكبار على ميول الأطفال الطبيعية ، ثم إن أفلاطون يضيف الأخلاق إلى الرياضة البدنية والموسيقى (أى تربية الجسم والعقل) . فهو يؤمن بالتكامل بين أفراد المجتمع وحتمية تعاونهم وأن يتعرف كل فرد دورة فى هذا المجتمع ، أى ما له من حقوق وما عليه من واجبات . ويلوح أن أفلاطون يقصد بالأخلاق هنا ما يطلق عليه فى المصطلح الحديث العلاقات الإنسانية وطرائق التعامل . ويهتم أفلاطون بالأخلاق على أساس أنها سوف تكبح جماح الشهوات عند الإنسان وتدفعه إلى طريق الحق والخير فتقل المشاجرات والمنازعات وبذلك لا تقوم ضرورة لقوات الشرطة لتقضى بين الناس وتقيم العدل ، وتحول أموال الشرطة إلى أبواب أخرى تعود على المجتمع بالخير .

وتعتمد الأخلاق على ركيزة يراها أفلاطون حتمية أيضاً وهى إيمان الناس بالله محدد لا بقوة عليا مهيمنة ، أى بدين يهديهم سواء السبيل ، فيه من أساليب الثواب ما يشجع على عمل الخير ، وفيه من أساليب العقاب ما يكفل

(١) أحمد أمين وزكى نجيب محمود (المرجع السابق) ص : ١٩٨-٢٠

نهى الضال عن غيه وشروره . وهذا الثواب والعقاب يعضده أفلاطون بحتمية خلود النفس حتى يطمئن المثيب إلى أعماله ويخاف المذنب شر أفعاله .

وتستمر هذه الدراسة إلى سن العشرين ، وفى هذه السن يستبعد من الشباب من يثبت أنه غير قادر على مواصلة الدرس والتحصيل ، وهؤلاء ينتظمون فى صفوف عامة الشعب الذين يكونون جماعات الزراع والعمال وأصحاب الحرف والمهن .

وهؤلاء وهم غالبية ، يكونون قاعدة تترسب فيها جماهير غفيرة تتحكم فيهم شهواتهم .

وبعد امتحان قاس صارم يسمح للناجحين بدراسة تستمر عشر سنوات تربى فيها أجسامهم وعقولهم ونفوسهم ، فهم يتعلمون الرياضيات والفلك ولكنهم لا يتعلمونها بقصد الكسب المادى أو العمل اليدوى ، وإنما للتمعن والتأمل المعنوى المجرد للعلوم البحتة ، فالقائد العسكرى يتعلم الأرقام حتى يستطيع تنظيم جنوده فى وحدات متناسقة فعالة .

وفى سن الثلاثين يجرى امتحان صعب ، وينضم الراسبون فيه إلى طبقة الشرطة والجند الذين يتولون الذود عن حياض الوطن داخلياً وخارجياً . وإعداد جيش وطنى قوى قصد به أفلاطون أن يكون درعاً للوقاية وقوة إرهابية للأعداء حتى لا يجسروا على تهديد الوطن . فالجيش للدفاع لأن أفلاطون كان يمقت الحرب والقتال .

أما الناجحون فهم يواصلون الدراسة ، رجالا ونساء ، فى الفلسفة لمدة خمس سنوات ثم يتدربون على الحكم الصالح وسياسة الدولة تدريباً عملياً فى خضم الواقع حتى سن الخمسين ، وهذه هى السن التى يصلح فيها الدارس أن يكون ملكاً فيلسوفاً ، إذ كان من رأى أفلاطون أن يقوم على حكم الناس الفلاسفة لقدرتهم على فهم إرادة الله على حقيقتها ، وهم القادرون وحدهم على تفهم الأسرار الإلهية وتبين مشيئة الخالق بل هم أعدل الناس وأكثرهم قدرة على نشر العدالة وتطبيقها . والحكام الفلاسفة منزهون عن الشهوات الدنيوية التى يعرفها أفراد الطبقة الدنيا ، فهم لا يتملكون ، ويتناولون طعامهم فى

مناصب عامة ولا يسكنون القصور وإنما يبيتون فى قاعات مشتركة . وجل تفكيرهم موجه إلى إسعاد مواطنيهم والعمل على راحتهم بنشر الخير والعدالة بينهم .

ينظر بعض المفكرين لآراء أفلاطون التربوية على أنها أفكار خيالية تقصد عالماً مثالياً كالمدينة المثالية التى كان أفلاطون يحلم بها . ولكن أحداً لا ينكر مدى ما لفلسفته من إشعاع غمرت به البشرية حيث أفادتها بخيرها وعدالتها وجمالها . ويشبه البعض أثر أفلاطون بالظل الذى يلجأ إليه العابر فى يوم قائظ ويجلس إلى جدار مبنى كنيسة ، ثم يحتمى من البرد بهذا المبنى ويجد فى داخله من الجمال والقدسية ما يريح نفسه ، ولكنه قد لا يسأل عن اسم الذى بنى هذه الكنيسة وأبدع بناءها إذ يختفى اسم صانع هذا المبنى وراء سحب التاريخ .

وأثر أفكار أفلاطون على التربية كما نعهدها فى المدارس أثر قليل . ومع ذلك فقد تأثرت مدارس الأديرة المسيحية وجامعات العصور الوسطى بآرائه . غير أن هذا التأثر هزيل إذا قورن بفيض أرسطو الكبير . ويلوح أن القلة هى التى فهمت عمق نوايا أفلاطون ، فرأى الغالبية أن مبادئه التربوية غير عملية ولا تصلح للمربى . ومع ذلك فهناك إعجاب بآرائه عن تعليم النساء ، وبمزجه بين التربيتين الرياضية للجسم والموسيقية للروح ، وباعتقاده أن التربية عملية مستمرة فيها جانب عملى واقعى ، وبفهمه عن الفيلسوف الحق .

ويجد المربون صعوبة أو حتى استحالة فى تنفيذ آراء أفلاطون التى غلفت بالمثاليات (اليوتوبيا) ، ومن المحتمل أنه هو نفسه كان يبتسم أحياناً للصورة المشرقة المتفائلة والخيالية التى كان يحلم بها ومع ذلك فكان ثمة أمل يراوده كما راود ملك صقلية الشاب ديونيسيوس الذى أرسل إليه ليجعل منه ملكاً فيلسوفاً ، غير أنه ضاق ذرعاً بأفلاطون وفلسفته وتعاليمه وكاد يبطش به لولا أن هرب .

لقد أعطى أفلاطون البشرية أملا وتفاؤلا ، تسعى إليه فى كل جيل عبر التاريخ لتحقق شيئاً منه .. ولو قليلا .

الفصل الرابع
التربية الأوروبية فى العصور الوسطى

....وكان أن دب الفساد فى أوصال الإمبراطورية الرومانية ، وقامت القسطنطينية تتحدى روما المتداعية ، وانتقلت إليها السلطة شاطرة الإمبراطورية شطرين منذ القرن الرابع الميلادى . وفى غضون هذا القرن كانت القبائل الجرمانية الآتية من الشمال قد استوطنت أجزاء مختلفة من البلاد ، وكانوا يدخلونها إما باعتبارهم أسرى حرب أو عمالا فى الأرض أو للخدمة فى الجيش . على أن تزايد عدد الجرمان أتاح لهم الفرصة لتكوين دويلات خاصة بهم .

وقد تولى جستنيان عرش بيزنطة (٢٥٧ — ٥٦٥ م) ، الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وحاول استعادة أملاك الإمبراطورية فى الغرب ، فسير جيوشه فى شمال أفريقيا محارباً قبائل الفندال واحتل عاصمتهم قرطاجنة ودمر مملكتهم ، وكان ذلك عام ٥٣٣ م ، ثم أرسل إلى حكام روما ، وهم من القوط الشرقيين ، يطلب منهم الاعتراف بسلطانه ، وترك الكنيسة وشأنها ، وتقديم ثلاثة آلاف قوطى ليخدموا فى جيشه ودفع جزية له ... الخ . ومع انتصار الشرق إلا أن الأمور عادت إلى الفوضى وعم الفقر إيطاليا وانتشر فيها الجهل ، خاصة وأن اللومبارديين والفرنجة كانوا يغزون الأراضى الإيطالية من الشمال . وتقاسم السلطان السياسى فى إيطاليا خلال القرنين السابع والثامن ملوك الفرنجة والبابوية والإمبراطوريةالرومانية الشرقية واللومبارد وغيرهم . م بدأت السيادة السياسة تتحرك شمالا إلى الممالك الفرنجية فيما يطلق عليه اليوم فرنسا وألمانيا . ثم اتحدت بعض الممالك الفرنجية تحت زعامات موحدة ، ولعل أشهر الزعماء كان كلوفيس . وقد انسلخت السلطة أحياناً كثيرة إلى كبار

رجال القصور . ويذكر التاريخ أن شارل مارتل (شارل المطرقة) كان أحدهم وهو الذى هزم العرب فى محاولتهم السير من أسبانيا براً إلى القسطنطينية وكان ذلك فى موقعة تور فى جنوب فرنسا عام ٧٢٢ م . وخلف مارتل ابنه بين القصير الذى لبى دعوة البابا لإنقاذه من الحركات الفكرية الهدامة الآتية شرقاً من اليونان واللومبارد النازحين من الشمال . ومكافأة لبين فقد عينه البابا ملكاً على الفرنجة . كما منح بين البابا شريطاً من الأرض فى وسط إيطاليا أصبح فيما بعد الدويلات البابوية .

ثم خلف بين ابنه شارلمان الذى أصبح ملك الفرنجة والذى خرج ليوسع حدود مملكته شرقاً إلى نهر الألب وشمالا إلى بحر الشمال وجنوباً إلى البحر المتوسط . وفى يوم عيد الميلاد عام ٨٠٠ توج البابا شارلمان إمبراطوراً رومانياً وأصبح شارلمان الخليفة الشرعى لأباطرة الرومان الأقدمين . وقد عول شارلمان حينئذ على أن يستعيد للامبراطورية القديمة مجدها . وكانت لشارلمان صلات ودية مع خلفاء المسلمين وتبادل معهم الهدايا . كما أنه أرسل مبعوثيه ليستمعوا إلى شكاوى وطلبات رعاياه مما أضفى على عهده سمات التقدم فى الزراعة والتعليم .

وبعد موت شارلمان بدأ الصراع بين رجالات الدولة والكنيسة وداخل أسرته للسيطرة على مقاليد الأمور ، وتمخض الصراع بعد سلسلة طويلة من الحروب الأهلية عن تقسيم الإمبراطورية إلى ثلاثة أجزاء كبيرة يمكن أن نتصور حدودها اليوم فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا . وقد أدى هذا الانقسام إلى ضعف بدأ يسود الإمبراطورية وإلى نمو تدريجى للارستوقراطيات المحلية ، والنبلاء ، ورجال الكنيسة وملاك الأرض من الحكام .

بل إن الوهن تطرق أكثر فى الإمبراطورية التى تقسمت عندما جاءها غزاة من الشمال — الفايكنج — مكتسحين الأرض الأسكندناوية . كما غزا الدانماركيون الجزائر البريطانية ، وانتشر النورمان فى نورماندیا وصقلية وإيطاليا ، ودخل السويديون أرض روسيا . وهاجم السلافيون والمياجيار

الإمبراطورية من الشرق . كما أن العرب جاءوا بحراً وبراً من الجنوب محتلين جزراً فى البحر المتوسط وأجزاء من جنوب إيطاليا وفرنسا كما احتلوا أسبانيا .

وعم الإمبراطورية فزع وخوف ، فلا قانون ولا قوة تحمى الأهالى ، ولكن كان كل هذا داعياً لأن تتبلور وتتمركز السلطة فى يد رجال أقوياء كل فى منطقة يملك أرضها ويحتمى بقلعة حصينة ، ويلتف حوله من يقبلون الحرب معه . وأصبح أمراء الاقطاع هم أصحاب السلطة الحقيقية القادرين على صد هجوم (الأعداء) ، ولكن كان هنالك ملوك يمارسون سلطة إسمية .

وتتميز الفترة بعد تفتت إمبراطورية شارلمان فى القرن التاسع بصراعات بين الملوك بعضهم البعض وبين الملوك والنبلاء ، فالملوك يريدون لأنفسهم سطوة أكثر . واستطاع أوتو الأول عام ٩٥٢ م أن يقتحم إيطاليا غازياً ويعلن نفسه على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولعل وصف الإمبراطورية بأنها مقدسة يظهر أثر الدين فى المسائل السياسية .

وظلت الصراعات قائمة على الأراضى شمالى غربى إيطاليا ، ثم استقرت الأمور بعض الشىء فى فرنسا التى تكونت فيها مجموعة من الدوقيات والمقاطعات والقرى الإقطاعية ، ولم يكن للملوك سلطان يذكر عليها .

أما فى الجزر البريطانية فقد استطاع وليام الفاتح على رأس النورمان عام ١٠٦٦ م هزيمة الساكسون والدانمراكيين ، ومن ثم بدأ يخطو وليام بانجلترا خطوات حقيقية نحو الوحدة .

وبينما هذه الأحداث تجرى فى انجلترا فى الجزء الأول من العصور الوسطى (من القرن السادس إلى الحادى عشر الميلادى) .كان العرب قد كونوا إمبراطوريتهم المترامية من المحيط الأطلسى إلى الهند . وفى القرن التاسع بدأت الإمبراطورية العربية تتفتت وتستقل أجزاء منها ، وتتنازع فيما بينها (١) .

ثم نأتى إلى القسم المتأخر من العصور الوسطى (ويشمل الفترة من القرن الحادى عشر إلى السادس عشر الميلادى) . ومن منتصف القرن الحادى عشر

(1) Butts, R. F., op. cit. 137

فى نهاية الثالث عشر كانت المحاولات تبذل لمركزة القوة السياسية فى انجلترا وفرنسا ، أما ألمانيا وإيطاليا فظل الصراع محتدماً بين الأباطرة والنبلاء فى جانب ، والأباطرة والبابوية فى جانب آخر . فيذكر التاريخ صراعاً نشب بين هنرى الرابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وبين نيقولا الثانى والبابا جريجورى السابع . وفى القرن الثانى عشر اشتد الصراع بين فردريك باربار وسا والبابا ، وبين المدن المستقلة فى شمالى إيطاليا كذلك . وقد تحالفت هذه المدن وانتزعت من باربار وسا حق الحكم الذاتى عام ١١٨٣ .

وفى سنة ١١٨٧ كانت الحرب مشتدة بين العرب والصليبيين ، وفيها انتصر صلاح الدين الأيوبى فى معركة حطين واسترجع القدس . وجن جنون أوروبا وقامت حركة ترمى إلى استرجاع بيت المقدس وأخذ ملوك أوروبا فى الاستعداد للزحف بحملة كبيرة إلى الأراضى المقدسة . وقد اشترك فردريك فى هذه الحملة وكانت ثالث حملات الصليبيين ، ولكنه غرق وهو يجتاز نهراً فى آسيا الصغرى . فى طريقهم إلى تحرير الأراضى المقدسة. وقد أثر وجود الصليبيين فى أرض العرب ، وحملاتهم المتكررة عليها على التفكير الأوروبى وعلى المجتمع هناك مما سيظهر فى معرض الحديث عن التربية على هذه الأرض فى ذلك العصر .

وعود إلى ما كان يجرى فى أوروبا فى غضون الشطر المتأخر من العصور الوسطى الذى امتد من القرن الحادى عشر إلى السادس عشر كما سبق أن بينت . ويذكر أن البابا أنوسنت الثالث تولى شئون البابوية عام ١١٩٨م ، وجعل سلطة البابوية الزمنية فوق كل سلطة مهما كان نوعها ، وكان أنوسنت سيد روما ، مقوياً نفوذه فى أواسط إيطاليا ومتدخلا فى شئون الانتخابات الإمبراطورية ، بل إنه فرض نفوذه السياسى على يوحنا ملك انجلترا والفونس ملك ليون ، وصادق ملك فرنسا وتدخل فى شئون هنغاريا ، ونصح ملوكا آخرين . . وبالاختصار فقد أصبح للبابا نفوذ فى كل أوربا .

ولكن البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤م) اختصم مع فيليب ملك فرنسا ،

فقد منع فيليب رجال الدين من المحاكمات ، وفرض عليهم الضرائب ، ثم منع الأجانب جميعهم من دخول فرنسا . . . فأصدر البابا عام ١٣٠٢م بيانا قال فيه إن خضوع كل فرد لأسقف روما (وهو البابا) أمر لازم للخلاص الروحى . ورد عليه فيليب موجها إليه عدداً من التهم ومطالبا بأن يحاكم على يد مجمع كنسى ، بل أرسل جيشاً للقبض عليه ، وقد أثر عليه الموقف فمات ، وتقلصت السلطة الهائلة التى كانت فى يد البابوية .

أما ما كان يحدث فى ربوع أوروبا وقت القوة البابوية فى القرن الثالث عشر ، فان مملكتى فرنسا وانجلترا أخذتا بأسلوب الحكم الملكى المركزى القوى ، وأصبح للسكان حكومة واحدة تسعى لخيرهم ، كما ظهرت أسبانيا كدولة قوية بعد تقلص النفوذ العربى ، ووقفت البرتغال كدولة جديدة .

وإذا تركنا الجانب السياسى لننظر فى أحوال الأوروبيين فيما بين القرنين السادس ونهاية الثالث عشر الميلاديين ، فنجد :

أولا : شيوع الإقطاع : ويذكر المؤرخون (١) أن القرنين التاسع والعاشر أسبغا على أوروبا ظلمة حالكة أشد من أيام الإغارات الجرمانية العظمى التى ساعدت على هدم الدولة الرومانية ، وفى خلال هذين القرنين أخذ النظام الإقطاعى ينمو باطراد . وقد مهدت له حركة التطور العام نحو المحلية أكدها خلفاء شارلمان بشخصياتهم الضعيفة . حتى إذا جاء القرنان الحادى عشر والثانى عشر لم تكن هناك حكومات مركزية ، وتحول ولاء الجماعات إلى السادة المحليين ممن تأسست على أيديهم أسرات إقطاعية كبرى ، ترجع أصولها فى معظم الأحوال إلى القرن العاشر الميلادى . بل أصبح امتلاك الأرض مقترناً بحق امتلاك نواصى الحكم والسلطان ، وامتلاك الأرض يعنى امتلاك من عليها وما عليها . وأصبحت الأرض والسلطة ممتزجين بعضهما ببعض . ومن ثم نشأت بين السيد والمسود علاقة تقوم على عدد من التعهدات والالتزامات متبادلة بين الطرفين .

---

(١) كوبلاند ، ج . ر . (ترجمة محمد مصطفى زيادة) : الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا ص ٦ — ٨ .

وكان هناك السيد الكبير وقد يكون الملك أو لورداً وهو مسيطر على مجموعة من البارونات ، يمنح كلا منهم أرضاً فى مقابل أن يؤدى البارون لسيده خدمات حربية معينة (١) ويتعهد بالمثول أمام محكمته الخاصة للفصل فى قضايا التابعين . والبارون بموجب النظام الإقطاعى هو الحاكم فيما تحت يده من الأراضى ومن عليها من السكان . وكان من أهم واجبات البارون الحرب سواء كان ذلك تحت راية سيده فى حملة صليبية أو احتكاماً إلى السيف فى مبارزة قضائية لإثبات براءته من تهمة الخيانة أو الإجرام ، أو دخولا فى حلف إقطاعى ضد الملك أو الإمبراطور ، أو مساعدة للكنيسة فى إخماد حركة من حركات الهرطقة التى يقوم بها المارقون عليها . والصورة الماثلة فى أذهاننا عن الفارس الإقطاعى ذلك الشجاع على ظهر حصان قادر على الحركات الحربية الخاطفة بفضل استعمال الركاب فى سرج الخيل ، ثم الملابس المدرعة ، وحفلات المبارزة مع نبيـــل فى الأخلاق .

وكان البارون يسكن قصراً هو حصنه ، فقد يحدث أن يكون سيدة مشغولا عنه فى حرب بعيدة ، فلابد للبارون من قلعة تحميه ، ويعيش فيها مؤدياً واجباته الحربية ، ثم الإدارية والسياسية التى ألقيت عليه فيما بعد .

أما عن الأهالى والعامة فقد كانوا يعيشون فى مرحلة بين الحرية والرق وهى الحالة التى عرفت باسم القنية serfdorm فى العصور الوسطى ، والقن فلاح يعيش على قطعة من الأرض يمنحها إياه سيده متملك الدومين . وهو مربوط إلى هذه الأرض ، ولا يملك الحرية فى الانتقال عنها . ولا يتزوج من جهة خارج الدومين التابع له إلا باذن من سيده . . ويدفع القن لمتبوعه مبالغ معينة كلما رزق مولوداً أو مات له ميت ، وفى مناسبات أخرى كثيرة . والقن ملك لسيده له حق بيعه واستبداله . وينشأ أبناء القن كأبيهم يخدمون سادتهم الذين يمتلكونهم ولا يستطيع فرد أن يسمو إلى طبقة أعلى . ولم تكن هناك إلا طبقة الأرستوقراطيين (النبلاء وكبار رجال الدين) وطبقة

(١) vassalage

الكادحين فى الأرض . وبازدهار التجارة وظهور المدن بدأت الطبقة الوسطى تولد . وتقف بين الطبقتين ، فهى خير من الطبقة الدنيا ، وأقل من الطبقة العليــا .

ثانياً : ظهور المدن : بقيام جماعة التجار وتكتلهم معاً للقيام بأعمالهم مجتمعين وإنشاء أماكن مستقلة عن قلعة البارون أو النبيل بدأت تتكون طبقة تسكن (الضواحى) على مقربة من القلاع الكبيرة أو فى حمى دير كبير ، على أن تكون على طريق رئيسى ييسر نقل البضائع ، وكانت هذه الضواحى بداية ظهور المدن فى أوروبا . على أن قيام أية مدينة كان يتطلب منحها (براءة) يصدرها الملك أو النبيل أو الأسقف ، ويعين فى البراءة السكان ورعويتهم وإدارة المدينة والامتيازات التى تمنح لها . وكان سكانها غالباً من البرجوازيين (الطبقة المتوسطة) وهم من التجار والصناع المتحررين من ربقة القنية الإقطاعية . ولم يكن لكل سكان المدن الحق فى الاشتراك فى إدارة المدينة واختيار مجالسها . ومن أهم مهام المجالس حماية المدن بإقامة الأسوار والقلاع وحفر الخنادق .

ثالثاً : التجارة : يرجع الفضل للحروب الصليبية فى توسيع مدى التعامل التجارى بين أوروبا والشرق . كما أن التجارة فى أوروبا ذاتها بدأت تثير اهتمام الملوك والأمراء للعمل على تحسين الطرق وإقامة الجسور على الأنهار ، لما فى ذلك من فوائد تزيد ما يدخل خزائنهم من ذهب . كما وضعت القوانين لحماية التجار من اللصوص والقراصنة . وظهرت التحسينات فى بناء السفن ليزيد حجمها فتحمل أكثر . وكانت أوروبا تستورد من بلدان الشرق العربى التوابل والبرتقال والمشمش والتين والزبيب والعقاقير والأصباغ والأقطان ، والحرير الخام والمشغول مثل أقمشة الدمقش (دمشق) والموصلين (الموصل) والبلدشين (بغداد) والشاش (غزة) . وكانت أوروبا تصدر للشرق العربى الخشب والسلاح والأصواف وأدوات زراعية وخزف .. الخ .

رابعاً : النقابات : كان الإنتاج الصناعى الذى بدأ ينمو فى أوروبا

محاجة إلى من ينظمه ويحميه . وقد أخذ الصناع منذ أن بدأت قيمتهم فى مجتمع المدينة تقوى بإنشاء جماعات (طوائف) صناعية تهتم بشئونهم . وكان بعضها يقوم على أساس ديني ثم تطور إلى النواحي الاجتماعية والاقتصادية ، فظهرت النقابات الصناعية والتجارية فى أكثر المدن الأوربية(١) .

وكان أعضاء النقابة ثلاثة أقسام على أساس درجة العضو فى اتقان الصناعة : التلميذ — الأجير — المعلم ، وكان يدفع رسوماقبل أن يصبح عضواً ، وكان يسكن بيت المعلم ويأكل عنده . ويخضع لرقابة معلمه الصارمة الشديدة . وتتراوح مدة التلمذة بين سنتين وسبع سنوات على حسب الصناعة . ثم يصبح التلميذ أجيراً ، ثم إذا أثبت تفوقاً وشهد له بذلك فتح مصنعاً .

وكانت هناك نقابات للتجار ، هدفها حماية أعضائها ضد النبلاء وتأمين معاملة عادلة فى الأسواق البعيدة ، والتأكد من مراعاة القوانين التجارية داخل المدينة ذاتها . وكثيراً ما كانت نقابات الصناع تتعاون مع نقابات التجار فى تنظيم الناحية الاقتصادية .

خامساً : الحياة الدينية : تمركزت الحياة الدينية فى أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى حول محورين : الأول هو البابوية باعتبار أنها الرياسة العليا للكنيسة ، والثانى التنظيمات الكهنوتية ، وقد سبق أن ألمحت إلى حقائق عن الصراعات البابوية وبعض الملوك ، ورغبة فى سيطرة بابوية دينية على النواحي السياسية . ويهمنا من المحور الثانى الرهبنة وأنظمتها المختلفة . ونتكلم عن أنظمة مختلفة للرهبنة ، فعندما كان يعتور الحياة الروحية فتور كان يعيد إليها الحيوية نظام رهبنة جديد . بل اتخذ النشاط الروحي أحياناً مزيجاً من الرهبنة والعمل العسكرى كما وجد فى الفرق الدينية الثلاث وهى : الهيكليون ، وفرسان المستشفى . وفرسان التيوتون . كما حاولت الكنيسة برجالها ورهبانها

---

(١) من أهم المدن : البندقية (١٩٠ ألف نسمة) — لندن (٤٦ ألف نسمة) — بروكسل (٤٠ ألفاً) — ستراسبورج (٣٦ ألفاً) ثم ميلان وجنوة وفلورنسا ، وكان يسكن كل منها حوالى مائة ألف نسمة .

أن تخفف من ويلات الصراعات التى استمرت أجيالا طويلة للتنازع على السلطة إبان العصر الاقطاعى . فقام رجالها منظمين السلم الأهلى وفرض الهدنة لأهلية وفيها يمنع القتال فى أيام معينة . وكانت محاولات لم يكتب لها نجاح كبير ..

وقد انتشرت (الهرطقة) فى أوروبا . وقد تمركزت حول محاربة الاتجاهات الدنيوية للكنيسة وسلطات رجال الدين المتزايدة . ومن جماعات الهرطقة الألبينيون نسبة إلى مدينة Albi فى جنوب فرنسا ، وقد رأوا أنفسهم مطهرين Cathari(ويسمون أيضاً الكاثاريون) فى دعوتهم للاحتجاج على فساد الكنيسة ورجال الدين . وأكدوا أن الرغبة فى الأمور المادية خطيئة ، لأن المادة شر ، وعلى ذلك فامتلاك الثروات والكذب وشن الحروب تعتبر من الخطايا .

كما احتج على الكنيسة الأرنولديون بزعامة أرنولد بريسكا ، وهاجموا جشع البابوات وتملك القساوسة للسلطة وتدخلهم فى الشئون الدنيوية ، وقاموا بتمجيد قيم الفقر والحياة البسيطة . والوالدونيون جماعة محتجة أخرى ، وهى تنسب لبيتر والدو Waldo ، وقالوا إن الطاعة واجبة للبابا ورجال الدين إذا كانوا أهلا لذلك ، وتجب الطاعة أولا لله ، وقالوا إن الصلوات وتوزيع الصدقات على أرواح الموتى لا فائدة منها ، وأن الصلاة والعبادة خارج الكنائس صالحة كداخلها .

وغير هؤلاء من الهراطقة الذين شكوا فيما لدى رجال الدين من سلطات وتساءلوا عنها . واحتجوا عليها ، وطالبوا تغييرها ... وكانت بدايات التفكير الحر .

التربية فى العصور الوسطى فى أوروبا

يمكن تلخيص المثل العليا المسيحية فى العصور الوسطى بأنها أكدت :

(١) القيمة الكبرى للمسائل الروحية .

(٢) الاهتمام بالحيـاة الآخرة .

(٣) التساوى الروحى للخلق أمام الله .

(٤) شرف العمل وتطبيق مبادىء العدالة فى العلاقات بين الأفراد العاملين .

(٥) وحدة كل البشر .

(٦) أن أول واجبات الفرد خدمة ربه وزملائه ونفسه .

ولكن الواقع العملى فى تلك العصور لم يسم إلى هذه المثل . بل لقد طغت على العقل الخرافات والبدع والأوهام ، وكان العقل خافها جميعاً . فما زالت فيه آثار من وثنية طمرها التاريخ . كان العقل يميل ناحية الجماعة فيلفظ المارقين على التعاليم الكنسية المتفق عليها . كما كان عقلاً شغوفاً بالعالم الآخر ، فتطلع من الأرض إلى السماء ، ومن المحدود إلى اللانهائى ومن المؤقت إلى الخالد . ولكن بدأ يتغير بتأثير نمو التجارة وظهور البورجوازية والحروب الصليبية واحتكاك الأوروبيين بثقافات العرب وغيرهم .

وكان هدف التربية فى العصور الوسطى مشتقاً من الظروف الاجتماعية فهدفت إلى خدمة الرب والكنيسة والخلق والنفس . وبهذا يكون للتربية غرض مزدوج مؤكداً على مطالب الكنيسة ومطالب الحياة ، ومع ذلك فان المدارس ، عدا الجامعات ، منحت تربية عامة ذات طابع أدبى دينى . وفيما يلى عرض سريع لجوانب هذه التربية .

أولا : حركة إحياء العلوم فى عصر شارلمان الذى أسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام ٨٠٠ م . وقد حاول ، ونجح فى محاولته ، أن ينقل الثقافة الرومانية ويوفق بينها وبين ثقافات جماعات البرابرة الذين اعتنقوا المسيحية . ورمى من محاولته إلى تكوين وحدة داخلية ثقافية تربط بين سكان إمبراطوريته . وقد اعتمد شارلمان فى محاولته على كثيرين من رهبان الأديرة ومنهم الكوين AlcuinM.

كما أصدر شارلمان فى عام ٧٨٧ م أوامر إلى جميع أساقفة فرنسا ورؤساء أديرتها يلومهم فيها على استخدام الألفاظ الخشنة و « الألسنة غير المهذبة »(١)

(١) وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ، ص : ١٧٥

كما حث كل كنيسة على إنشاء مدارس يتعلم فيها رجال الدين وغيرهم الكتابة والقراءة .وحرص على أن يساوى فى التعليم بين القنة والأحرار ، كما أدرج فى هذه المدارس تعليماً طبياً للتنديد بما كان شائعاً من خرافات وأوهام : وكان يدرس بهذه المدارس الحساب [والنحو والمزامير والموسيقى والغناء .

ومن أشهر المربين فى القرن الثامن الميلادى الكوين Alcuin (٧٣٥— ٨٠٤ م) الذى رأس ديرTours وجعل منه مركزاً للثقافة العلمية فى فرنسا . ومن رأى الكوين رفض دراسة الآداب القديمة مع عناية خاصة اهتم بها فى المظهر الصوفى : وقد اهتم الكوين بدراسة الفنون العقلية الحرة السبعة (هى الحساب ، والهندسة ، والفلك ، والتناسق الموسيقى ، والمنطق ، والبيان ، والفلسفة (، وكان يقول بجعلها أساساً للتعليم ، لأنها الأساطين التى قام عليها معبد الحكمة .

ثانياً : التصوف ، وكان للتصوف علاقة كبيرة بالأديرة ، ولذا كان المتصوفون من الرهبان . وقيمة التصوف فى تاريخ التربية قليلة ، ولكن هذا لا يمنع من معرفة شيء عنه فقد أثر فى نظام تربية المتصوفين أنفسهم . وقد احتك بعضهم أحياناً بغيرهم .

وهدف المتصوف الأسمى من الحياة الوصول إلى الكمال الروحى والعلمى ولنصل إلى هذا الهدف كان عليه أن يهمل كل ما يأتى عن طروق الحواس ، فينعزل الفرد عن هذا العالم منكمشاً فى نفسه حتى تفنى شخصيته فى عالم الأرواح وتندمج فى اللانهائية ، فيرى المتصوف ما لا نراه وتتكشف له العجائب ويعرف الأسرار الباطنية . والتصوف كأسلوب تدين هو أوسع التجارب الروحية ، وكأسلوب فلسفة هو أشدها توغلا فى المعنوية والمثالية المجردة ، وكأسلوب للتربية هو غاية الكفرة التهذيبية .

وقد عرف التصوف عند البوذيين والبرهمانيين والفارسيين والمسلمين ، وإن كان عند الأخرين له أهمية أقل .

أما عن تربية المتصوفين فقد اهتمت بقيمة التفكير وأثره فى تنيمة العقل

من الناحية التأملية . وتؤمن هذه التربية بإيمان المتصوفين بثلاثية طبيعة الروح ، فلها جزء حيوانى مرتبط بالجسم ، وجزء مفكر هو مظهرها الإنسانى ، ثم جزء روحانى يرتفع عن مستوى الإنسانية حيث يلتقى الإنسان بالعقل الأسمى أى العقل المقدس . ويمكن أن نفهم الله وأن نصل إلى اللانهائية الحقيقية عن طريق التحليل والتجريد – عن طريق إهمال جميع المؤثرات الحسية والإنغماس فى أفكار الإنسان الذاتية (١) .

وكانت أول مراحل التربية الصوفية تلك التى يعمل فيها الفرد على التخلص من كل ما من شأنه أن يحجب عنه رؤية الكائن المقدس ، ومن المؤثرات الحسية ، ومن الملذات المادية والمتع العالمية ، فالفرد فى هذه المرحلة يجاهد ضد الحياة الخارجية . ثم يصل الفرد إلى المرحلة الثانية ، وهى مرحلة إضاءة الحياة وتنويرها فيقوم المتصوف بالأعمال الطيبة من تلقاء نفسه ، وهو هنا يجاهد داخلياً . أما المرحلة الثالثة فهى مرحلة الاتحاد والحياة .

ثالثاً : الفروسية : ارتبطت الفروسية بالمثل العليا الاجتماعية الراقية . ومنزلتها فى الحياة الدنيوية كمنزلة الرهبنة فى الحياة الدينية ، والأصل فى الفروسية عمل اجتماعى أقرته الكنيسة وعهد به إلى الفرسان الذين أهلتهم قدراتهم ومكاناتهم المادية من مديد العون لغيرهم . ولكى يصبح الفرد فارساً ، يخضع لنظام تربوى قوامه الأعمال البطولية والتهذيب ، فالفارس فرد مطيع مستقيم متعاون . وطبيعى أن هذه التربية اقتصرت على طبقة معينة من الأحرار الأثرياء القادرين على القيام بمهام الفارس . وقد سارت الفروسية جنباً إلى جنب مع الإقطاع مكونة كياناً خاصاً داخل المجتمع ومحتلة مكانة سامية فيه .

والفارس سيد بمعنى الكلمة ، فوعده مقدس وشجاعته لا يتطرق إليها شك ، ويمجد النصر الحربى ، ومع هذا فقد كانت له أحياناً نزوات من الغضب الجارف . وقد أعطت الفروسية لمجتمع القرون الوسطى مثلا عليا فى معنى الطاعة واحترام النظام والذات والخدمة . وقد تأثرت فى هذا بتعاليم

---

(١) منرو : المرجع الأسبق ، ص : ٢٨٠ - ٢٨١

الكنيسة التي علمتهم كيف يحترمون الضعفاء ويندفعون للدفاع عنهم . ومع ذلك فأحياناً كان الغضب يدفع الفارس إلى سرعة سفك الدماء ، بل وقد يكون ذلك على حساب الضعفاء ..

وتقسم تربية الفارس إلى مرحلتين ، مرحلة تربية الغلام وهي من سن السابعة إلى الرابعةعشرة ، ثم مرحلة البالغ إلى سن الحادية والعشرين : وفى المرحلة الأولى كان الغلام يقوم بالخدمة فى إحدى القلاع وخاصة خدمة السيدات ، ثم يخدم على الموائد بعد أن يكبر ، ثم يقدم فى مرحلة البلوغ عدداً من الخدمات لسيده ، ثم يصبح الخادم الشخص المباشر للفارس فى المعركة والحفلات العامة . وكان أهم ما يتعلمه الشاب الحب والدين والحرب ، فيتعلم كيف يرق ويتعطف ويتلطف ويتخير أنسب الكلام وأعذبه ؛ ويقرض الشعر والعزف على آلة موسيقية هى القيثارة مع الترنم بأغنية جميلة . ويتعلم كيف يلعب الشطرنج ويسلى النساء ويبعث السرور والمرح إلى الأفئدة .. هذا إلى جانب ركوب الخيل والمبارزة وفنون القتال المختلفة والصيد بأنواعه ، وتعليم دينى يلف كل هذا بطبقة حامية مانعة من الوقوع فى الرذيلة ، بل كان يقوم بطقوس دينية للتطهير ، ويجب عليه أن يبارك سيفه على يد قسيس . ثم يقسم الفارس فى حفل كنسى على الدفاع عن الكنيسة والنساء والفقراء . أما تربيته العقلية فكانت ضحلة اللهم إلا من تعلم الفرنسية وكانت لغة الفروسية فى العصور المتأخرة من القرون الوسطى .

رابعاً : الرهبنة والديرية : تنوعت الرهبنة فى المسيحية فهنالك الراهب المتبتل فى خشوع الذى يتخذ له مأوى وسكناً بعيداً عن العمران كالصحراء مثلا ، وعرفت العصور الوسطى أيضاً الراهب الجوال الساعى فى الأرض ملتفاً بحياة دينية صارمة . وهناك أيضاً المتصوف الزاهد فى صومعته ، ثم اليسوعى العبقرى الذى يعمل فى المدرسة . وفى الفترة بين القرنين السادس والثالث عشر لم يكن هناك من المؤسسات التربوية ما يحمل لواء النواحى العقلية سوى المدارس الكاتدرائية التى كان يدرس بها جماعات الرهبان .

ولا يتبادر إلى الذهن أن الرهبنة من اختراع المسيحيين فقد عرفها المصريون القدماء والفرس واليهود والإغريق ، وكانت ترمى إلى الوصول بالروح لأسمى درجات الكمال والزهد فى ماديات الحياة الدنيا بكبح النفس عن الشهوات والصيام والتعذيب والنشاط البدنى المستمر والنظر إلى المطالب الدنيوية نظرة ازدراء . وقد وجد مبدأ التصوف فى تعاليم المسيح أكبر مشجع لها ، تلك التعاليم القاضية بألا يفكر الإنسان فى غده وأن يبيع ما يملك ويعطى الفقير ، وأن يترك المرء أباه وأمه وزوجته وأولاده فى سبيل الله . وكذلك فى نصائح السيد المسيح المتكررة القاضية بأن يحقر الإنسان من أمر الدنيا ، ويكرس حياته لخدمة الإنجيل ونشر تعاليمه (١) . ومما يساعد على الرهبنة وتطورها ما أصاب المسيحية من اضطهاد فى سنيها الأولى مما أدى ببعض المتحمسين إلى الاعتصام بالجبال والكهوف ووحشة الصحراء فى انتظار عودة المسيح ثانية . ويذكر أن أنطونيوس كان أول من اعتصم بالصحراء على شاطىء البحر الأحمر عام ٣٠٥ م ثم تبعه فى أسلوب حياته الخشنة المتزهدة عدد كبير من المتدينين ؛ ثم تكونت جماعات احتقرت الدنس فى بعض المجتمعات وآثرت الانسحاب إلى حياة قوامها الطهر والعفة والزهد والعبادة والطاعة وعاشوا فى أديرة .

واتسمت الحياة الديرية بالتهذيب والعمل والتدريب ، فمثلا أديرة بندكت كانت تحدد يومياً سبع ساعات للعمل اليدوى أو الأدبى ، ومن ساعتين إلى خمس ساعات للقراءة . وبذلك أتيحت الفرصة للدراسة داخل جدران بعض الأديرة ، لا يشغل الراهب عن التدين والتحصيل شاغل ، خاصة أن بعض الأديرة حفظت الكتب فى خزائنها ، وكان هناك متسع من الوقت لعمليات النسخ والكتابة . بل إن القوانين الديرية كانت تحتم على كل راهب تعلم الكتابة والقراءة . وأختلفت الأديرة فيما كان يدور داخلها من تعلم وتحصيل ، فقد ازدهرت الدراسة فى بعضها بينما أقفرت فى بعضها الآخر الذى لم يكن فيه أكثر من عدة نسخ لكتاب واحد . ويلوح أن الغالبية كانت من النوع الأخير

(١) منرو : المرجع الأسبق ، ص : ٢٤٤

الذى ارتأى فى الدراسات الأدبية القديمة التى حرمتها الكنيسه مغريات وأمور دنيوية تتعارض مع حياة النسك والتقشف ، أضف إلى ذلك تعدد المذاهب المسيحية ، حتى فى ذلك الوقت المبكر من المسيحية حيث بلغ عددها أيام القديس أوغسطين ٨٥ مذهباً .

وعرف التعليم فى داخل الأديرة على نطاق ضيق ضئيل ، فهو يتضمن القراءة والكتابة والغناء وحساب التقويم الكنسى ، وكان ذلك وقفاً على عدد قليل ممن سينخرطون فى سلك الرهبنة التى لم تقبل سناً أقل من ١٨ سنة ، ثم تدرس الطالب سنتين . أما قبل ذلك السن فلم يكن هناك تعليم يذكر . ويذكر أن شارلمان أعتنى بمدارس الأديرة بمساعدة الكوين وزيره ، فطورها حتى لا تقتصر على مجرد الأعداد للحياة الديرية فقط . وعلى العموم فان الأديرة استأثرت بالتعليم واحتكرته حتى القرن الحادى عشر . ويلوح أن هذا كان مناسباً لحياة الناس الذين ما كان سمهم التعليم بقدر اهتمامهم بحياة القتال والحرب والتدمير .

ثمة مكرمة أسدتها الأديرة للتربية والتعليم جاءت من وحى النظام اليومى للناس . فقد أعفى بعض النساك من الأعمال العضلية الشاقة وكلفوا عوضاً عنها بنسخ المخطوطات من الأدبين اليونانى والرومانى القديمة . ويظهر أن أديرة الراهبات أسهمت بقسط كبيرة فى عمليات النسخ هذه . ويساورنا الشك فى أمانة النقل ، فتدل شواهد تاريخية على أن الرهبان أفنوا وأزالوا ما تعارض مع عقيدتهم من كتابات وأقوال .

إذا كان العرب قد احتفظوا ببعض التراث الأغريقى والرومانى وترجموا منه ومزجوا بينه وبين ثقافتهم وغيرها من الثقافات ، ثم انتقل إلى أوروبا ووصل إلى الأديرة ، فانها (الأديرة) أبقت على هذا التراث ، بل حوت خزائن الكتب فيها كنوزاً ثقافية صانتها من عبث برابرة الشمال . والظاهر أن تعاليم كلونى* ورد فيها ما ينص على الحفاظ على الكتب ومشيرة إلى ضرورة أن يكون فى كل دير مكتبة يستمد منها سلاح الحق ومقومات العقيدة .

ويلوح أن عدوى الاهتمام بالكتب وحفظها ، كما سبق أن بينت عن حرص بعض أثرياء وأشراف الأندلس من العرب على اقتنائها ، قد انتقل إلى قلاع الأشراف . فقد أعجب هؤلاء تفاخر الأديرة بما فيها من كتب فزينوا قلاعهم بمكتبات أضحت منافسة للمؤسسات القديمة فى هذا السبيل . واستمرت القلاع والأديرة خزائن للكتب حتى اخترعت الطباعة وانتشرت الجامعات وورثت هذه المهمة .

وإذا كان الرهبان قد اتخذوا من نسخ الكتب مورداً للرزق ، فانهم انتجوا إنتاجاً أدبياً عن حياة القديسين ، وقصصاً أخلاقية مختصرة وشرحاً للكتاب المقدس وتاريخ الأديرة ، وغير ذلك من الإنتاج الذى سما بعملهم عن مجرد النقل والنسخ ، فهم الذين كتبوا فى الفنون العقلية السبعة الحرة (Sevenliberalarts)

(أو ما يطلق عليها الدراسات الأكاديمية) وللفنون السبعة الحرة قصة ، فان اختفاء بعض العلوم والآداب القديمة ، مع ظهور تفسيرات لما عرف منها وساد العصور الوسطى ، حتم تنظيمها لكى تأخذ الطابع المنهجى للدراسة . ولذلك سادت هذه العصور عبارة « الفنون العقلية السبعة » لتضم جميع العلوم التى كانت معروفة وقتئذ . وقد سبق أفلاطون بأن فرق بين مجموعتين من هذه العلوم ، مجموعة المواد الثلاثية ، والمجموعة الرباعية . والأولى تقوم على دراسة الأدب دراسة بلاغية نحوية ، (القواعد والبيان والنحو) والثانية تهتم بالدراسة العملية ، القائمة على دراسة العلوم الرياضية — الحساب والهندسة — والفلك والموسيقى ، ويذكر منرو (١) ... وكان مارتيانس كابيلا أحد ممثلى الثقافة الوثنية فى شمال أفريقيا ، وقد كتب رسالة (زواج علم اللغة من عطارد) وظلت هذه الرسالة أعظم مرجع تستقى منه المعارف القديمة فى النصف الأول من القرون الوسطى . وقد أراد الإله عطارد الزواج ، وحينئذ أخذت السموات التى قال بوجودها الوثنيون ، تتحرك لتقرر أولا من يتزوج عطارد ، ثم تحتفل باتمام زواجه من أكثر الفتيات ثقافة وهى (الفيلوجيا) أى مادة البحوث

---

(١) منرو المرجع الأسبق ، ص: ٢٦٦

اللغوية . أما الوصيفات السبع اللاتى قدمهن فوبوس للحاضرين ، فهى مادة النحو ، ومادة المحاورة ، ومادة البلاغة ، ومادة الهندسة ، ومادة الحساب ، ومادة الفلك ، ومادة الموسيقى . وكل واحدة تظهر فى الحفل تذكر أبويها وأصولها الذين أنجبوها ثم تشرح للحاضرين أصول المادة التى تمثلها ، وقد تضمنت هذه الخطب التى ألقتها الوصيفات ، جميع نواحى المعرفة التى كانت تدرس بالمدارس فى تلك القرون مصوغة فى أسلوب بالغ غاية الخشونة التى نعهدها فى أساليب الكتب المدرسية » .

ومما هو جدير بالذكر أن الهندسة التى كانوا يدرسونها فى تلك الأزمنة كانت تشتمل دائماً على مبادىء الجغرافية ، ويشتمل الفلك على الطبيعة ، والنحو يشمل الأدب ، ويضم البيان ضمن أبوابه التاريخ .

خامساً : الحركة المدرسية : وهذا اصطلاح أطلق على الحياة التعليمية والتربية من القرن الحادى عشر إلى الخامس عشر ، وتمخضت عن ظهور الجامعات . والحركة المدرسية أسلوب من أساليب النشاط العقلى ، فقد عهدنا الحياة العقلية فى الشطر الأول من العصور الوسطى خاضعة للكنيسة خضوعاً شديداً . ومع مجىء أفكار وثنية من الشرق ، وذهاب الحملات الصليبية إلى الأراضى المقدسة ، وتأثيرات العرب الفكرية ، كل هذه أثارت التفكير والتساؤل عن سلطان الكنيسة العقلى ، وهزت العزلة التى عاشتها الحياة العقلية فى الغرب . وهدفت الحركة المدرسية إلى الاستعانة بالعقل فى الدفاع عن العقيدة ، وتقوية الحياة الدينية والكنيسة عن طريق تقوية المواهب العقلية ، والقضاء على الشك والإلحاد والهرطقة عن طريق المناقشة . وكان الصراع بين العقل والسلطة الكنسية ... ولكنه صراع من أجل التوفيق .

ومن خلال هذا الهدف تبلورت رسالة الحركة المدرسية ويمكن تلخيصها فى الرغبة فى صياغة المعتقدات فى أسلوب منطقى ويدافع عنها منطقياً ، ولكن فى غير تشكك فى سلطة الكنيسة ، ثم تنظيم المعرفة وصبغها بالصبغة العلمية الشكلية ، ثم إلمام الفرد بتلك المعارف المنظمة . وتظهر روح التوفيق فى هذه

الأهداف ، فلم تحارب الكنيسة ولم يهمل العقل . ولذلك فقد كان منهاج الدراسة مزيجاً من اللاهوت والفلسفة ... بل هو فى الواقع امتزاج بين المعتقدات المسيحية ومنطق أرسطو . فصاغ المنهج المدرسى العقائد اللاهوتية الكبرى صياغة فلسفية كالمشاكل المرتبطة بالقضاء والقدر وحرية الإرادة وعشاء الرب والتثليث وغيرها .

ويلوح أن المعرفة السطحية لبعض جوانب فلسفة أرسطو وأفلاطون جعلت مبادئهما على شىء من الوفاق ، ثم بان فيما بعد اختلاف جوهرى فى نظرية المعرفة ، فأفلاطون اعتقد أن الأفكار هى وحدها التى تتكون منها الحقيقة (المذهب الحقيقى عند المدرسين الأرثوذكس) وهذه الأفكار موجودة فعلا فى العقل الإلهى . أما ما هو موجود فعلا فما هى إلا صور ونماذج وانعكاسات للأفكار الإلهية . ورأى أرسطو أن الأفكار العامة أسماء ، وأن الحقيقة هى الأشياء الموجودة فعلا . كان اختلاف الرأيين ركيزة الحياة العقلية فى هذه الفترة من العصور الوسطى .

وقد سارت نظم التربية المدرسية على أساس منطق المادة ، لا قدرة المتعلمين ، والمنطق المعترف به وقتئذ هو المنطق القياسى . وأدى هذا إلى صب جميع التلاميذ فى قالب واحد ، فكان الطفل — أى طفل — يتعلم بالطريقة التى تناسب عقل الراشد ، ويدرس مثلا مادة النحو بطريقتها المنطقية الدقيقة .

واستمر هذا الاتجاه التربوى سائداً حتى القرن الخامس عشر ، وقد أنتج الكثير من الكتب وأثر فى عقول الدارسين تأثيراً بالغاً . ورآه فلاسفة القرون التالية جديراً بكل سخرية وتهكم . فقد تحولت الحركة المدرسية إلى شكليات تقف فى سبيل كل تقدم ، بل قد وصفت مؤلفاتهم بأنها نوع رخيص من المعرفة وأن مؤلفيها مجانين قد استسلموا لديكتاتورهم أرسطو ، متقوقعين فى أديرتهم بعيداً عن العالم الحقيقى ، ومكبلين بمعرفة لا يريدون لها تطويراً ، بل اتهمت مؤلفاتهم بأنها تحوى مجردات عقلية لا قيمة لها صيغت فى أسلوب معقد خشن

مكتظ بالمصطلحات المزعجة . كما تناولت كتبهم ومحاولاتهم مسائل وهمية لا حقائق واقعية .

ومع كل هذا النقد ، فإن لرجال الحركة المدرسية الفضل فى هز العقل وإثارة نشاط فكرى كان الخمول قد استولى عليه عدة قرون ، بل إن هذه الحركة مهدت لظهور ونمو الجامعات .

سادساً : الجامعات : اشتهرت بعض المدارس الكاتدرائية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر حتى أنها جذبت الطلبة ليدرسوا فيها القانون الرومانى وفلسفة أرسطو والطب إلى جانب الدراسات الأكاديمية (الفنون العقلية السبعة الحرة) . بل إن طلبة كانوا يذهبون إلى مدرسة معينة تبعاً لشهرة أستاذ فيها ، مثل أبيلار فى باريس . وجاء طلبة من مناطق نائية طالبين العلم ، وقد تكونت من مجموعات من الطلبة وأساتذتهم ما يشبه النقابة وأطلقوا عليها إسم Univesitas كما انتظم الطلبة الأغراب فيما سمى Studiumgeneral . وفى القرن الخامس عشر أصبح اسم الجامعة ومدرسة الطلبة المغتربين صنوان .

وتسبب فى ظهور المؤسسات التعليمية الصراع بين المذهبين الواقعى والمثالى ، واحتكاك الأوروبيين بالمسلمين والعرب والثقافة الإغريقية . كما أن ظهور المدن قد غير من وجه الحياة وطور المجتمع الذى تعطش إلى تربية تسايره ، فلم تعد التربية القديمة كافية لسد حاجات هذا المجتمع الذى تغير .

وتميزت الجامعات فى بداية ظهورها بتلقائية الصلة بين الطلبة وأساتذتهم ، هذه الصلة التى كان قوامها النشاط الفكرى والنهم للمعرفة . وربط بين الأساتذه والطلبة عنصر مشترك ألا وهو الفقر . كما أن باب التعليم كان مفتوحاً لكل طالب قادر على دفع مبلغ زهيد جداً للأستاذ على أن يكون ملماً باللغة اللاتينية وهى لغة التعليم . ولم تكن هناك فى بداية الأمر شروط للالتحاق سوى ما ذكرته ، كما أن الجامعات كانت فى منأى عن سلطة الكنيسة والدولة فى فترات نشأتها الأولى (١) .

---

(١) Mulhern, op. cit., pp. 222-226

ثم أغدقت على الجامعات منح ، لعل أهمها المنح البابوية التي أعطت أفرادها حق التجول كمعلمين وكطلبة ، وحمايتهم من الاعتداءات عليهم ، وحق محاكمة الطالب أمام مجلس من الجامعة ، وحقق هذا استقلال الجامعات عن الدولة والكنيسة ؛ ثم حق الخريجين في التدريس ، وهذا بمثابة شهادة التخرج ، مع إعفاءات للجامعة وللأساتذة والطلبة من الضرائب والخدمة العسكرية .

ونظمت الجامعات في أول الأمر على أساس أنها تضم طلبة من دول مختلفة ، وكانوا يقسمون داخلها إلى مجموعات حسب الدول (كنظام الأروقة في الأزهر) . وقسم الأساتذة إلى أقسام حسب التخصصات : اللاهوت ، القانون المدني ، الدراسات الأدبية ... الخ ، وكانت الجامعات تعد الطلبة لمهن القانون والطب واللاهوت وللتدريس الجامعي . وكان الطلبة يدرسون أساساً الفنون العقلية الحرة السبعة لمدة تتراوح بين أربع وسبع سنوات ويمنح الطالب بعدها درجة الأستاذية (الماجستير) . ثم يصبح الخريج مدرساً جامعياً إذا وجد طلبة يدرس لهم ، أو يلتحق بوظيفة دينية إذا وجدها ، أو يصبح موظفاً إذا واتته الفرصة ، أو يستكمل الخريج دراسته في القانون أو الطب أو اللاهوت التي تمتد حوالي ثماني سنوات ليحصل الطالب على الدكتوراه . وتراوحت مدة الدراسة في الطب والقانون بين خمس وثماني سنوات .

وكان التنافس بين الأساتذة كبيراً ، فدخلهم الوحيد مما يدفعه الطلبة مباشرة لهم . وقد اعتمد الطلبة في معلوماتهم على ما يلقى عليهم داخل الدرس وكانوا يحفظون ما يكتبون على ظهر قلب ، فالكتب نادرة . حتى في تعليم الطب اعتمدوا على معلومات وبعض كتب بسيطة كثيرة منها ما كتبه العرب ، واعتمدت عليه جامعات أوروبا كمؤلفات ابن سينا وشروح وتعليقات عربية في الطب والعلوم .

ولم يكن الطلبة منزهين عن ارتكاب الأخطاء ، فقد عرفنا عقوبات الفصل والحبس لجرائم كالسرقة وعدم حفظ المواعيد فيدخل الطلبة من النوافذ

بعد غلق الأبواب ، والسحر والتزوير وحمل الخناجر وإحضار نساء خلسة إلى داخل مبانى الجامعة . كما حرم عليهم ارتياد الحانات والمسارح واقتناء حيوانات .

وبدأت الجامعات عهودها الأولى بدون أدوات أو أجهزة أو حتى مبان ، فكانت تتخذ من المزارع أو أفنية الكنائس مقاماً . وكان الطلبة الموسرون يعيشون فى أماكن لا ثقة مع خدمهم . وعاش الفقراء فى أى مأوى يجدونه ، وأحياناً كان يسمح بعض القادرين للطلبة الفقراء بالسكنى فى ردهات أو قاعات سكنهم . ثم ازدادت مكرمات أهل الخير ، فمنحت الجامعات الكتب والمبانى للإقامة .

ومع هذا الشح المادى ، فكانت هناك حرية فى البحث والقول خاصة وأنها لا تخضع للإشراف المالى من الدولة أو الكنيسة ، ولكن هذه الحرية لم تكن مطلقة ، ولم تستمر فقد تعرضت الجامعات وأساتذتها إلى القوى الرجعية كثيراً ، وحلت عليهم صنوف من التهديد والعقاب .

وعندما يتقدم الطالب فى دراسته كان يسمح له بالقاء محاضرات لعدة سنوات ، وكن هذا الطالب يسمى (Bachelor) أى السيد الصغير وهو لقب كان يحمله الفرسان الصغار فى خدمة الفرسان الأكابر . وكان يعقد أحياناً امتحان قبل السماح للطالب بالتدريس ، فإذا نجح أصبح حاملا للدرجة الجامعية الأولى (Bachelovdegree) ثم يستعد الطالب لتقديم رسالة للحصول على درجة الأستاذية (Master'sdegree) أو درجة الدكتوراه ، ويدافع عن رسالته أثناء مناقشتها فى امتحان عام ، غالباً كان يعقد فى الكنيسة ، فاذا نجح فى دفاعه لبس قبعة خاصة ، ثم يدعو أصدقاءه إلى وليمة . ويحق له أن يرتدى (روب الماجستير) .

ولم يسمح للإناث بالدراسة الجامعية ، بل لم يسمح لهن حتى بالزيارة وكان الطلبة الجدد يخضعون (لمقالب) مضحكة يقوم بها القدامى كبر... أسامى فى محاولة إدماج الجدد فى الحياة الجامعية .

هذا ، وكان من أوّلى الجامعات فى أوروبا جامعة بولونا (حوالى نهاية القرن الحادى عشر) ، وجامعة بادوا ونابلى (القرن الثالث عشر) وجامعة روما (القرن الرابع عشر) . وفى أسبانيا أنشئت جامعات أهمها سلمانكا فى القرن الثالث عشر ؛ كما ازدهرت الجامعات فى فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر وأشهرها جامعة باريس . أما الجامعات الإنجليزية فأشهرها أكسفورد فى أوائل القرن الثانى عشر ، ثم كمبردج فى القرن الثالث عشر .

ومما يذكر بالفضل للعرب ، كما أورد ذلك منرو ، أن الجامعات الأوروبية المسيحية استفادت فى مناهجها ودراساتها مما أعطاه العرب فى ميدان الثقافة فقد أخذ الأوروبيون عن العرب منذ القرن العاشر أو الحادى عشر الأرقام الحسابية الهندسية التى حلت محل الرموز الرومانية المعقدة . كما أثبت العرب كروية الأرض ، وكانوا يدرسون الجغرافية مستعينين بكرات تمثل كل منها الأرض ، فى الوقت الذى اعتقد مسيحيو أوروبا أن الأرض مسطحة . وقد حول الأوروبيون مراصد العرب إلى مغارات لنواقيس كنائسهم ، ونقلوا عنهم الجبر وعلم الحساب العالى . كما ساهم العرب بقسط وافر فى تقدم علوم الطب والتشريح والصيدلة والفلك ووظائف الأعضاء وأضافوا إليها الشىء الكثير من أبحاثهم التى أصبحت أصول هذه العلوم فى عصرنا الحديث . وفى ميدان الطبيعة شرحوا قوانين انتشار الضوء والجاذبية الشعرية ، كما درسوا بعض الظواهر الجغرافية كالشفق وارتفاع الطبقات العليا ووزن الهواء والجاذبية النوعية للأجسام ، ووضعوا الجداول الفلكية ، وصححوا نظريات الموازاة والانعكاس واخترعوا الساعة ذات البندول ... هذا إلى جانب اكتشافاتهم الجغرافية والبحرية وما أدخلوه إلى أوروبا من مأكولات ونباتات كالأرز والقطن ، وصناعات كالسكر والحرير ، بل إنهم أعاروا أوروبا علوم استخدام البوصلة والبارود والمدفع .

وقد أقبل كثيرون من الأساتذة الأوروبيين على دراسة فلسفة ابن رشد وبخاصة ما كان فيها من شروح لفلسفة أرسطو ، بل أصبحت شروحه هذه من

الأساسيات التى تدرس فى جامعات أوروبا ، إلى جانب كتابات ابن سينا .

هذا ، ومع أفول العصور الوسطى وسير الزمن حثيثاً إلى عصر النهضة والتنوير ، كانت مراكز الحياة الفكرية قد انتقلت من سلطان الدين إلى أيدى (الدكاترة) وهم جماعات المدرسين خريجى الجامعات . وقد درس هؤلاء الفلسفة والمنطق إلى جانب دراساتهم الدينية .

الفصل الخامس
التربية الإسلامية

من واد غير ذى زرع بدأ الإسلام يغمر الكون هادياً العالمين . والصحراء أرض حل وترحال وتجوبها قبائل بدوية ، والبعض يستقر حيث تصح الحياة. وجبال ووديان ورمال صفراء وكثبان وخيام وجمال وسماء قلما عرفت السحب . وكثيراً ما أريقت الدماء على الرمال ، فالقبائل تتناحر ، وتتفاخر بالأنساب ، وتمدح وتهجو . .

وفى غمار التقاليد الجامدة المتينة عاش سكان شبه الجزيرة العربية ، وكانت ذخيرتهم العقلية ما يتوارثونه جيلا بعد جيل ، ويقول دى بور De Boer(١) « ولم تكن عندهم الثمرات التى يتوصل إليها بالاجتهاد والتضامن الاجتماعى ، ولا الآثار الفنية الجميلة التى يؤتيها الفراغ والترف ، ولم يصلوا فى التمدن إلى مرتبة أعلى من ذلك إلا بأطراف تلك الصحراء ، فى دول تكونت بعض الشىء ، كثيراً ما كانت تتعرض لغارات يشنها البدو .. وهكذا كانت الحال فى الجنوب حيث امتد الأجل بدولة ملوك سبأ القديمة إلى العصر المسيحى ، وتحت سيادة الأحباش أو الفرس .

وفى الغرب كنت تقع مكة والمدينة (يثرب) على طريق تجارى قديم ، وكانت مكة بوجه خاص — نظراً لسوقها ولوقوعها فى كنف البيت الحرام — مركزاً لحركة تجارية قوية . أما فى الشمال فقد نشأت مملكتان من العرب كانت لهما بعض السيادة ، هما : مملكة اللخميين فى الحيرة ، على تخوم الفرس ، ومملكة الغساسنة فى الشام على تخوم الروم » .

حقاً لم تكون شبه الجزيرة وحدة سياسية ، ولكن كانت هناك وحدة اللغة

(١) دى بور (ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ص ٣ - ٤

والاهتمام بالشعر وقوافيه وأوزانه ، حتى إن العرب أنزلوا الشعراء بينهم منزلة حسنة . وقد تخيرت القبائل أرجح رجالاتها عقلا وأعلى حكمة ليكونوا شيوخاً فيها يحكمون بين الناس . وترابطت القبائل فيما بينها بروابط التجارة والأسواق الأدبية ، حتى إنه يقال إن قصائد الشعراء الساحرة كانت تنزل فى أول الأمر منزلة وحى الكهان . ثم كانت القبائل ترفع السيوف بعد سلام سعياً وراء خير أورداً لإهانة .

ثم جاء الإسلام ، ونزلت أول آية على محمد بن عبد الله وهو يتعبد فى غار حراء : « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . ثم بدأ الإسلام ينتشر فى ربوع شبه الجزيرة ، وتحمل عليه السلام وصحابته الأذى والألم حتى كتب الله لهم نصراً مبيناً .

واستطاع النبى (صلى الله عليه وسلم) ومن بعده الخلفاء الراشدون .. « أن يبعثوا فى نفوس أبناء الصحراء الأحرار ، وفى نفوس من هم أكثر منهم تحضراً من أهل البلاد الواقعة فى الأطراف روح الاتحاد فى العمل ، وإلى هذا البعث يرجع الفضل فى المكانة التى يتبوؤها الإسلام كدين عالمى . ولقد صدق الله المسلمين وعده بالنصر . وكأنما كان تأييده لهم إجابة لندائهم عند لقاء الأعداء : « الله أكبر » .. تم فتح العرب بلاد فارس كلها ، وانتزعوا من الإمبراطورية الرومانية الشرقية أحسن ولايتين فيها ؛ وهما : الشام ومصر ؛

وخلف النبى عليه السلام الخلفاء الراشدون (١١ — ٤٠ هـ — ٦٣٢-٦٦١م) أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . ثم غلب على . وفاز معاوية بن أبى سفيان والى الشام على ولدى على بن أبى طالب . وفرت فلولهما باذرة بذور حزب الشيعة. وأسس معاوية الدولة الأموية متخذاً عاصمته دمشق (٤٠ — ١٣٢ هـ — ٦٦١ — ٧٥٠ م) . وإبان حكم الأمويين رفرفت ألوية المسلمين على رقعة من الأرض تمتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى ما وراء حدود الهند والتركستان

(١) المرجع السابق . ص : ٥

شرقاً ، ثم إلى بلاد القوقاز وأسوار القسطنطينية شمالا .. وسادت اللغة العربية فأصبحت لغة الدين والدولة والشعر والعلم . وأصبح تولى المناصب العليا من حق العرب ؛ فهم يديرون الدولة ويتولون قيادات الجيش ، أما حملة العلم والفن فكان غالبيتهم من غير العرب . وإبان الدولة الأموية ازدهرت البصرة والكوفة كمركزين للثقافة حيث كان يلتقى فيها عرب وفرس ونصارى ومسلمون ويهود ومجوس . ولعل هذه اللقاءات بين أقوام من شعوب مختلفة ولغات متعددة وثقافات متنوعة كانت بداية لعصر من التقدم العلمى فى وقت كانت فيه أوروبا تغط فى نوم من الجهالة يزداد عمقاً سنة بعد أخرى .

وخلفت دولة بنى أمية الدولة العباسية (١٣٢ — ٦٥٦ هـ — ٧٥٠ — ١٢٥٨ م) ، وأطلق على فترات منها بالعصور الذهبية . وقد بنى المنصور ثانى خلفاء العباسيين ، بغداد عام ١٤٥ هـ — ٧٦٢ م ، وخلفه هارون الرشيد ثم المأمون ... وتألقت بغداد وأصبحت كعبة العلم والفن والأدب ، وصبت فيها أنهار من الذهب من أرجاء الإمبراطورية المترامية ، ولم يبخل الخلفاء على النهضة العلمية فقدموا للبشرية ما حقق لها التقدم إلى الأمام مستغلة التراث القديم ، ومجددة ومبتكرة ومهيئة للمستقبل .

ثم بدأ الوهن يتطرق إلى الدولة المتماسكة ؛ فاستقلت بعض أجزائها ، فكانت هناك دولة بنى أمية فى الأندلس ، ودولتا الطولونيون والفاطميين فى مصر ، وأقام بنو حمدان ملكاً فى الشام والجزيرة ، كما قام الظاهريون فى المشرق . وبدأت مدن أخرى تشع الثقافة ، ففى الأندلس قامت مراكز علمية ، وفى القاهرة أنشئت جامعة باقية إلى اليوم : الأزهر .

التربية والتعليم

عاش العرب فى الجاهلية خاضعين للخرافات والأوهام ، عبدوا الأصنام ، ووكلوا إليها كل أمورهم ، كما لجأوا إلى الكهانة والعرافة لفض نزاعاتهم .

ويلوح أن القراءة لم تكن منتشرة فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام . ولذلك نجد القرآن الكريم قد حث الناس على القراءة وطلب العلم ؛ فقد نوه

فى مواطن كثيرة بمنزلة العلماء الرفيعة وأهمية العلم وطلبه ، فيقول الله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقال تعالى « وقل رب زدنى علماً » . ومن أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » ، وقوله « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ، وقوله أيضاً « لا خير فيمن كان من أمتى ليس بعالم ولا متعلم » وقوله كذلك « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد » .

وقد خرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، وفى الثانى جماعة يعلمون الناس فقال : « أما هؤلاء فيسألون الله فان شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلماً » . ثم عدل إليهم وجلس معهم .

وكان رسول الله عليه السلام يشيد دواماً بفضل المعلمين ومنزلة العلماء ومكانة العلم فهو قوام الدنيا وقوام الدين حيث قال « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم » وقال أيضاً : « الناس رجلان : عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » . وقال : « فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » . وقال عليه السلام : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » . وقال : « تعلموا العلم فان العلم لله حسنة ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله قربة » (١) .

كما أن الإسلام فى حرصه على التعليم لم يفرق بين الأبناء والبنات ، قال النبى عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وروى أن الرسول عليه السلام كان يطلق سراح الأسير المتعلم من الكفار إذا علم عشرة من المسلمين الأميين القراءة والكتابة . ويذكر عن الرسول عليه السلام

(١) محمد عطيه الابراشى : التربية الاسلامية . ص ٣٦ - ٣٧ .

أنه حث بعض أصحابه على تعلم لغة إلى جانب العربية . وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه لكميل : « يا كميل العلم خير من المال . العلم يحرسك وأنت تحرس المال . والعلم حاكم والمال محكوم عليه . والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق » . وقال أيضاً : « العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد » .

ومن أقوال الحكماء : (٢)

إذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء والطير فى الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره .

وقيل « كن عالماً أو متعلماً أو مستعلماً ولا تكن جاهلا فتهلك » .

وقيل : تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد . وتعليمه من لا يعلمه صدقه ، وبذله لأهله قربة وهو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة والدليل على الدين والمصبر على السراء والضراء ... والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة . يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدله فى الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة فى خلتهم . وبأجنحتها تمسحهم لأن العلم حياة القلوب ونور الأبصار ، به يبلغ الإنسان منازل الأبرار وبه يطاع الله عز وجل وبه يعبد وبه يوعد وبه يوحد وبه يمجد وبه توصل الأرحام ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء » .

وقال الأحنف : « كل عز لم يؤيد بعلم فالى ذل يصير » .

وقال الزبير بن أبي بكر : « كتب لى أبي بالعراق : عليك بالعلم فانك إن افتقرت كان لك مالا . وإن استغنيت كان لك جمالا » .

وقال ابن الحكم : « كنت عند مالك أقرأ عليه العلم ، فدخل الظهر ،

---

(١) المرجع السابق وأحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية . ص ٢٨٧ . جمعت من مصادر منها : ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢٦٥ — ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢ : ١٢٠ — الاصفهانى : محاضرات الادباء ١ : ١٦ — الغزالى : الاحياء ١ : ٦ — ٧ — الادب الصغير ص ٢٢ من وسائل البلغاء.

فجمعت الكتب لأصلى فقال : يا هذا ما الذى قمت إليه بأفضل مما أنت فيه»

وقيل لبعض الحكماء : « أى شىء تقتنى ؟ » قال : « الأشياء التى إذا غرقت سفينتك سبحت معك » . يعنى العلم .

وقال ابن المقفع : « العلم زين لصاحبه فى الرخاء ومنجاة له فى الشدة » .

وسئل عبد الله بن مبارك : « لو أن الله أوصى إليك : تموت العشية ، فماذا تصنع اليوم ؟ » فقال : « أقوم وأطلب العلم » .

وإذا كان العلم والتعليم قد حظى فى سنى الإسلام المتقدمة بالمكانة الرفيعة على يد النبى عليه السلام وصحابته وخلفائه ، فانه قد وجد عند خلفاء الأمويين والعباسيين استجابة لم تقتصر آثارها على المسلمين فحسب ، بل كانت لها أصداء عميقة الأثر فى العالم فيما بعد .

على أن التعليم فى هذا الوقت المبكر من تاريخ الإسلام قد اهتم قبل كل شىء بالقرآن ثم بالقراءة والكتابة ، ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل إلى الولاة من المسلمين قائلا : « أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » . وباتساع الأمصار الإسلامية وانتشارها بدأت تباشير نهضة تعليمية دعامتها فى بداية الأمر العلوم الدينية مثل القرآن والتفسير ورواية الحديث ثم استنباط الأحكام الفكرية والفتاوى الشرعية . ويغلب على الظن أن بداية الاهتمام بالعلوم العقلية أو الكونية كالطب والفلسفة والرياضيات كان فى عصر العباسيين ، فلم يعرف عن الأمويين اهتمام بمثل هذه العلوم . إذ يذكر ابن خلدون فى مقدمته عن أصناف العلوم التى كان المسلمون يتناولونها فى مجالسهم العملية فى صدر الإسلام وزمن حكم بنى أمية . فيقول : إنهم اهتموا بالعلوم النقلية ، وهى التى تتصل بالقرآن الكريم وهى التفسير والقراءات والحديث وأصول الفقه ، كما اهتموا بالعلوم اللسانية كعلم اللغة وعلم النحو وعلم البيان والأدب .

ويلوح أن العلوم العقلية كانت قليلة أيام الأمويين . وكانت العلوم النقلية نواتها القرآن والحديث . فمنها يستنبط الفقه ولأجلها يروى الشعر وتبحث

مسائل النحو . أما فى العصر العباسى فقد وجدت نواة أخرى تجمعت حولها العلوم الدنيوية ، وهى نواة الطب .. « فقد أسس النساطرة ، بمعاونة اليهود مدرسة للطب بجنديسابور ، وأيدهم الخلفاء العباسيون ، وقد كانت هذه المدرسة الطبية وارثة الطب اليونانى والفلسفة اليونانية فى الشرق ، وحول هذه الدراسة الطبية تكونت دراسة الطبيعة والكيمياء والهيئة ، بل والمنطق والإلهيات ، وكانت الثقافة الطبية تتطلب كل هذه الفروع ، وبرنامجها يسع كل هذه الأشياء ، كما نلاحظ هذا حتى فى فلاسفة المسلمين أمثال الفارابى وابن سينا ، فكلاهما طبيب فيلسوف .. من أجل هذا نرى نوعين من الدراسة فى هذا العصر : دراسة دينية حول القرآن والحديث ، ودراسة دنيوية حول الطب ، ولكل نوع مميزات خاصة ومنهج فى البحث خاص ، وإن أثر كل منهما فى الآخر وتأثر به (١) » .

ويعلل ابن خلدون ازدهار العلم فى العصر العباسى بما تمتع به العباسيون من سعة فى الدخل وترف أعطى الفرصة للجودة والكثرة ، فبعد أن كفى القوم أنفسهم من الضروريات وما زال لديهم فائض من الرزق اتجهوا إلى التجديد والتحسين فى صناعاتهم ، وإلى الإغداق على محبى العلم والعلماء . ولعل من أسباب التقدم العلمى فى العصر العباسى عنه أيام الأمويين والخلفاء الراشدين — أن الدولة الإسلامية تمكن لها فى الأرض استقرار متخذة بغداد عاصمة ، وهى متاخمة لبلاد فارس ذات الحضارة القديمة العتيدة . وقد نزح إليها وعاش فيها فرس شجعهم الخلفاء على العلم ، بل إن الولاة المسلمين فى الأرض التى كانت مهداً للاحتلال الرومانى لم يبخلوا على العلماء بمنحهم ، بل كان لهؤلاء الحرية التى يعشقها محب العلم . وقيل إن ضعف معدة أبى جعفر المنصور جعله يهتم كثيراً بالطب والبحث فيه فاستدعى أطباء مختلفين فى مللهم ونحلهم ، كما اهتم بالتنجيم لاعتقاده أن هناك صلة بين حركات النجوم وما يدور على الأرض (٢) .

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام - الجزء الثانى . ص ١١ - ١٢

(٢) المرجع السابق ص : ١٥

وقد أثر انتشار العلوم العقلية على المجتمع الإسلامي والتربيه فية من زاويتين

١ - طريقة البحث : فعلماء العلوم العقلية اعتمدوا على الرواية وصحة السند ، فهم يجمعون ما قاله السابقون ، وقد يرجحون قولا على قول ، ويكاد يقتصر عملهم على التحقق من صحة النقل ، ولم يحكموا كثيراً مقياس العقل ، بل كانوا لا يقبلون نقداً ولا يطبقون محاجة بالمنطق ، أما أصحاب العلوم العقلية من دارسي الطب والرياضة والطبيعة فقد ركنوا إلى معقولية الحقائق وامتحانها. متخذين إما سبيل المنطق وإما التجريب العملي . فهم يحكمون بالصواب أو الخطأ بعد فحص وتمحيص لا استناداً على اسم القائل أو المصدر . ولعل اختلاف طريقة البحث لم تقتصر على مجرد أسلوب الوصول إلى الحقيقة ، بل تعدتها إلى عداوة بين النقليين والعقليين ، فالنقليون - وأظهر من يمثلهم علماء الحديث - يتهمون العقليين بالزندقة والإلحاد ؛ والعقليون - وأظهر من يمثلهم علماء الكلام - يتهمون النقليين بالجمود والتزمت .

٢ - مع اتساع العلوم العقلية فى العصر العباسي وتشجيع الخلفاء للعلم والمتعلمين لم يعد العلم قاصراً على الأمور التي احتكرها رجال الدين . فطرق أبواب العلم - وخاصة فى العلوم العقلية التي تكونت حول الطب - أفراد كانت صلاتهم بالدين والتعمق فيه خفيفة . وجذبت هذه العلوم العقليـة الكثيرين الذين عملوا على التنقيب فى أعماق الثقافات المختلفة والتمتع بكنوزها . وكانت أسباب الاستقرار السياسي والرغد الاقتصادي مهيئة لهم كل الفرص الممكنة .

ومما هو جدير بالذكر أن اتساع صناعة الورق فى ذلك الوقت كانت من العوامل التي آزرت هذه النهضة العلمية (١) . فكان العرب قبل الإسلام وفى صدره يكتبون على الرق، وهو جلد جف ثم رق ، وفى اللخاف وهى حجارة بيض رقاق وكذلك فى عسب النخل، وهو الجريد الذى لا خوص عليه. ويكتبون أيضاً فى عظم أكتاف الإبل والغنم ، كما استخدم العرب القرطاس وهو ورق مصنوع من بردى مصر وانتشر فى ربوع الدولة الإسلامية المترامية . كما نشأت

---

(١) المرجع السابق ص: ٢٠ - ٢١

صناعة « الوراقة » التى كان أصحابها يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وقد ساعدت على انتشار الثقافة .

وإذا كانت المصادر التارخية تحدثنا عن حرية عند العلماء ، فهى أيضاً تلقى أضواء كثيرة على اتجاهات القصور نحو توجيه بعض العلوم نقلية وعقلية. فقد أثرت الهيئات الحاكمة على العلم تأثيراً كبيراً ، ولعل الموقف السياسى الداخلى كان يدفع الحكام إلى سلوك معين . فقد قامت الدولة العباسية على أنقاض دولة بنى أمية وكانت لها عظمة ليس من السهل إخلاء عقول الناس منها ، كما أن هناك الشيعة الذين يرون أن أحق الناس بالخلافة هم آل أبى طالب وأن آل العباس اغتصبوا الخلافة منهم . هذا إلى جانب مذاهب دينية فى الظاهر وسياسة فى الباطن كالخوارج والمرجئة .

ولهذا فقد تلون تدوين التاريخ بما يرضى السلطات الحاكمة ، كما اندفع الشعراء يبتغون رضا الخليفة بقصائد طويلة فى مدحه . حتى فى الفقه عمل بعض الفقهاء على التوسع فى الحيل الشرعية إرضاء لمطالب الخلفاء . وفى النحو واللغة تدخل العباسيون أيضاً . فعندما احتدم النزاع بين البصريين والكوفيين . أخذ العباسيون جانب الكوفيين .

على أن بعض العلوم لم يكن لها اتصال بالسياسة ، فلم تتأثر بها كعلوم الطب والرياضة والمنطق والطبيعة . ولا يضع المتكلمون عن هذا العصر مبدأ ثابتاً يصح على كل الكتاب والشعراء والعلماء ، فاذا كان السواد الأكبر من الأدباء والشعراء قد أطنب فى مديح الخلفاء العباسيين وذم الأمويين ، فانه كان هناك أيضاً من ذم العباسيين فى وقتهم وهجاهم ، كما أبدى بعض مؤرخيهم المعاصرين آراءهم فى حرية وإن كانت لا تطابق هوى فى نفوس الخلفاء العباسيين . بل إن استعراضاً لكتاب « مقالات الإسلاميين » لأبى الحسن الأشعرى . وكتاب « الملل والنحل » للشهرستانى ، وكتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادى ترينا آراء ومذاهب وأقوالا فى الإلهيات تسترعى الوقوف عندها لما فيها من جرأة فى
آراء ومذاهب وأقوالا فى الإلهيات تسترعى الوقوف عندها لما فيها من جرأة فى
الرأى . بل إن الحرية فى مزج فلسفة اليونان بالإسلام تسترعى الإعجاب لما

تتمتع به العلماء العقليون من حق فى إبداء الرأى . ويذكر أن المعتزلة كانوا ينقدون فى أحاديثهم وكتاباتهم أحداث التاريخ فى صدر الإسلام نقداً مريراً وصريحاً .

ومع ذلك فهناك شواهد تاريخية تثبت اضطهاد المخالفين فى الرأى ، بل قلما مات وزير إلا ميتة قتل وغيلة ، وقد طورد العلماء من المعتزلة واضطهدوا وعذبوا ، مما يجعلنا لا نستطيع أن نعطى حكماً قاطعاً على مدى الحرية فى الكلمة فى العصر العباسى .

ويلخص الأستاذ أحمد أمين الموقف فى نقطتين :

أولا : إن الخلفاء العباسيين الأولين — وبخاصة المنصور — وضعوا أسساً للدولة أهمها تنظيم الخلافة فى نفوس الناس ، وصبغ الخلافة صبغة دينية فيصبح الخليفة حامياً للدين وظل الله فى أرضه ، وفى يده كل سلطة . ولهذا فلم يسمح الخلفاء بما يؤدى إلى إضعاف شأن الملك . ويذكر عن المنصور قوله : « الملوك تحتمل كل شىء إلا ثلاث خلال : إفشاء السر ، والتعرض للحرم ، والقدح فى الملك » .

ثانياً : إن حرية الرأى ومداها كانت متصلة اتصالا كبيراً بمزاج الخليفة ، فيذكر عن المنصور أنه كان يظن الظنون فى كل ما يتصل بالملك والحكم ، ولكنه كان واسع الصدر فى كل ما يتصل بالعلوم . ورأى بعض الخلفاء فى العلوم العقلية زندقة ، فحارب واضطهد المشتغلين بها مسلمين كانوا أو نصارى أو يهوداً ، وقربوا إليهم أهل الحديث كما فعل الخليفة المتوكل .

والذى لا شك فيه باجماع المؤرخين أن حركة الترجمة بلغت ذروتها فى العصر العباسى ، كما أن التقدم العلمى سار بخطى سريعة ومطردة . وقد عمد بعض المؤرخين الغربيين أن يغضوا من قدر العرب وإنتاجهم فى عالم الفكر ، فادعوا أن ما جاء به العرب لم يكن فيه شىء مبتكر . ولم يكن العرب إلا مقلدين . وإذا سلمنا بأنه لا يكون ابتكار مخلوق من العدم فحرى بنا أن ننظر إلى مجهودات العرب نظرة عادلة . فلم يكتف العرب بنقل الفلسفة القديمة من

اليونانية إلى العربية فقط ، بل درسوا هذه الفلسفة وشرحوها . ثم هم أولئك الذين ثقفوا العالم الحديث بنتاج العالم القديم (١) . كما أنهم مزجوا بين الآراء اليونانية والآراء الهندية فى الرياضيات ، وعلى أرضهم صار النقاش والكتابة عن الشرق وإنتاجه الفكرى والغرب وما قدمه للبشرية . وبفضل العرب عرف الأوروبيون ما خلفه الإغريق والهنود والصينيون . وفتحوا أمام التفكير الأوروبى آفاقاً جديدة ، وأيقظوا العقل الغربى ليبدأ البحث ، وهزوه من نستسلامه الفكرى ليبدأ يناقش أموراً لم يشك فيها ولا فى صحتها ، وكان من يجة اللقاح الفكرى على يد العرب أن بدأت المدنية سيرها الحثيث نحو التقدم.

ويتحمس الدكتور فروخ (٢) لعبقرية العرب وأسسها ؛ فيتكلم عن الحرية العلمية قائلا : إنه بينما كان الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون يجادلون الخوارج والنصارى واليهود والصابئة والمجوس بالتى هى أحسن ، ويعقدون لهم المجالس للمناظرة ويدرون عليهم الأرزاق ، ويفتحون لهم أبواب معاهد العلم .. بينما كان هؤلاء يقفون هذا الموقف كان الذى يجسر على تبيان فضل العقل فى أوروبا يربط إلى سارية مركوزة فى نار متأججة ، أو تشد أطرافه الأربعة إلى أربعة جياد ينهال عليها الموكلون بها ضرباً بالسياط .

معاهد التعليم :

يقسم الدكتور أحمد شلبى أمكنة التعليم فى التربية الإسلامية إلى حقبتين : الأولى قبل انتشار المدارس ، والثانية بعد انتشارها . والحد الفاصل بينهما هو عام ٤٥٩ هـ وفيه افتتحت فى بغداد أول مدرسة من عديد من المدارس المنظمة التى أنشأها الوزير السلجوقى العظيم نظام الملك . فقبل انتشار المدارس تعلم المسلمون فى :

١ — الكتاب : وقد عرف فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام . وكان

---

(١) عمر فروخ : عبقرية العرب فى العلم والفلسفة ، ص ١٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠

لتعليم القراءة والكتابة . ويروى أن عدد القرشيين الذين كانوا يقرأون ويكتبون عندما جاء الإسلام لم يتجاوز سبعة عشر رجلا فقط . ويلوح أنه كان هناك نوعان من الكتاتيب ، نوع يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ، وكان يقوم بالتعليم بعض الذميين أحياناً كثيرة ، ولم يجلس لتعلم القراءة والكتابة من المسلمين فى صدر الإسلام إلا عدد قليل جداً . والنوع الثانى كان مكاناً يتعلم فيه صبية الكتاب القرآن الكريم والدين وأصبح يطلق على المكان الذى يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ، أو القرآن والدين اسم « الكتاب » . على أن الظاهر من الشواهد التاريخية أن كتاتيب حفظ القرآن لم تظهر فى العهد المبكر للإسلام ، فقد كان الأطفال يندسون بين الكبار فى مجالسهم وحلقاتهم بالمساجد ، وتلقى بعضهم القرآن من آبائهم وذويهم أو من مدرسين خصوصيين ولم تكن الكتاتيب فى المساجد . فقد نص على أنه : « لا يجوز تعليم الأطفال فى المسجد لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات ، بل يتخذون للتعليم حوانيت فى الدروب وأطراف السوق » . وقد لجأ بعض المدرسين — على الرغم من هذه التحذيرات — إلى اتخاذ زوايا من المساجد يعلمون بها . أو غرفاً ملحقة بالمساجد .

واختلف حجم الكتاب من حجرة واحدة إلى مكان متسع . فيروى ياقوت فى « معجم الأدباء » أن كتاب أبى قاسم البلخى كان به ٣٠٠٠ تلميذ . وكان فسيحاً جداً يتسع لهذا العدد . ولهذا احتاج البلخى أن يركب حمار ليتردد بين هؤلاء وأولئك ويشرف على جميع تلاميذه (١) .

وقد ازداد عدد الكتاتيب فى القرن الثانى الهجرى حتى أصبح بكل قرية كتاب ويذكر ابن خلدون فى مقدمته (٢) أن ما درسه الولدان اختلف من قطر إسلامى لقطر آخر ، ولكن يلوح أن الدراسة اشتملت على القرآن

(١) المرجع السابق ، ص : ٣٢

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٧ - ٢٦٨

وأحاديث الأخيار ، وبعض الأحكام الدينية ، والشعر ، ومبادىء الحساب ، وبعض من قواعد اللغة العربية ، هذا إلى جانب تعلم القراءة والكتابة والخط الذى كان له مدرسون مختصون . واستعمل الصبية الألواح فى الكتابة .

والظاهر أن مكانة الكتاب فى القرون الأولى الهجرية كانت عالية الشأن فهو بداية الطريق إلى تعليم أعلى . قال الإمام الشافعى — رضى الله عنه — «كنت يتيماً فى حجر أمى فدفعتنى فى الكتاب ... فلما ختمت القرآن دخلت المسجد لطلب العلم والتوسع فى الثقافة الدينية » .

ويروى أن الحجاج بن يوسف كان معلماً بأحد الكتاتيب يعلم الأطفال ويأجرونه خبزاً ، بينما كان عبد الله بن الحرث يعلم دون أن يأخذ أجراً .

هذا ، وقد أشار المقريزى إلى عدد من الكتاتيب التى كانت ملحقة بالمساجد فى مصر فى عهد المماليك لتعليم الفقراء واليتامى من الأطفال القرآن الكريم . ويؤخذ من هذا (١) : حرص المسلمين وتشجيعهم نشر التعليم ، كما أن الفقر أو اليتم لم يكن عقبة فى سبيل التعلم . فكلما كان الأغنياء والقادرون يتعلمون كان الفقراء يجدون الفرصة فى التعلم وحفظ القرآن وطلب العلم .

وما يذكر بالإجلال والتكريم تسابق بعض المسلمين لفتح الكتاتيب لتعليم الأطفال ابتغاء التقرب إلى الله ونشر التعليم .

ويذكر أن معاملة المعلمين للأطفال اتسمت بالعدالة والمساواة دون تمييز البعض على البعض الآخر . بل لم توجد ما نعهده اليوم بالمدارس الخاصة أو المميزة لأبناء الأغنياء أو ميسورى الحال . فقد جلس الأطفال متجاورين تظللهم الرغبة فى التعلم . والظاهر أن الحجرة التى كان الأطفال يدرسون بها ضمت أكثر من مستوى تعليمى ، وكانت مهمة المعلم — والحال هكذا — ليست سهلة . وما أشبه هذا — إلى حد — بما يطلق عليه اليوم اسم « المدرسة ذات الصف الواحد أو الفصل الواحد » . وكان هذا سارياً فى بعض الكتاتيب وليس فى كلها .

---

(١) محمد عطية الإبراشى : التربية الاسلامية : ص : ٥٥

ولنا أن نعمل الخيال — حيث المصادر غير كافية — لتصور طرائق التعليم ومعالجة تنوع المستويات . ويغلب الظن أن المعلم درس كما تعلم ، وأن التجربة فى التعليم ونجاح محاولة ما وفشل محاولة أخرى أنارت شيئاً من الهداية للمعلم لكيفية التعليم . وشك قليل يساور الكاتب فى أن نجاحاً تحقق بالفعل باتباع أساليب تعليمية أتت أكلها ، نبعت وازدهرت من الواقع التربوى فى الكتاتيب فى العصور الوسطى .

٢ — القصور : وكان الخلفاء والأمراء والأغنياء يتخذون لأولادهم معلمين خاصين يذهبون إلى القصور ويجلس الأولاد إليهم يتلقون منهم قدراً من الثقافة والمعرفة . وكان الوالد يشترك فى تخطيط وتحديد ما يتعلمه ابنه من معلمه الخاص ، وقد أطلق على هذا المعلم اسم « مؤدب » ، وكان بعضهم يقيم فى القصور حيث أعد جناح للإقامة حتى يتم إشرافهم على تربية الولد .

ويذكر أن المتنبى كان يلقى شعره شادياً فى قصر سيف الدولة الحمدانى : والظاهر أن كرم سيف الدولة ألف حوله قلوب أدباء عصره وعلمائه فهرعوا إليه فى حلب حيث اتخذها قصبته . ويذكر أيضاً أن الكثيرين من الخلفاء والأمراء اتخذوا من قصورهم مجالس للأدب والعلم ، وعقدوا بها الندوات حيث دارت المناقشات والمساجلات والمناظرات ، ومن هؤلاء المعتضد بالله فى بغداد حيث ضم قصره دوراً ومساكن ومقصورات لسكن العلماء ودراستهم وأجرى عليهم وأجزل . وكذلك فعل خيراً بأهل العلم والحكمة معاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان وغيرهم كثيرون :

٣ — المسجد : لم يختلف المسلمون عن غيرهم فى الباعث على إنشاء المساجد ، فقد أقامها الناس لأغراض دينية ، لهذا استعملوا أماكن العبادة كالكنائس والأديرة والهياكل والمعابد للتدريس ، كما قام رجال الدين بتعليم الأولاد . وهذا ما فعله المسلمون ، فلم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب ، بل كان محكمة للتقاضى ومكاناً للدراسة ، بل كان أيضاً ميداناً لاجتماع الجيش الباسل ، وداراً لاستقبال السفراء . وقد سمى المسجد « بيت الله » فلا يحتاج

الداخل إلى استئناس ولا إلى استئذان للدخول سواء كان ذلك للدراسة أو للتعبد . ويلوح أن المسلمين قد تأثروا بالعرب قبل الإسلام ، وكان لهؤلاء متعبدهم المقدس وهو (البيت الحرام) حيث أقام فيه عبدة الأصنام أصنامهم على اختلافها . وبعد أن أبعد المسلمون عن مكة وخرج النبي عليه السلام مهاجراً إلى المدينة أقام فى « قباء » مسجداً هو أول مسجد فى الإسلام ، ثم بنى الرسول عليه السلام إثر دخوله المدينة مسجده بالمربد ، وكان يجلس فيه يعلم أصحابه دينهم ودنياهم .

وصار المسلمون يبنون فى كل مدينة مسجداً ، وعلت المآذن فى مختلف الأمصار ، فى المدن والقرى . ولعل أول جامع بنى فى مصر هو جامع عمرو بن العاص الذى بنى فى العام الحادى والثلاثين من الهجرة بأمر من عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ، وظل هذا المسجد ينمو حتى أصبح مركزاً للثقافة ومحكمة للقضاء . وكان به أكثر من أربعين حلقة دراسية للتعليم يؤمها الطلبة للدراسة والبحث ، ومنها حلقة الإمام الشافعى (١) . ثم أسس أحمد بن طولون جامعه بالقطائع عام ٢٦٥ هـ ، وجاء هذا الجامع بعد جامع العسكر شمالى الفسطاط ، وانتقلت صلاة الجمعة من العسكر إلى جامع ابن طولون ، وفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) بنى جوهر الصقلى الجامع الأزهر الذى أصبح من الجامعات الأولى فى العالم الإسلامى (٢) .

ومن المساجد ذات الشهرة الذائعة « جامع المنصور ببغداد» وقد بناه أبو جعفر المنصور وجدده هارون الرشيد وأضاف إليه ودعمه . وقد وفد إلى جامع المنصور خلق غفير من الأساتذة والطلبة ، ولعل من أشهر من جلسوا للقراءة فى هذا الجامع الكسائى ، فقد قرأ فيه علوم اللغة .

أما الجامع الأموى بدمشق فهو من عجائب الدنيا ، ويقال إن الوليد

---

(١) محمد عطيه الابراشى : التربية الإسلامية . ص : ٥ .

(٢) التعليم فى الأزهر سوف يأتى فيما بعد فى معرض الحديث عن التعليم فى مصر الإسلامية .

بن عبد الملك أنفق على بنائه خراج المملكة سبع سنوات . وكانت فيه حلقات للتدريس للطلبة ، كما كان للمالكية زاوية للتدريس يجتمع فيها طلبة المغاربة ، كما كانت به مدرسة للشافعية . واشتمل أيضاً على عدة زوايا خصصت للطلبة للدرس والنسخ فى هدوء .

٤ — حوانيت الوراقين : مع انتشار الورق من منتجات مصر فى ربوع الدولة الإسلامية كثرت الكتب وتفنن العرب فى تجليدها وتجميعها ، وظهرت مكتبات وحوانيت للوراقين . على أن هذه المكتبات والحوانيت لم يقتصر على بيع الكتب والتجارة ، بل كانت أمكنة يجتمع فيها الأدباء والمتكلمون ... وتتحول مناقشاتهم إلى ندوات ومناظرات ، وغالباً ما كان أصحاب هذه الحوانيت من المهتمين بالأدب والعلم والدين ، ومنهم من تفقهوا فكانوا يجذبون إليهم محبي العلم والمعرفة . ويذكر أن الجاحظ كان يبيت بهذه الحوانيت للقراءة والاطلاع والبحث .

٥ — منازل العلماء : اتخذ رسول الله عليه السلام دار الأرقم بن أبي الأرقم مكاناً يعلم فيه المسلمين تعاليم ومبادىء الدين الجديد . ويقرئهم ما نزل من آيات الذكر الحكيم ، كما كان المنزل ملتقى الذين يتخيرون الإسلام ديناً فيأتون إليه ناشدين الإسلام . ثم أقيمت المساجد وأصبحت مكان اللقاء والاجتماع . على أن بيوتاً كثيرة فى التاريخ الإسلامى لعبت دور المدارس كمنزل الرئيس ابن سينا حيث كان يجلس إلى طلبته ومحبي علمه الغزير ليلا . كما كان الإمام الغزالى يستقبل تلاميذه بداره بعد أن استقال من العمل بنظامية نيسابور .

المدارس

حفلت المساجد بحلقات الدرس والمناقشة كما أسلفت القول . مما كان يؤذى بعض المصلين الذين تطرق آذانهم أصوات المناقشات العالية الحامية الوطيس . ومع اتساع رقعة العلم كان لابد من تخصيص أمكنة ملائمة يجد فيها المعلمون مجالات أوسع للنقاش والبحث والمجادلة . بل إن المعلمين أنفسهم

الذين شغلوا بالتعلم حين وقتهم حاولوا الارتزاق باحتراف حرفة بسيطة ، لما فشلوا تطلعوا إلى المدارس عسى أن يكون وجودها ضامناً لهم في جرايات تقوم بحاجاتهم (١) .

وتختلف المدارس عن المساجد . ففي كل مدرسة إيوان وهو يقابل قاعة لمحاضرات اليوم ، ويلحق بالمدرسة مساكن للطلبة ومرافق أخرى وقاعة للطعام

ويغلب أن المدارس لم تعرف في عهد الصحابة والتابعين ، ولم تنشأ إلا في نهاية القرن الرابع الهجرى ، وأن أهل نيسابور هم أول من بنوا مدرسة في الإسلام وسموها المدرسة البيهقية . والظاهر أنه كان لكل مدرسة أوقاف يصرف منها على الأساتذه و الطلبة ، والدين هو الغالب على مناهج المدارس . ال كانت كل مدرسة تدرس على مذهب من المذاهب الأربعة : أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل . وكانت الظروف السياسية تدعو إلى ذلك فقد قامت على أنقاض البويهيين والفاطميين (وهما من أنصار الشيعة) دولتا السلاجقة والأيوبيين وهم من أهل السنة . ولذلك أقام السلاجقة والأيوبيون مدارس لتقاوم ما غرسه أهل الشيعة من عقائد يرفضها أهل السنة . فأقام السلاجقة مدارس بالعراق واقتفى أثرهم الشاهات والأتابك الذين أقاموا إمارات على أنقاض السلاجقة ، ولما آل الأمر إلى نور الدين زنكى في سوريا ومصر أنشأ بهما المدارس ، كما اتجه الأيوبيون في مصر إلى عقول الناس لغرس المذهب السني ؛ فأقاموا عديداً من المدارس .

وأهم المدارس التي ظهرت في التاريخ الإسلامى :

١ — المدرسة النظامية ببغداد : يذكر السبكى أن نظام الملك (وكان الوزير نظام الملك هو السلطان الحقيقى للدولة الأولى للسلاجقة) أنشأ مدرسة عظيمة في عديد من البلاد منها بغداد وبلخ وأصفهان والبصرة والموصل . على

---

(١) Khuda Bukhsh : Islamic Civilization, p. 285. في: أحمد شلبي (المرجع الأسبق) ص : ٩٧

أن نظامية بغداد أكانت على وأهم المدارس النظامية ، وقد أنشئت عام ٤٥٩ هـ وقد تم بناؤها فى سنتين .

٢ — المدرسة الناصرية بالقاهرة : ولم تنشأ بالقاهرة مدارس نظامية إلا فى عهد الأيوبيين . أما المدرسة الناصرية فقد بدأ بناءها السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصورى وأتمها السلطان محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ . وقد وصفها المقريزى بأنها من أجمل مبانى القاهرة وبأنها من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم

٣ — المدرسة النورية الكبرى : وهى فى دمشق ، وتنسب إلى نور الدين محمود زنكى الذى بناها سنة ٥٦٣ هـ على مساحة حوالى ١٥٠٠ متر مربع ؛ وهذه المدرسة مازالت باقية الآن بحى الخياطين بدمشق ، وبابها الحالى هو بابها القديم (١) :

المكتبات .

روى المؤرخون عن مكتبات فى معظم المساجد والجوامع والمدارس ودور الحكمة ودور العلم لتكون مرجعاً للطلبة والعلماء والنساخ . وإذا أخذ بتقديرات المؤرخين فاننا نعجب للعدد الضخم الذى يسوقه المقريزى عن خزانة الكتب التى ألحقت بالمدرسة الفاضلية ، فهو يقدر الكتب بها بمائة ألف كتاب . ويذكر ياقوت أنه كان فى مدينة واحدة من مدن خراسان عشر دف الكتب منظمة وتشتمل إحداها على ١٢,٠٠٠ مجلد .

ولعل هذه الأقوال وغيرها تدل على تقدير المسلمين للكتب وإعجابهم بها واهتمامهم بالمكتبات وإقبالهم عليها وعلى تكوينها . بل وتسابق الخلفاء والأمراء على شراء الكتب ، فيقال إن الحكم صاحب الأندلس كان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ، ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه . ويروى عنه أنه عندما سمع أن أبا فرج الأصفهانى كتب كتابه « الأغانى » أرسل إليه ألف دينار ذهباً ليبعث إليه بنسخة وصلت الأندلس قبل أن يخرجه الأصفهانى فى العراق . وبلغ اهتمام

---

(١) محمد عطية الابراشى : المرجع السابق ، ص ٧٣

الناس من غير المثقفين بالكتب أنه روى عن حرص بعض الأندلسيين على اقتناء للكتب بمنازلهم لما تضفيه من جمال على المنزل وكمال وإجلال على صاحب الدار .

وقد عنى المسلمون بالمكتبات . وكانت عندهم منها ثلاثة أنواع : مكتبات عامة ، ومكتبات بين العامة و الخاصة ، ومكتبات خاصة . أما عن المكتبات العامة فقد كانت فى أبنية جميلة ، حيث كانت تستقبل جمهور المطلعين والباحثين وكان بها حجر متعددة تربط بينها أروقة فسيحة . وثبتت الرفوف بجوار الجدران لتوضع عليها الكتب . وقد خصصت الأروقة للاطلاع وبعض الحجرات للنسخ ، والبعض للاجتماعات . وقد أثثت هذه المكتبات بأثاث فخم وفرشت أرضها بالبسط والحصر حيث كان يجلس المطلعون . ويروى أن راحة المطلعين والباحثين كانت محل اهتمام أولى الأمر ، فقد أقاموا ستائر على النوافذ والأبواب ، ونظمت الكتب على الرفوف مع كتابة اسم الكتاب ومؤلفه على أطراف الصفحات مجتمعة من أسفل وتجعل رؤس الحروف تجاه جلدة بدء الكتاب .وكان بالمكتبات العامة فهارس منظمة على حسب موضوعات الكتب ، كما كانت تلصق على جانب كل دولاب ورقة بها أسماء الكتب التى فيه . وقد سمح بالاستعارة الخارجية ولكن تحت قيود شديدة ، وكثيراً ما كان المستعير يدفع ضماناً ، أما أفاضل الناس والعلماء فقد أعفوا منها .

وكان يعمل بالمكتبات العامة موظفون يرأسهم الخازن ، وهو أمين المكتبة. وكان من أصحاب العلم والمكانة ، ثم المترجمون ، والنساخ ، والمجلدون ، والمناولون وهم الذين يرشدون القراء إلى موضع الكتب على الرفوف ، أو إحضار الكتب لهم من أمكنتها إلى حجرات المطالعة . وقد أطلق على المناولين اسم الخدم لأنهم يخدمون القراء تمييزاً لهم عن الفراشين الذين يقومون على تنظيف فراش وأثاث المكتبة .

ومن أهم المكتبات العامة :

١ — خزانة الحكمة أو بيت الحكمة : وقد أسسه هارون الرشيد ببغداد ، ولكن الغموض يكتنفه ، فالمعلومات عنه قليلة ، فن قائل إنه كان مكتبة فقط. أو مكتبة ومعهداً ومرصداً ، وشك فى أن الرشيد أقامه ، وإنما بناه المأمون ؛ ويعد بيت الحكمة أول مكتبة عامة لها شأن كبير فى العالم الإسلامى ، حيث كان يجتمع فيه فى زمن المأمون صفوة من العلماء والأدباء ، ويحج إليه طالبو العلم والمعرفة . كما أرسل المأمون بعثة إلى القسطنطينية فيها صاحب بيت الحكمة لجلب الكتب اليونانية من طبية وفلسفية . وكلمة خزانة تشير إلى الموضع الذى يخزن فيه الشىء ، فخزانة الكتب عند العباسيين الأوائل أشارت إلى موضع حفظ الكتب.وتسميتها ببيت الحكمة تشير إلى المكان الذى تحفظ فيه الكتب أيضاً كبيت المال حيث يحفظ المال . أما تسميتها بالحكمة ففيها إشارة إلى الفلسفة حيث قل عدد الكتب الدينية بها وزاد عدد الكتب التى عنى بنقلها من الأمم الأخرى وأكثرها فلسفة أو حكمة .

وفى بيت الحكمة نسخت كتب كثيرة وترجمت مؤلفات من لغات أجنبية ويكفى للدلالة على ازدهار الترجمة أنه كان بهذه المكتبة رئيس للمترجمين ومساعدون له .

وعندما استولى المغول وكبيرهم (هولاكو) على بغداد عام ٦٥٦ هـ ، وأعملوا فيها القتل والحرق والسلب ، ذهبت هذه المكتبة الهائلة وضاعت آثارها

٢ — دار الحكمة بالقاهرة : وقد أمر الحاكم بأمر الله الفاطمى بانشائها سنة ٣٩٥ هـ ، وأراد لها أن تكون أفضل من بيت الحكمة ببغداد . وقد حملت الكتب إلى دار الحكمة من خزائن القصور ومن مصادر متعددة ، فكانت فيها كتب نفيسة ومخطوطات نادرة فى الدين والآداب والعلوم بفروعها المتعددة . كما أمدها الحاكم بأمر الله بكل مستلزمات الناسخين من أقلام ومحابر وورق . وأقيم لها قوام وخدام وفراشون وغيرهم رسموا لخدمتها . وكانت دار الحكمة تزخر دائماً بالفقهاء والقراء والنحاة والمنجمين والأطباء . ويذكر أن الحاكم أجرى عليها من الأرزاق السنية ما حقق حياة هنيئة للخدام والفراشين ، كما أمر

بفتح أبوابها لمن يشاء الاستفادة مما فيها من كنوز علمية سواء فى بطون الكتب أو من المناقشات والمحاورات والمحاضرات التى استمرت منذ أن فتحت دار الحكمة . وقد وصفها المقريزى (١) قائلا إنها كانت من عجائب الدنيا ، وإنه لم يكن يبزها فى الأمصار الإسلامية دار كتب . كما أنها حوت مليوناً وستمائة ألف كتاب ، وفيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة .

وكم يؤلم أن يذكر المؤرخون أن بعض هذه الكتب وكان الخط فيها محلى بماء الذهب والفضة ذهب عنوة إلى الجند الأتراك مقابل رواتبهم المتأخرة زمن المستنصر بالله ، بل إن بعض الكتب اتخذ العبيد والإماء من جلودها نعالا وأحذية .

واستمرت دار الحكمة فى عملها إلى أن هدمها صلاح الدين الأيوبى وأقام مكانها مدرسة للشافعية (٢) :

وهناك مكتبات عامة أخرى مثل المدرسة الحيدرية بالنجف بالعراق ، وسميت بالحيدرية نسبة إلى حيدر وهو إسم الإمام على بن أبى طالب ، وهو الذى يهتف به الشيعة فى مناساتهم الدينية . ولا تزال المكتبة موجودة إلى اليوم ، ويذكر المؤرخون أيضاً من المكتبات العامة مكتبة (ابن سوار) بالبصرة أسسها أحد رجال عضد الدولة ، وكان يؤدى فيها تدريس بجوار الكتب . كما أنشأ سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة لخزانة سابور بالكرخ عام ٣٨٣ هـ ، وكان بها حوالى عشرة آلاف وأربعمائة مجلد ، وكانت مركزاً ثقافياً ممتازاً : هذا إلى جانب مكتبات المدارس وكان أشهرها مكتبة المدرسة النظامية ببغداد :

والنوع الثانى من المكتبات يطلق عليه مكتبات بين العامة والخاصة ، لم يسمح بالدخول فيها لكل الناس ، ولم تكن خاصة ؛ لأن الذين أقاموها لم يقصدوا أن تكون لهم وحدهم . وقد أنشأ هذه المكتبات الخلفاء والملوك

(١) المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . الجزء الثانى — ص ٢٥٥

(٢) أحمد شلبى : المرجع الأسبق . ١٧٩

والأمراء ، لا لحب فى الاطلاع والتحصيل ولكن تظاهراً أمام الناس . ومن هذه المكتبات مكتبة الناصر لدين الله ومكتبة المعتصم بالله .

والنوع الثالث من المكتبات هو المكتبات الخاصة ، وقد أنشأها العلماء والأدباء لاطلاعهم الخاص . وقد كثر عدد هذه المكتبات . فكان من الصعب أن نجد عالماً أو أديباً لا يقتنى فى بيته مكتبة تزخر بالكتب .

والنوع الرابع مكتبات المشافى (١) .

فن مآثر الإسلام الكبرى عنايته بالمرضى واهتمامه بعلاجهم وإيجاد الأماكن اللازمة لمعالجتهم وتطبيبهم وقد اهتم أوائل الخلفاء بهذه النواحى . فنقرأ فى كتب التاريخ أن الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك اهتم بالمرضى فعزل المجذومين فى أماكن خاصة وأوقف عليهم من يهتم بهم ، كذلك عين لكل أعمى قائداً يهديه السبيل إلى غير ذلك من الاخبار ، ومع تقدم الزمان ورقى الحضارة واستجار العمران أنشئت المشافى ، وقد استعمل المسلمون لها الكلمة الفارسية مارستان أو بيمارستان وتعنى بيت المرضى (٢) ، وقد أنشأ الخلفاء والحكام المشافى فى طول البلاد وعرضها ، فقد أوجد عضد الدولة البويهى فى القرن الرابع الهجرى مارستاناً فى بغداد سمي باسمه فظل فترة طويلة يستقبل المرضى ويهتم بهم ، كذلك أنشأ نور الدين الشهيد فى دمشق فى القرن السادس الهجرى بهذه المشافى مكتبات حافلة تضم ثمرات العقول لأن المستشفى لم يكن مكاناً للتطبيب والتمريض فحسب ، وإنما كان أيضاً مكاناً لتعليم طلاب الطب الأمراض وطرق معالجتها فكان مكاناً للتدريب العملى ومكاناً للدراسة النظرية ، والمشافى التى عندنا أخبار عن مكتباتها هى البيمارستان العضدى فقد ألحقت به مكتبة ضخمة كانت مصدراً أساسياً للطلاب والأساتذة على السواء ، وكذلك كانت الحال فى المارستان النورى فى دمشق ، ذلك أن نور الدين الذى حكم قسماً من العراق وسوريا ومصر عمر بيمارستاناً فى دمشق وأطلق عليه اسمه ،

(١) من محمد ماهر حماده : المكتبات فى الإسلام : ص : ٤٤ - ١٤٧ ، ١٩٠ - ١٩٧

(٢) كانت البيمارستانات تستشفى جميع الأمراض الجسمية والعقلية للرجال والنساء ويروى المقريزى أن أول من بنى البيمارستانات فى الاسلام الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ .

فلما عمر البيمارستان جعل أمر الطب فيه إلى الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠ هـ . وكان يعود على المرضى فيه . وكان يعتبر أحوالهم وبين يديه المشارفون والخدام للمرضى ، وكل ما يكتبه للمرضى لا يؤخر عنهم ، فاذا فرغ من ذلك طلع القلعة وافتقد مرضى السلطان وغيرهم وعاد إلى البيمارستان وجلس فى الإيوان الكبير ، وجميع الإيوان مفروش . ويحضر كتب الأشغال ، وكان نور الدين قد أوقف جملة كثيرة من الكتب الطبية ، وكانت فى الخزانتين اللتين فى صدر الايوان ، وكان جماعة الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويجلسون بين يديه ، ثم تجرى مباحث طبية وتقرأ التلاميذ ولا يزال معهم فى أشغال ونظر فى الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب بعد ذلك كله إلى داره بدمشق .

كذلك يورد المقريزى ذكر مكتبة ملحقة بالمارستان المنصورى فى القاهرة فى زمانه (١) . وقد بلغت بعض المكتبات الملحقة بالمشافى حداً ضخماً ، فقد ذكر أن عدد الكتب التى وجدت فى مستشفى قلاوون فى القاهرة حوالى مائة ألف مجلد أخذت أغلبها من دار الحكمة فى القاهرة (٢) .

أنواع أخرى من المكتبات :

هناك أنواع أخرى من المكتبات أقل شهرة وأقل أهمية وذيوعاً مما ذكرنا من المكتبات ، منها المكتبات التى كانت تلحق بالترب والمقابر ، ذلك أن العادة جرت أن يلحق بقبور العظماء والملوك والأغنياء مكان لقراءة القرآن بشكل شبه متصل وأن تلحق به مكتبة صغيرة فيها بعض الكتب الدينية ، وإن كان بعضها قد بلغ حداً من الفخامة لا بأس به . كذلك كان هناك مكتبات فى الخانقاه ، وبعضها مهم حتى أننا نجد ياقوت الحموى يذكر مكتبة كبرى

---

(١) المقريزى . الخطط المقريزيه ، ج ٣ ، ص ٣٢٣

(٢) فنسك . (محرر) دائرة المعارف الاسلاميه . ليدن ، بريل ١٩٠٩ — ١٩٣٨ م ، ج ٢ ، ص ٣٦١

فى مرو فى خانقاه هناك (١) . وقد اعتاد بعض الحكام أن ينقلوا معهم بعض الكتب التى يحتاجونها أثناء سفرهم ، وقد ذكرنا سابقاً قصة الصاحب بن عباد وكيف أنه كان يصطحب معه أثناء سفره من الكتب ما حمولته عشرة جمال فلما صدر كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى استغنى عن ذلك اكتفاء بكتاب الأغانى ، وقد اعتاد بعض حكام المغرب الأقصى (مراكش) فى العصور المتأخرة أن يصطحب معه مكتبة متنقلة أثناء سفره فقد ورد ذكر مثل هذه المكتبة فى كتاب أحكام القرآن لأبى بكر محمد بن عبد الله المعافرى بن عربى ... يروى المؤلف ... خبرنى الشيخ الصالح يوسف الحزام المغربى بالإسكندرية فى سنة ستين وسبعمائة قال رأيت تأليف القاضى أبى بكر بن العربى فى تفسير القرآن المسمى أنوار الفجر كاملا فى خزانة السلطان الملك العادل أمير المسلمين أبى عنان فارس ابن السلطان أمير المسلمين أبى الحسن على ابن السلطان أمير المسلمين أبى سعيد عثمان بن يوسف بن عبد الله ، وكان السلطان أبو عنان آنذاك بمدينة مراكش ، وكانت له خزانة كتب يحملها معه فى الأسفار وكنت أخدمه مع جماعة فى حزم الكتب ورفعها فعددت أسفارها فبلغت عدتها ثمانين مجلداً لم ينقص من الكتاب المذكور شىء (٢) .

نستطيع أن نشبه هذه المكتبات بالمكتبات المتنقلة التى انتشر استعمالها فى بلاد الغرب ، مع شىء من التجوز ، إذ أن الأولى خاصة بالملوك والكبراء على حين أن مهمة الثانية خدمة أفراد الشعب البعيدين عن مراكز المكتبات الكبرى والعامة .

لقد شط بنا القلم قليلا فى هذا الفصل وفى الفصل السابق ولكن شفيعنا فى ذلك وفرة المواد وتنوع الموضوعات وتعدد النماذج مما اضطرنا إلى هذا التوسع الذى نرجو أن يجد فيه القارىء فائدة ومتعة .

---

(١) ياقوت الحموى . معجم البلدان : ج ٨ . ص ٣٦

(٢) أبو بكر المعافرى ، محمد بن عبد الله بن عربى . أحكام القرآن . القاهرة ، الطبعة السعادة ، ١٣٣١ . المقدمة ص أ — ب

استعمال المكتبات للبحث والاستفادة من محتوياتها :

لم تكن المكتبات فى الإسلام موجودة لمجرد الزينة أو للتباهى والتفاخر أو لقطع الوقت وتزجية الفراغ أو إرضاء لهواية جمع الكتب ، بل كانت لغاية أسمى من ذلك بكثير ، فقد كانت مكاناً لتثقيف الشعب ككل ومكاناً للبحث والدرس والتأليف والتمحيص بشكل خاص . وأن النشاط الهائل الذى أظهره علماء الإسلام وأدباؤه عائد بالدرجة الأولى إلى حسن استخدامهم المواد التى توفرت لديهم فى مكتباتهم ، فالمأمون الذكى الطلعة استفاد فائدة كبرى من مطالعاته فى مكتباته واشتهر بالعلم والذكاء لكثرة ما قرأ وبحث وكذلك الجاحظ العالم الموسوعى الذى جمع فأوعى وألف المؤلفات العظيمة استفاد كل الفائدة من المكتبات ومن دكاكين الوراقين ، وكانت مؤلفاته ثمرة مبيته الليالى الطوال فى دكاكين الوراقين يطالع ويدرس . وإن كتاب « الفهرست » لابن النديم كان ثمرة لاشتغال مؤلفه النشيط بالوراقة والنسخ والأمور المكتبية ، ويستطيع المرء أن يتخيل مقدار الخسارة التى كانت من الممكن أن تلحق بالتراث الإسلامى لو فقد هذا الكتاب ، ذلك أن هذا الكتاب حوى معلومات عن الكتب والمؤلفين والنقل والتعريب ليست موجودة فى غيره من الكتب وكل من أتى بعده نقل عنه واعتمد عليه وهو مدين له فى هذه الناحية .

هذا وأن فيلسوفنا العظيم وطبيبنا النطاسى ابن سينا مدين بعلمه وكتبه ومؤلفاته إلى مطالعاته وحسن استفادته من محتويات مكتبة السلطان نوح بن منصور السامانى التى اطلع عليها وحده وهو فى إبان تفتحه وأوان نضجه ، والتى يصفها بأنها تحوى من الكتب ما لم يصل اسمه إلى كثير من الناس .

كذلك استفاد المؤرخ الكبير ابن مسكويه من كونه خازناً لمكتبتين من أشهر مكتبات عصره وهما مكتبة عضد الدولة البويهى ومكتبة ابن العميد فاستمد مادة كتبه فى التاريخ والأخلاق منهما .

حتى الحكام والخلفاء الأذكياء الذين أحبوا الكتب وجمعوها بالألوف واعتنوا بها وأنفقوا عليها قسماً كبيراً من أموالهم أحسنوا الاستفادة من كتبهم ومكتباتهم ، فهذا هو الحكم الثانى خليفة قرطبة ولعله أعلم خليفة فى الإسلام يصفه صاحب نفح الطيب ويصف استفادته من كتبه بقوله « وكان ذا غرام بها (بالكتب) فقد آثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته . وذكر فى مكان آخر « وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أى فن كان ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن .

بل إن ملوك الطوائف فى الأندلس كالمظفر بن الأفطس استفادوا من مجموعاتهم إلى الحد الذى جعلهم مؤلفين حقيقيين ، فقد ألف هذا الملك « الكتاب المظفرى » فى خمسين مجلداً يشتمل على فنون وعلوم ومغاز وسير ومثل وخبر وجميع ما يختص به علم الأدب . فهو بهذا المعنى دائرة معارف أدبية حقيقية .

ولقد استفاد ياقوت الحموى من مكتبات مرو العشر التى ذكرها استفادة جلى ، وهو نفسه اعترف بذلك بقوله « فكنت أرتع فيها واقتبس من فوائدها وأنسانى حبها كل بلد وألهانى عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب (يقصد معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن » .

كذلك أحسن ابن القوطى استخدام المواد التى وجدها تحت تصرفه فى مكتبتى الرصد فى مراغة والمدرسة المستنصرية فى بغداد ، ذلك أنه أمضى شطراً كبيراً جداً من حياته خازناً وأميناً لأكبر مكتبتين علميتين على عهده ، وكان ذا ذكاء مفرط فقرأ ما شاء ونقل ما أراد ، وكانت المكتبتان غاصتين بالكتب النفيسة النادرة فى جميع المواضيع من تاريخ وسير وألقاب وأنساب وفقه وحديث وأخبار وأدب وشعر ولغة وتصوف وحكمة وطب وما وراء الطبيعة .. فاستطاع ، مع وجود هذه المصادر وفى مثل هذا الجو العلمى الذى وجد به أن يؤلف عدداً من المؤلفات القيمة .

وأما ابن خلكان فهو نفسه يعترف بأنه تمكن من تأليف كتابه القيم « وفيات الأعيان » بعد أن امتص المعلومات الموجودة فى كتب معينة كان يهدف من زمن بعيد إلى مطالعتها « فلما وصلت إلى القاهرة صادفت فيها كتباً كنت أوثر الوقوف عليها ، وما كنت أتفرغ لها ؛ فلما صرت أفرغ من حجام ساباط بعد أن كنت أشغل من ذات النحيين كما يقال فى هذين المثلين طالعت تلك الكتب وأخذت منها حاجتى ثم قصدت لاتمام هذا الكتاب (كتاب وفيات الأعيان) حتى كمل على هذه الصورة » .(١)

على أنه وجد بعض المؤلفين الذين كانوا يسيئون استعمال المكتبات وكتب الآخرين . فأحمد بن على الخطيب يتهم بأنه ألف أغلب كتبه ما عدا التاريخ استناداً على أعمال كان غيره قد بدأ بها ولم يتمها فحصلت له وتممها هو ونسبها إلى نفسه ، يقول ياقوت « سمعت أبا الحسن بن الطيورى ببغداد يقول : « أكثر كتب الخطيب سوى التاريخ مستفادة من كتب الصورى . كان الصورى بدأ بها ولم يتممها ، وكانت للصورى أخت بصور فمات وخلف عندها إثنى عشر عدلا مخروماً من الكتب فلما خرج الخطيب إلى الشام حصل من كتبه ما صنف به كتبه » (٢) .

المعلمون :

هناك مجموعة من الاتجاهات اتبعها المسلمون والعرب عامة فيما يختص بالمعلمين ، فقد سار الاعتقاد أن خير العلم ما جاء عن طريق المعلمين والعلماء والاحتكاك بهم ، ولم يعطوا العلم فى باطن الكتب نفس الأهمية والتأثير كذلك الذى خرج من أفواه العلماء والأدباء . كذلك لم يفرق العرب بين المعلم والعالم ، بين العلماء المدرسين والعلماء الذين لم يتخذوا التعليم مهنة لهم ، فيذكر مثلا أن الجاحظ كان معلماً لجيله وللأجيال التالية مع أنه لم يتخذ التدريس مهنة له . وقد أدرك العرب ضرورة دراسة المدرس أصول مهنته . فقد عقد ابن خلدون فصلا أبان فيه أن التعليم صناعة تحتاج إلى دراية وتدريب ومعرفة تصريف

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان ج ٦ . ص ٢٥٥ — ٢٥٦

(٢) ياقوت الحموى . معجم الأدباء ج ٤ . ص ٢١ — ٢٢

سليم ، فهو يقول (١) : « مما يدل على أن تعلم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه ؛ فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختص به شأن الصنائع كلها ، فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم وإلا كان واحداً عند جميعهم .. وملازمة المجالس العلمية ، وكثرة الحفظ ، والعناية بتحصيل العلم ليست جميعها بمانحة ملكة التصرف فى العلم وتعليمه .. ومن أهم ما يلزم فى العلم فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة ، والعمل على تحصيل الملكة التى هى صناعة التعليم .. » .

كما اهتم المسلمون بما بين البيت والمدرسة من علاقات ، فقد جاء فى كتاب مؤلفه مجهول هو « كتاب الإرشاد والتعليم » لبعض الرجال الصوفية ... جاء فيه « والطفل صورة عائلته : فكل ما فيها من خير أو شر ، وكل ما سمعه ورآه ينطبع فيه ، ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور فى تربية الأبناء ، ومن ربى ماله ولم يرب ولده فقد ضيع الولد والثروة ، وتربية الفضائل لا يمكن أن تكتسب فى المدارس بل تجب ممارستها مع الطفل من يوم يعى الخطاب ويفهم الكلام ، وأول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعاً الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة ، يؤثرون عليه بأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم ، ثم إذا أضفنا ما تحتاجه هذه التربية من العناء والصبر ، والعقل والحنو والمحبة الخالصة حكمنا بأنها لا تتم إلا بواسطة من أنتجتهم الفطرة الإلهية لهذه المأمورية العالية وهم الوالدان » (٢) .

وكان العلماء المعلمون فى صدر الإسلام يؤدون أعمالهم طلباً للثواب من الله فلم تدفع لهم الدولة مرتبات ، وكان من يجد فى نفسه الكفاءة والقدرة على تثقيف غيره يجلس فى المسجد مختاراً ويأتيه محبو العلم ، وكان هذا المعلم يعلم ما يشاء وفى أى وقت يشاء .

ثم بدأ تدخل الحكومات فى التعليم عندما أقامت معاهد خاصة له ،

---

(١) فى فصل « فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع »

(٢) أحمد شلبى : المرجع الأسبق – عن كتاب الارشاد والتعليم . ص : ٥٤٢ – ٥٤٣

وعينت لها معلمين . ويذكر أنه عندما شيد العباسيون بيت الحكمة عينوا فيه علماء الترجمة والإشراف ، وكانوا يدفعون لهم رواتب سخية ، ومن هنا بدأ الإشراف الفعلى للدولة على ما يعلم فى المعاهد . وبلغ هذا الإشراف أقصاه عندما بنى الجامع الأزهر وأصبح معهداً تعليمياً لنشر الدعوة الفاطمية والتنديد بخصومهم ولعنهم . أى أن الدولة وضعت منهاج التعليم وأشرفت على تنفيذه إشرافاً كاملا .

وإذا كان الفاطميون قد دعوا لمذهبهم عن طريق التعليم ؛ فقد عمل أهل السنة على محاربة المذهب الشيعى الذى انتشر على يد البويهيين . وكذلك فعل نور الدين فى الشام وصلاح الدين فى مصر .

وتختلف المصادر التاريخية فى نظرتها للمستوى الاجتماعى للمدرس ، ولكن يلوح أن الاتجاه فى صف تقسيم المدرسين إلى ثلاث طوائف :

الأولى : معلمو الكتاتيب : وكان بينهم فقهاء وشعراء وخطباء ، ولكن غالبيتهم كانوا جماعة اندسوا إلى مهنة التعليم وهم أبعد ما يكونون عنها : ويروى أن منهم من امتهن كرامته وحظى بثقافة ضحلة وخلق وضيع حتى قيل فى الأمثال « أحمق من معلم كتاب » . وغريب ما يذكره بعض المؤرخين والكتاب مثل ابن حوقل والدينورى والأصفهانى عن الدرك الأسفل الذى انحدر إليه كثير من معلمى الكتاتيب ، فنى بالرمو بجزيرة صقلية لجأ إلى هذه المهنة كثيرون — حيث أعفى المعلمون من الانخراط فى الجيش — من الأغبياء وكريهى المنظر والحمقى ومن لا خلق لهم ، ومن عرف عنهم شهادة الزور ، حتى قيل إن قبول شهادة معلمى الكتاتيب كان موضع تردد من القضاة . وقد نرى بعض المبالغة فى هذه الأقوال ولكن بعض مؤرخى العرب يرجعون مهانة مكان معلم الكتاتيب إلى أنهم كانوا فى أول الأمر من الموالى والذميين ، كما أن العرب تأثروا بالروايات اليونانية الهزلية التى شخصت المعلم فى صورة مضحكة .

الثانية : المؤدبون : وقد نظر إلى تأديب أولاد الخاصة صيانة كانوا أو

كباراً على أنه عمل عظيم يكسب صاحبه فخراً وإجلالا ورفعة لشأن المؤدب .

الثالثة : معلموا المساجد والمدارس : وقد سبقت الإشارة إليهم .

خلاصة عن التعليم فى مصر بعد الفتح الأسلامى

تم فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى زمن عمر بن الخطاب عام ٢٠ هـ — ٦٤٠ م ، وكانت الثقافة اليونانية الرومانية منتشرة فيها . وبنى عمر جامعه المعروف باسمه فى الفسطاط ، وأصبح هذا الجامع مركزاً للحركة الثقافية فى مصر والتى كان محورها الدين وعلومه من تفسير للقرآن الكريم ورواية لقراءاته وكذا الرواية للحديث الشريف . وتولى جماعة من الصحابة والتابعين التعليم فى هذا الجامع . ومن أعظمهم صيتاً عبد الله بن عمرو بن العاص. وبدخول كثيرين من قبط مصر الإسلام وإقبالهم على اللغة العربية وعلم الدين نبغ بعضهم فخرجوا إلى الأقطار الإسلامية ثم عادوا يعلمون ويجلسوون فى المساجد يفيدون الناس بعلمهم .

وبمرور السنين ووفود العلماء إلى مصر ، وخروج طالبى العلم منها ، بدأت فئات تتشيع للحنفية وأخرى للمالكية وثالثة للشافعية ، وقامت بين الفئات مناظرات ومحاورات . على أن التعليم بصبغته الدينية لم يتعد فى السنين المبكرة الفسطاط والاسكندرية ، ثم انتشر فى أوائل القرن الثالث الهجرى فى قرى مصر . على أن الاسكندرية بتاريخها وبمكتبتها التى تهم العرب بحرقها ، وبمدرستها الراسخة فى الفلسفة ظلت مركزاً للإشعاع فى العلوم العقلية ، ولكن على نطاق ضيق . وقد اعتمدت مصر فى العلوم العقلية على ما يفيد إليها من إنتاج العراق ، خاصة إبان نهضتها العلمية أيام العباسيين . ثم بدأ الاضمحلال يسرى فى أوصال الدولة العباسية حتى انقسمت إلى دويلات صغيرة تنعم بالاستقلال . وبينما كانت بغداد تهبط ، كانت دويلات ترتفع ومنها مصر التى استقل بها الطولونيون . ثم خلفهم الإخشيديون الذين شجعوا العلماء والشعراء والأدباء . وقد أسس محمد بن طنج الإخشيد دوأله عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م ، ويذكر أنه اشترى عبداً بثمانية عشر دينار وكان قبيح الخلقة دميا وسمى

كافوراً ، ولكنه تربى فى القصر تربية عالية ، وأعجب به الإخشيد حتى عهد إليه بتربية ولديه أبى القاسم أنو جور وأبى الحسن على . وقد آل حكم مصر إلى كافور عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م وكنيته « أبو المسك » من قبيل التمليح . وفى حكم كافور أغدق على العلماء والأدباء ، وقد نبغ منهم عدد كبير منهم سيبويه المصرى . كما كان يعقد الندوات فى مجلسه كل ليلة ويجزل العطايا حتى ازدهرت الآداب والعلوم فى عهده (١) .

وبعد موت كافور عام ٣٥٧ هـ بدأت مصر تفقد الاستقرار والهدوء ويسودها الاضطراب والفوضى ، كما لم تستطع بغداد أن تعيد النظام والاستقرار إلى مصر لأن الخليفة العباسى نفسه كان أضعف من أن يسوس عاصمة خلافته . ولذلك فقد أعد المعز الخليفة الفاطمى فى القيروان — أكبر مدن المغرب — جيشاً قوامه مائة ألف محارب على رأسهم قائده (جوهر الصقلى) ويمم الجيش شرقاً قاصداً مصر ذات المركز الجغرافى والثروة . ووصل جوهر الاسكندرية ودخلها دون حرب بعد أن تعهد بالمحافظة على الأهالى ، ثم سار جنوباً حتى قابل الأشراف والعلماء والقضاة والتجار فى الجيزة ، ثم دخل الفسطاط . وفى سواد الليل من ليلة دخوله الفسطاط ، وضع بالمكان الذى عسكر به أساس مدينة القاهرة . وامتدت الدولة الفاطمية من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر . ثم صارت مصر مركز الحكم فى هذه الدولة الكبيرة بعد أن كتب جوهر للمعز ، وجاء ليدخل القاهرة العاصمة الجديدة عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م .

والفاطميون من الشيعة ، وأهل مصر والعباسيون من السنيين . ولذلك فقد كان للدعوة الفاطمية بمصر أعظم الأثر فى التعليم ، حيث اهتم الخلفاء الفاطميون بنشرها ، وأقاموا المساجد وأجزلوا العطاء للعلماء والمعلمين ، وأنشأوا مجالس الدرس فى القصور الفاطمية الزاهرة . وأنشأ الحاكم بأمر الله دار العلم . ونما الجامع الأزهر ليكون جامعة عالمية يأتيها المسلمون من مشارق

---

(١) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى . ص : ٧٠ — ٧٢ .

الأرض ومغاربها (١) .

أما عن التعليم فى مصر الفاطمية فيمكن أن ننظر إليه بشىء من التحفظ على أنه نمط للتربية الإسلامية فى القرون التالية منذ الحكم الفاطمى فى القرن العاشر الميلادى وإلى نهاية العصر العثمانى . كما سيأتى بيانه فيما بعد .

ويلخص نظام التعليم ، ومدارسه ، ومناهجه ، ومعلموه فى النقاط التالية:

أولا : الكتاتيب : فكان الطفل يذهب إلى الكتاب فيما بين الخامسة والسابعة ، ويظل بالكتاب إلى سن الرابعة عشرة إذا كان من أسرة ذات يسر . أما إذا كانت معوزة فيبقى سنتين أو ثلاث سنوات . ويبقى الطفل بالكتاب من شروق الشمس إلى آذان العصر . وكان الأطفال يدرسون بالكتاب القرآن الكريم ، وهو بمثابة أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل من بعض الملكات. « وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات ، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ينبنى عليه (٢) » . وإلى جانب حفظ القرآن ، مقسماً إلى أقسام ، كان الطفل يتعلم قليلا من الحساب واللغة والنحو والشعر .

ويقوم التدريس على الحفظ والتقليد مع مراعاة ظروف كل طفل ، فكان المعلم يشرف على تلاميذه ، ومنهم الذى يكتب فى اللوح ، والذى يحفظ والذى يسمع .. وقد تحول التعليم إلى حرفة يرتزق منها المعلمون ، بل أصبح صناعة لابتغاء الرزق اختصت بها طبقة من الناس. على أن المصادر التاريخية. كما أوضحت سابقاً ، تتحدث عن مهانة معلمى الكتاتيب ، وأخرى تجلهم وترفعهم . والظاهر أنه كانت هناك مستويات من المعلمين ، بل لقد عرفت لهم ألقاب تختلف باختلاف الدراسة التى يقومون بها . وتبدأ الألقاب على النحو الآتى :

(المعلم) وهو أقل الرتب وأكثرها انتشاراً ، ولم ينل صاحب اللقب مركزاً مرموقاً . ثم (المؤدب) وقد كانت حالته أحسن من المعلم فهو يذهب إلى البيوت والقصور . ثم (المدرس) وكان يعلم العلوم الشرعية وقد سميت

(١) خطاب عطية على : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، ص . ٦١ — ٦٤ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٢٩

مدرس نظام الملك بهذا نسبة للقب . ثم يقوم (المعيد) فيشرح للتلاميذ ويفسر ما ألقاه المدرس ، أما رتبة أو لقب (الشيخ) فانها قصرت على العلماء احتراماً لم وتوقيراً . ومن ألقاب العلماء (الفقيه) ، وقد كان يطلق تجاوزاً على فقهاء المكاتب . أما لقب (الأستاذ) فهو فارسي الأصل ، وكان يطلق أولا على أصحاب المصانع ثم أطلق على من أظهر مهارة فى التعليم . ومن ألقاب كبار العلماء (الرحلة (وصاحبه على شهرة بالعلم والتعليم حتى إن الطلبة يرحلون إليه ويتكبدون المشاق للاستفادة من علمه الغزير . أما أعلى درجات السلم العلمي فكانت (الإمام) والإمام فى علم مرجع فيه ، وهو ثقة فى هذا العلم(١).

ويتضح من هذه الألقاب ومن موقف الكتاب والمؤرخين من معلمى الكتاتيب وغيرهم ،أن علم المعلم كان محدداً لدرجته ومكانته ،فلا نظن أن يعهد كبير بابنه لمؤدب لا يكون على علم كاف وثقافة عالية وسمعة طيبة . ويبوح كأنه يترسب فى التدريس بالكتاتيب أقل المعلمين علماً وثقافة ممن لم يتملكنوا من التقدم إلى التعليم فى غير الكتاتيب . ونظرة الناس لم أقل من نظرتهم إلى المؤدبين والمدرسين مثلا . كما أن قبول معلمى الكتاتيب الطعام ، خاصة الخبز من التلاميذ ، بل ووضوح حاجاتهم إلى ما يرسله آباء التلاميذ إليهم قد أنزل من مكانتهم الاجتماعية . ومع ذلك فقد كان يطلب منهم أن يكونوا قدوة صالحة ... لا يأتون منكراً أو فساداً أمام تلاميذهم .

وقد هدف التعليم فى الكتاب إلى إعداد الفرد لمراحل تعليم تالية أو تسلحه بقدر من المعرفة والمهارة اللغوية والحسابية إلى جانب التربية الدينية والتى لها شأن كبير وقتئذ إذا أنهى تعليمه بالكتاب واتجه إلى التجارة مثلا أو الزراعة : على أن الجدير بالذكر أن التربية الخلقية لها شأن عظيم ، فكانت فروض الصلاة والصوم والطاعة مطلوبة من الصبيان فى المكاتب . وكثيراً ما لجأ معلمو الكتاتيب إلى العقوبات البدنية الرادعة مما كون عند الأطفال خوفاً من عصيان الأوامر ورغبة فى الظهور بمظهر المطيعين أمام معلميهم ، وساكتين لا يأتون

---

(١) حسان علية على : المرجع الأسبق ٨٠ – ٨١

حركة أو صوتاً إلا إذا أمروا بذلك . ولم تكن للرياضة البدنية أو العناية بأمور الصحة نصيب يذكر .

ثانياً : الدعوة للمذهب الشيعي : وفى سبيل نشر المذهب الشيعي وإحلاله محل السنة بذل الخلفاء الفاطميون الكثير ، واتجه نظرهم إلى المعلمين والطلبة ؛ فأغدقوا عليهم حتى يدرسوا المذهب الشيعي ويعتنقوه . بل إنهم قصروا الوظائف الكبرى وشبه الكبرى فى الدولة على أنصار مذهبهم . واتخذوا من المساجد أماكن لنشر المذهب ، وخاصة فى الجامع الأزهر . وتحدثنا المؤرخون أن الخلفاء أوقفوا الأوقاف وأنفقوا الأموال على المساجد ، فأمعنوا فى زينتها وزخرفتها بالمصابيح والتنانير ، وكان بعضها من الفضة الخالصة . كما نقلوا إلى بعض المساجد نسخاً من القرآن الكريم مكتوبة بالذهب . وبولغ فى الاعتناء بالمساجد حتى تجذب الناس إليها ويتعلموا فيها . ولكن يؤخذ على الفاطميين اضطهادهم لمن خالفوا مذهبهم . فيذكر أن رجلا ضرب بمصر وطوف به فى الشوارع لأنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس . كما أن تصرفات الحاكم بأمر الله الفاطمى (٣٨٦ هـ — ٤١١ هـ — ٩٩٦ — ١٠٠٢ م) تدعو إلى الدهشة ، فقد أغدق وبذل على العلماء وبنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ، ثم قتلهم وخربها . كما أنه بنى داراً للعلم وأجلس فيها الفقهاء والمحدثين عام ٤٠٠ هـ ، ثم هدمها بعد ثلاث سنوات وقتل من كان بها من الفقهاء والمحدثين . ومع ذلك فالحق يقال عن اهتمام الفاطميين بالعلوم العقلية إلى جانب اهتمامهم بالعلوم النقلية ، وأنهم شجعوا العلماء على المجيء إلى مصر . ونبغ فى حكمهم علماء وأطباء .

ثالثاً : التعليم فى الجوامع : وكان لجوامع عمرو وابن طولون والجامع الأزهر أثر كبير فى ازدهار النهضة التعليمية ، ولعب الأزهر دوراً كبيراً فى الدعوة الشيعة ، وكان مركز الإشعاع الديني . وظل الأزهر من سنة الانتهاء من بنائه (٣٦١ هـ) إلى اليوم يؤدى دوره فى الدعوة الإسلامية . وسمى بالأزهر لأنه أحاطت به القصور الزاهرة ، أو كما يقول البعض لما تنبىء له من ازدهار

ورق ، ويرجح أنه سمى بالأزهر تيمناً باسم فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم جدة الفاطميين .

وقد رتبت للأساتذة فيه الأرزاق ، وأوقفت عليه الأوقاف . وكان الخلفاء الفاطميون يزيدون فى عمارته ، حتى وصلت أعمدته ٣٧٥ عموداً التف حولها طلاب العلم ممن جاءوا يستمعون إلى ما يدرس عن مذهب الفاطميين . وإلى الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات . ووفد إليه طلاب من المشرق والمغرب ، قسموا إلى طوائف ، وكان لكل طائفة رواق يعرف بهم .. وكان أصحاب الرزق الواسع يغدقون على الجامع الأزهر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين ، بل ويحملون إليهم فى المواسم والأعياد اللحوم والخبز والحلوى .

وإذا كان الأزهر أبرز الجوامع . فقد كان هناك أيضاً جامع الحاكم . وجامع عمرو وابن طولون وغيرها من مراكز العلم والإشعاع الثقافى .

وعرف أن الدراسة بالمساجد تقسم إلى ثلاث مراحل : مرحلة ابتدائية لحفظ القرآن الكريم ودراسة فوق ما درس فى الكتاتيب ، ثم مرحلة (ثانوية) تتسع فيها الدراسة على أيدى مدرسين أكثر علماً ، ثم مرحلة (عالية) أو (نهائية) تدرس فيها أمهات الكتب على يد طائفة من الجهابذة . وكان الطالب هو الذى ينقل نفسه من مرحلة إلى أخرى . ولم يكن هناك حد للسن أو البقاء فى مرحلة دراسية . وغلبت العلوم الشرعية على الدراسات فى المساجد ، ودرست فيها أيضاً العلوم اللسانية من نحو وصرف وبلاغة ، وكذلك الجغرافية والرياضة والمنطق والفلسفة والمنطق والطب . ولكن الغالب أن الطب كان يدرس بدار العلم على نطاق أوسع أو بالمارستانات أو على أيدى معلمين خاصين .

ويذكر أنه بعد انتهاء الحكم الفاطمى ، اعتقد البعض أن العلوم العقلية تعمل على بلبلة الأفكار وتشويشها وتحمل على الريب فى المعتقدات الدينية ،

فأصبحوا ينظرون إلى هذه العلوم العقلية بعين السخط ، وهجرت دراستها فى المساجد .

رابعاً : طرق التدريس بالمساجد : منذ أن جلس النبى عليه السلام فى المساجد معلماً ، صار التقليد أن يجلس العلماء وحولهم المستمعون ، وهذا هو نظام الحلقات الذى انتشر فى ربوع العالم الإسلامى . فكان العالم يجلس إلى أحد الأعمدة فى الجامع متكئاً عليه بظهره ومتجهاً إلى القبلة وحوله الطلبة فى حلقة . وكان لكل عالم عامود يعرف به ومن حقه أن يجلس إليه . وكان العالم أو الشيخ يبدأ الدرس بالبسملة والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقرر الدرس بالدقة ثم يختمه بقراءة الفاتحة .

وكانت أساليب التدريس تتلخص فى الإملاء والشرح والمناقشة . فالأستاذ يملى ما لديه ويشرح ما يصعب على الطلبة فهمه ، ويسمح لهم أثناء الإملاء أو الشرح بالمناقشة فيما يعن لهم (١) . والغالب أنه كانت تخصص ساعات البكور .. والذهن فى نشاطه ــ لدراسة العلوم النقلية كالتفسير والحديث والفقه والنحو والصرف وغيرها . أما بعد الظهر فكان يخصص للعلوم التى تستند إلى العقل . أما المساء فقد جعل للاستذكار والحوار والتأمل . وكان للطالب أن ينتقل من حلقة إلى أخرى حسبما يسمح نشاطه ، وعلى أساس عدد العلوم التى يرغب فى دراستها ، ويرجح البعض أن الدراسة فى المسجد كانت تتطلب إثنتى عشرة سنة ، وإن كان التحديد الزمنى لا حدود له .

وكان الأستاذ أو الشيخ هو الذى يحدد ويأذن للدارس على يديه بالتدريس أو الرواية أو الإفتاء ، وكان هذا يتم بعد أن يقرأ الطالب على عدة أساتذة عدداً من الكتب ، لكل أستاذ كتاب فى فرعه وتخصصه .

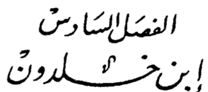
ولم يكن الطلبة يدفعون أجوراً نظير تعلمهم فى المساجد بل كانت ترتب لهم ولأساتذتهم غالباً أرزاق وأعطية تكفى للإتفاق عليهم فى حياتهم الخاصة . وقد سبق الإشارة إلى ما يدره أهل اليسر على هؤلاء الطلبة فى المواسم والأعياد

---

(١) خطاب عطية على : التاريخ الأسبق ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥

وغيرها ، ولعل هذا الأمن الاقتصادى كان حافزاً للطلاب على التعلم سواء من أهل مصر أو من الأمصار الإسلامية . كما شجع على ذلك مكانة العلماء الذين كانوا يعلمون فى الجوامع والمساجد الكبيرة ، حتى قيل إن هؤلاء كانوا يستأذنون الخليفة فى القيام بالتدريس ، بل إن الخلفاء أنفسهم كثيراً ما عينوا أساتذة بالجامع الأزهر .

خامساً : دار الحكمة : ويمكن القول إن دار الحكمة نافست الجامع الأزهر وإن لم يكتب لها البقاء كما هو الحال مع الأزهر ، ودار العلم أو دار الحكمة مكتبة وجامعة حوت الكتب القيمة الكثيرة فى فروع المعرفة المختلفة وعقدت بها الحلقات الدينية والأدبية والعلمية ، وجلس فيها المنجمون والفلاسفة والأطباء والفقهاء واللسانيون . وهى بذلك قد جمعت بين المكتبات ودور العلم . وفاقت الأزهر فيما علمته من علوم عقلية ، فقد كان الطلبة بها يتلقون إلى جانب علوم آل البيت وفقه الشيعة الكثير من علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم والفلسفة والمنطق . ويمكن القول بأن دار الحكمة كانت معهداً لتعليم الطب والمنطق والفلسفة ، وقد جذبت إليها الدارسين من مصر وغيرها بعد أن ذاع صيتها وعرف عنها البحث الحر . وقد قضى صلاح الدين الأيوبى عليها .


الفصل السادس
إبن خلدون

ابن خلدون

عبد الرحمن بن خلدون مفكر إسلامى عبقرى . سبق أعاظم المفكرين فيما ابتكره من فلسفة التاريخ وفلسفة الاجتماع . وقد سافر كثيراً وتولى مناصب عدة فى المغرب الإسلامى وفى الأندلس . ثم فى مصر . ودبر المؤامرات ضد حكام ، وأحدث انقلابات . وشن الحروب ، وكان يكتب ويؤلف . وكانت أحوال المسلمين فى الغرب تسودها الفرقة وقد بدأت عوامل التفكك تصيب قوتهم وبأسهم وتهز قلاع مدنيتهم . . . وفى غمرة هذا الوهن ولد عبد الرحمن بن خلدون .

ولد ابن خلدون فى تونس عام ٧٣٢هـ (١٣٣٢ م) ، ومازال البيت الذى ولد به قائما فى شارع تربة الباى حيث تشغله مدرسة الإدارة العليا بالعاصمة التونسية (١) . ويقول ابن خلدون مؤرخا حياته إنه قرأ القرآن على الأستاذ أبى عبد الله محمد بن نزال الأنصارى ، ودرس عليه كتبا جمة مثل كتاب التسهيل لابن مالك ومختصر ابن الحطيب فى الفقه . ثم درس على كثيرين من أهل العلم ومنهم شيخ العلوم العقلية أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الأبلى ، ويقول . . . « لزمته وأخذت عنه العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية (٢) . . . ويقول . . . . « ولم أزل منذ نشأت وناهزت مكبا على تحصيل العلم . حريصا على اقتناء الفضائل . متنقلا بين دروس العلم وحلقاته ، إلى أن كان الطاعون الجارف . وذهب الأعيان

---

(١) على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون . ص : ٢٤ - ٢٩

(١) الأب يوحنا قمير : مقدمة ابن خلدون . ص : ٦-٨

والصدور وجميع المشيخة ، وهلك أبواى رحمهما الله ولزمت مجلس شيخ أبي عبد الله الأبلي ، وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين . . . . »

« . . . واستدعانى أبو محمد بن تافراكين ، المستبد على الدولة يومئذ بتونس ، إلى كتابة العلامة عن السلطان أبي إسحق . . . فكتبت العلامة عن السلطان ، وهى لله الحمد والشكر لله ، بالقلم الغليظ . ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم . . . »

« . . . وقد كنت منطوياً على الرحلة من أفريقية ، . . فلما دعيت إلى هذه الوظيفة سارعت إلى الإجابة لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب . وكان كذلك ، فأنا لما خرجنا من تونس — لمحاربة أبي زيد صاحب قسنطينة — نزلنا بلاد هوارة ، وزحفت العساكر بعضها إلى بعض . . . وانهزم صفنا ، ونجوت أنا إلى أبة . . . ثم تحولت إلى سبتة . . »

ثم يذكر ابن خلدون أن السلطان (أبو عنان) عاد إلى فاس وجمع أهل العلم للتحليق بمجاسه ، وكتب إليه يستقدمه إليه ، فذهب ، فى سنة ٧٥٥ هـ ونظمه فى أهل مجلسه العلمى ، وألزمه شهود الصلوات معه ، ثم استعمله فى كتابته والتوقيع بين يديه ، ووظيفة التوقيع هى كتابة أوامر السلطان فى ايجاز بليغ وكانت من أرقى مناصب الدولة . وكانت هذه فرصة سانحة للشاب أن يلتقى بمختلف السفارات التى ترد إلى بلاط فاس ؛ ونما مركز ابن خلدون عند السلطان ، فكثر حساده . ثم يقول ابن خلدون . . . « وكان قد حصلت بينى وبين الأمير محمد (١) ، صاحب بجاية من الموحدين ، مداخلة أحكمها ما كان لسلفى فى دولتهم (٢) ، وغفلت عن التحفظ من مثل ذلك من غيرة الشيطان — فما هو إلا أن أشغل بوجعه ، حتى نمى إليه بعض الغواة أن صاحب

---

(١) هو الامير أبو عبد الله محمد الحفصى صاحب بجاية الخارج ، وكان فى ذلك الوقت أسيراً فى فاس .

(٢) يقصد ابن خلدون بهذا من أن جديه الاول والثانى قد وليا فى عهد بنى حفص ولاية تونس .

بجاية معتمل فى الفرار ليسترجع بلده . . . فانبعث السلطان لذلك ، وبادر بالقبض عليه . وكان فيما نمى إليه أنى داخلته فى ذلك ، فقبض على وامتحنى وحبسنى . . . وهلك السلطان . . . خاتم تسع وخمسين (١) . وكان ابن خلدون قد رفع إليه قصيدة مؤثرة طالباً العفو ، ولكن الموت عاجل السلطان ، ثم أطلق القائم بالدولة الوزير الحسن بن عمر سراحه ، وأعاده إلى ما كان عليه من منزلة .

ولكن ابن خلدون لم يكن راغباً فى الاستقرار فى مكان واحد حتى على ما كان يناله من حسن وفادة ، فقد طلب الإذن من الحسن بن عمر . فلم يسمح له . وقد حدث أن تآمر ابن خلدون ضد مطلق سراحه الحسن ابن عمر . وكان لا يفتأ ينتهز الفرص ليرتقي المناصب الأسمى . وقد عين كاتب السر والإنشاء فى عام ٧٦٠ هـ فى عهد سلطان فاس أبى سالم ، وانتهج سبيلا جديداً فى كتابة الرسائل متحرراً من السجع ، كما نظم العديد من القصائد .

ثم تولى (خطة المظالم) أى القضاء ، ولكن منافسيه استطاعوا أن يوغروا صدر السلطان عليه ، بل عمل منافسوه على تشويه سمعته وسمعة السلطان حتى يهيئوا لثورة . ونجحت الثورة عام ٧٦٢ هـ وكعهدنا بابن خلدون فقد انضم غداة فوز الانقلاب إلى صفوف المنتصرين . وعاد إليه مجده وزيادة.

ولم يطل بقاء ابن خلدون فى منصبه ، فقــد رغب فى السفر ، وبعد مفاوضات مع السلطان الذى خشى أن ينشق ابن خلدون وينضم لأعدائه ، سمح له بالسفر إلى الأندلس .

وكان عام ٧٦٤ هـ حين قدم ابن خلدون على غرناطة وسلطانها ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب . وقد استقبل ابن خلدون أحسن استقبال ، ويقول عن علاقته بالسلطان . . . « ثم نظمنى فى علية أهل مجلسه ، واختصنى بالنجى فى خلوته والمراكبة فى ركوبه . والمواكلة والمطايبة والمفاكهة فى خلوات أنسه . . وأقمت عنده . . . وسفرت عنه سنة خمس وستين ، إلى الطاغية ملك قشتالة

(١) عن كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » . ص٦٦ — ٦٨ .

يومئذ بطره بن الهنشة بن أذفونش (١) ، لإتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدوة ، بهدية فاخرة من ثياب الحرير والجياد والمقربات بمراكب الذهب الثقيلة . فلقيت الطاغية باشبيلية . . فطلب الطاغية المقام عنده وأن يرد على تراث سلفي باشبيلية وكان بيد زعماء دولته ، فتفاديت من ذلك بما قبله » .

ثم استدعى ابن خلدون زوجته وأولاده ، وكانوا فى ضيافة خالهم بقسنطينة ليقيموا معه . ولكن لم يستقر له المقـام بالأندلس بعد أن كثر حساده وكادوا له عند السلطان .

وسافر إلى بجاية . . . « فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومى ، وأركب للقائى ، وتهافت أهل البلد على من كل أوب يمسحون أعطافى ويقبلون يدى . . »

وعاش فترة من الزمن حتى كثرت السعاية عند السلطان فى ابن خلدون والتحذير من مكانته ، وشعر هو بذلك فطلب الإذن فى الانصراف ، وسافر ... بكره .

ويمضى ابن خلدون سنوات فى الترحال والاشتغال بالسياسة والانقلابات والحروب وخلع الحكام ومناصرة أصحاب السلطة ، حتى كان عام ٧٨٠ هـ وقد أتعبه مرض شديد فاستأذن سلطان تونس فى القدوم إليها ، فاستحثه للقدوم . ويقول ابن خلدون . . . « فوافيته (يقصد السلطان أبا العباس) بظاهر سوسة ، فحيا وفادتى ، وبر مقدمى ، وبالغ فى تأنيبي وشاورنى فى مهمات أموره ، ثم ردنى إلى تونس . . . وأويت إلى ظل ظليل من عناية السلطان وحرمته ؛ وبعث إلى الأهل والولد وجمعت شملهم فى مرعى تلك النعمة ، وألقيت عصا التسيار . . . . وأفاضوا فى السعايات عند السلطان فلم تنجح . . . ثم كثرت سعاية البطانة بكل نوع من أنواع السعايات . ولما كان شهر شعبان من أربع وثمانين . وكان بالمرسى سفينة لتجار الاسكندرية . . مقلعة إلى الاسكندرية ، فتطارحت على السلطان ، وتوسلت إليه فى تخلية سبيلى لقضاء فرضى (٢) ، فأذن لى فى ذلك » .

(١) هو بطرس (بيدرو) القاسى ملك قشتالة .

(٢) يقصد أداء فريضة الحج .

وأقام فى البحر اربعين ليلة وصل بعدها إلى الاسكندرية ، ثم رحل إلى القاهرة بعد أن عجز عن تهيئة العدة للحج . ويصف القاهرة بقوله . . . فانتقلت إلى القاهرة ، حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر . وإيوان الإسلام ، وكرسى الملك . . . ولما دخلتها ، أقمت أياما ، وانثال على طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة ، مع قلة البضاعة ، ولم يوسعونى عذراً ، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها (١) . ثم كان الاتصال بالسلطان (٢) فأبر مقامى ، وآنس الغربة ، ووفر الجراية من صدقاته شأنه مع أهل العلم . وانتظرت لحاق أهلى وولدى من تونس . . . وبينما أنا فى ذلك ، إذا سخط السلطان قاضى المالكية فى دولته ، لبعض النزعات، فعزله . . . فلما عزل هذا القاضى المالكى سنة ست وثمانين ، اختصنى بهذه الولاية . . . فقمت بما دفع إلى من ذلك المقام المحمود . . . لا تأخذنى فى الله لومة ، ولا يرغبنى عنه جاه ولا سطوة . . . معرضاً عن الشفاعات والوسائل . . . فكثر على الشغب من كل جانب وأظلم الجو بينى وبين أهل الدولة (٣) . ووافق ذلك مصابى بالأهل والولد ، وصلوا من المغرب فى السفين ، فأصابها قاصف من الريح فغرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ، فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج من المنصب . . . »

وقد تأثر ابن خلدون عميقاً بعد ان فقد من أهله سكنه أى زوجته وبناته الخمس أى المولود وماله أى الموجود ، ونجا ولداه محمد وعلى فى كارثة السفينة . وكان أن ألح فى إخلائه من وظيفته ، ونفذ السلطان طلبه . وتفرغ ابن خلدون للتدريس والقراءة والتأليف . ثم سافر لأداء فريضة الحج وعاد

---

(١) وكان يدرس الفقه المالكى .

(٢) هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق .

(٣) يقصد ابن خلدون إلى ما كان يسود القضاء من فوضى واضطراب وفساد ، وأنه أعرض عن الهوى و الاغراض مؤثراً طريق الحق والعدالة على عكس ما كان يسلكه القضاة وقتئذ . هـ

إلى القاهرة عام ٧٩٠ هـ . ثم دعاه السلطان إلى منصبه فى القضاء المالكى .
وقد حدث أن غزا تيمورلنك أرض الشام فى أوائل عام ٨٠٣ هـ إبان سلطنة
زين الدين أبو السادات فرج فى القاهرة ، وقد فزع الناصر فرج لهذا الخبر
وخرج بجيوشه لصد تيمورلنك ، وكان معه ابن خلدون . ومع أن المصريين
صمدوا للتتر إلا أن بعض الأمراء انسحبوا إلى القاهرة بعد أن حدث خلاف
فى معسكر السلطان ، وكانوا يزمعون تدبير مؤامرة لخلع السلطان ، فترك
دمشق وكان معسكراً بها وارتد للقاهرة .

والظاهر أن ابن خلدون عاود هوايته القديمة وهى التقرب من صاحب
السلطة المنتظر على حساب ولى نعمته ، فسعى إلى التقرب من تيمورلنك ،
وتدلى من سور المدينة التى يرابط تيمورلنك وجيشه خارجها . ويذكر أن
الغازى كان يعرف شهرة ابن خلدون وعلمه وأنه طلب منه أن يكتب له
وصفاً لبلاد المغرب . ويظهر أن ابن خلدون كان يرجو الانتظام فى بطانة
الفاتح والحظوة لديه ، ولكن الرياح لم تأت بما تشتهى السفن ، حتى دب
اليأس إلى قلبه من البقاء فى دمشق . والظاهر أن موقف ابن خلدون من
تيمورلنك الذى وعد بالأمان لسكان دمشق وعندما دخلها لم يبر بوعده ، قد
هز مكانة ابن خلدون أمام الناس . وكيفما كان الأمر فقد استأذن ابن خلدون
تيمورلنك ، فى العود إلى القاهرة فأذن له . وفى طريقه إليها دهمه اللصوص
وسلبوه كل ما كان معه .

ومع أن ابن خلدون كان فى الرابعة والسبعين من عمره إلا أن روحه
الوثابة كانت شابة تدفعه إلى العودة إلى كرسى القضاء نكاية فى حساده
وأعدائه وحباً فى السلطة والتقرب من السلطان . وتولى منصب القضاء للمرة
الثالثة وكثرت الدسائس حوله حتى عزل للمرة الثالثة ، وتولى منافسه البساطى
مكانه . ولم يفت عزله فى عضده ، فحارب مستخدماً أسلحة أعدائه حتى
عزل البساطى بعد ثلاثة أشهر ، وعين ابن خلدون للمرة الرابعة ، واستمر
فى منصبه عاماً وشهرين ثم عزل ليعود البساطى مكانه ، وعزل البساطى

بعد سنة وعاد ابن خلدون للمرة الخامسة ثم عزل وتولى آخرون . ثم عاد ابن خلدون للمرة السادسة وكان فى الثامنة والسبعين ، ولم يمض فى منصب قاضى المالكية إلا بضعة أسابيع توفى بعدها تاركا المنصب إلى الأبد .

مؤلف ابن خلدون الخالد :

لابن خلدون مؤلف أذاع اسمه وخلده كمفكر اجتماعي وفيلسوف ومؤرخ له فلسفة لم يعهدها السابقون وأثرت فى تفكير اللاحقين . والكتاب هو (كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) . والكتاب فى سبعة مجلدات ، ولعل أشهرها المجلد الأول وهو ما يعرف باسم (مقدمة ابن خلدون) .

وفى هذه المقدمة (١) (وتصل إلى حوالى سمائة صفحة) يتكلم ابن خلدون فى الباب الأول فى قسط العمران من الأرض ما فيها من الأقاليم وتأثير الهواء فى ألوان البشر وأخلاقهم وأختلاف أحوال العمران من الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى أبدان البشر وأخلاقهم .

ويرى بعض المفكرين فى هذا المبحث شبهاً كبيراً بما أتى به علماء أوروبا فى نظرية النشوء والارتقاء بعد ابن خلدون بخمسة قرون (٢) .

ويرى ابن خلدون أن موضوع علم العمران هو المجتمع الإنسانى ، وأن الاجتماع الإنسانى ضرورى فالإنسان مدنى بطبعه . وهذه الضرورة ناتجة عن حاجتين ، حاجة الإنسان إلى الغذاء وحاجته إلى الدفاع عن نفسه ، وكلتاهما لا تتمان إلا بالتعاون . فان قوت يوم من الحنطة ، مثلا ، لا يحصل إلا بعلاج من الطحن والعجن والطبخ ، وكل من هذه الأعمال الثلاث يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناع عديدين من حداد ونجار وفاخورى ، عدا عما يحتاج إليه فى تحصيل الحنطة من زراعة وحصاد ودراس إلى غير ذلك . ثم لما كان العدوان طبيعياً فى الحيوان ، وكان الإنسان عاجزاً عن دفع الحيوانات المفترسة . احتاج إلى آلات تنوب له عن جوارح الحيوان ،

---

(١) مقتطفات من مقدمة ابن خلدون مأخوذة من نسخة المكتبة التجارية .

(٢) محمد لطفى جمعة . تاريخ فلاسفة الإسلام فى المشرق والمغرب ص . ٢٢٩

فاحتاج إلى الصنائع فالتعاون . فالاجتماع إذاً طبيعى ، ضرورى لبقاء النوع (١)

ثم يقول ابن خلدون إن فى طباع الناس كما فى طباع الحيوان ميولا عدوانية وظلماً ، ولذلك كان لابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض ، ويقيم العدل ، فيقوم واحد من الناس تكون له الغلبة والسلطان واليد القاهرة .. وهذا معنى الملك .

ويقول عن الأرض إنها فى عرف الأقدمين كروية الشكل ، محفوفة ببحر محيط ، فكأنها عنبه طافية على الماء ، وأن ما انكشف منها لنصف كرتها أو أقل ، وأن ما عمر منها لنحو ربع ما انكشف . ويقول إن الشطر المعمور مقسم إلى سبعة أقاليم ، وتختلف الأقاليم فى درجات حرارتها ، وأن لكل أقليم أثراً عميقاً فى المجتمع ، يظهر فى الأجسام والعقول والأخلاق وبالتالى فى مختلف نواحى الحياة .

وأول الأقاليم خط الاستواء فى الجنوب وآخرها الإقليم السابع فى الشمال ، وهى تتدرج من أقصى الحر جنوباً إلى أقصى البرد شمالا . وأن أهل الأقاليم الثلاثة الوسطى أرقى علوماً ، وصنائع ، وملابس ، وأقواتاً ، وأعدل أجساماً ، وألواناً ، وأخلاقاً ، وأدياناً .

ويعطى ابن خلدون الفصل الأول من مقدمته سبباً آخر لتباين المجتمعات وهو تباين البقاع فى الخصب والجوع . ويقول إن للخصب أثراً سيئاً فى المجتمع ، والفقر افضل للناس لو يعلمون : ويتغذى سكان البقاع الخصبة بالحبوب والحنطة والفواكه ، لهم منها ما شاءوا ، فتولد كثرة الأغذية فضلات رديئة فى أجسامهم ، وينشأ عن ذلك انكساف فى اللون ، وضخامة فى الجسم ، وقبح فى الشكل ، وبلادة وغفلة . أما أهل القفار فأقواتهم الألبان واللحوم ، يعيشون على الإقلال ، فتصفو جبلتهم ، هم أحسن أجساماً ، وأعدل أخلاقاً ، وأثقب اذهاناً ، ألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى ، وأشكالهم أتم .

---

(١) الأب يوحنا قمير . ص : ٢٢ .

ويرى أن أهل الدين قليلون بين المترفين وسكان المدن والأمصار ، الخصب أثره السيء . وهؤلاء تهلكهم المجاعات لأنهم اعتادوا الشبع. ويؤمن ابن خلدون بأثر الجوع على صفاء الذهن ، وإعداء المتصوفين إلى الاتصال بعالم الروح .

وفي الباب الثاني من المقدمة يتكلم ابن خلدون في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل ، وما يعرض في ذلك من المباحث في طبيعة البداوة والحضارة ، والفرق بينهما من حيث الأنساب والعصبية والرياسة والحسب والملك والسياسة وغير ذلك .

والدارس لهذا المبحث يجد فيه ملامح أصيلة للعلم الذي نسميه اليوم (علم الاجتماع) لأن قوام هذا العلم هو دراسة الظواهر الاجتماعية للكشف عن القوانين التي تخضع لها .

ويرى ابن خلدون أن البداوة طور طبيعي على الحضارة ، والبدو أنواع فمنهم من يعيش من الزراعة ، وبعضهم من السائمة كالغنم والبقر ، وبعضهم من الإبل . ويرى أن للبدو خلالا يفضلون بها الحضر ، حاصلة عن فقرهم ، وحياة البادية . وهم أقرب إلى الخير ، ممسكون عن الشهوات والفحشاء لأنهم أقرب إلى الفطرة . وأفقر حالا ، وأجدب أوطاناً ، الترف عليها ممتنع ، الملاذ مفقودة . وهم أشجع من الحضر وأشد بأساً وأعنف انقياداً .

والقبيلة نواة البدو الاجتماعية . . . ويتعاضد البدو بالعصبية وهي عبارة ما تتمتع به القبيلة أو الأسرة من القوة والجاه . وهذه العصبية هي منشأ الرئاسة السلطان . فالقبيلة مجتمع بشرى ، وللرئاسة نشأة وزوال ، فهي كائن يفاسد بكل عوارض الحياة . وإنما نهايتها في العقب الواحد أربعة أجيال .

ويهاجم ابن خلدون أخلاق العرب ويتهمهم بالوحشية وبقسوتهم في فتوحاتهم . ويقول عن العرب إنهم أمة وحشية تقوم فتوحهم على النهب ، ولا يتغلبون إلا على البسائط السهلة . ولا يقدمون على اقتحام الجبال أو الهضاب لصعوبتها (١) .

---

(١) فلا يخفى حيدة عن الصواب في مزاعم ابن خلدون . فقد فتح العرب الشام وفارس وشمال أفريقيا والأندلس وهي هضاب وعرة ، ولم يخربوها ، بل أقاموا فيها العمائر كما تشهد [illegible] الآثار وكتب الفرنجة أنفسهم . ويلوح أن الخصومة بين العرب والبربر في شمال أفريقيا [illegible] ابن خلدون بين البربر) هي التي صبغت أقوال ابن خلدون بالتحيز ضد العرب

وفى الباب الثالث يتكلم ابن خلدون فى الدولة العامة ، والملك والخلافة والمراتب السلطانية . ويعلل ابن خلدون لأسباب السيادة وتشييد الدول : وكيف تحفظ الإمارة ، وشروط السلطة والخلافة وطبائع الملك ومعنى البيعة وولاية العهد ومراتب السلطان ، ودواوين الدولة وجندها وأساطيلها وشاراتها وقواعد الجند والحرب ، وأسباب ثبوت الدولة وسقوطها .

ويقول ابن خلدون إن نشأة المجتمع بداوة ، وعصابة فى قبيلة ، ما غايته تأسيس دولة وازدهار حضارة . ونشأة الدولة فتح . وللفتح أسباب . والسبب الأول هو القوة ولا تتهيأ القوة للقبيلة إلا إذا سلمت من آفة الخصب والملاذ ، وسلمت من سيطرة أجنبى ومن انقياد . والسبب الثانى هو هرم الدولة المرموقة ؛ أما إذا كانت هذه الدولة قوية فــلا يتم للقبيلة غزو وفتح .

ويقول إن للحضارة ظواهر ترافقها . وقد ضمنها الأبواب الرابع والخامس والسادس على التوالى :

أولا : الظاهرة الاجتماعية . وهى استقرار وترف . ففى الحضارة بناء مدن واستقرار ، وإسراف فى الترف والملاذ . ويرى أن البناء فى الدولة محتاج إلى التعاون ومضاعفة القدر البشرية ، فلا تعظم المبانى إلا إذا عظمت مقدورات الدولة . وأن بعض الآثار قد تحتاج إلى دولة متوالية لبنائها ، فتأتى آية فى المتانة والعظمة ، حتى لتعجز الدول عن هدمها كما عجز الرشيد عن هدم إيوان كسرى ، والمأمون عن هدم الأهرام . وأن مبانى العرب قليلة بالنسبة لقدرتهم لأن بداوة صرفتهم وفتحاً شغلهم وديناً نهاهم عن الإسراف . ويرى أن أهل المدن متأنقون فى أكلهم ولباسهم تأنقهم فى مبانيهم ، طالبون الملاذ وإشباع الشهوة ، مزدحمون على الكمال ومناحى الترف .

ثانياً : الظاهرة الاقتصادية ، ووجوه المعاش ، وفيه مسائل فى الرزق والكسب وأنه قيمة الأعمال البشرية . ويرى أن الصنائع بسيطة ومركبة ، والبسيطة حاصلة فى العمران البدوى ، مستعملة فى الضروريات ، والمركبة فى كماليات الحضر ، يستنبطها الفكر ، ويتأنق فيها العمران . ويرى

ابن خلدون أن الصنائع كثيرة ، منها حقيرة كالبناء والنجارة والحياكة . ومنها شريفة كالتوليد والطب والخط والوراقة والتعليم والغناء . ويرى أن الصنائع تابعة للحضارة ، تنمو بنموها ، وترسخ برسوخها ، وتكثر بكثرة طالبها .

ثم يتكلم ابن خلدون قائلا إن التملق مقرب من السلطان ، مفيد للجاه كالمـــال . وأن الترفع لخلق ذميم فى أرباب العلوم والفنون ، يتوهمون فى أنفسهم الكمال . ويرى بعض المفكرين أن مبحث ابن خلدون فى الاقتصاد من قبيل ما يسميه أهل هذا الزمان (الاقتصاد السياسى) . و (الاقتصاد الاجتماعى) بل إن كثيراً من مبادىء هذا الفصل صارت بذوراً لما دونه كارل ماركس فى كتابه (رأس المـــال Daskapital) (١) . بل إن جوستون بوتول (٢) يقول « وكانت حاسة التنبؤ الاقتصادى مرهفة كذلك عند ابن خلدون ، فلديه فكرة واضحة عن تكوين الأسعار ، وعملية العرض والطلب . وقد خصص فصلا بأكمله لحركة الأسعار (كالمـــواد الغذائية والسلع) فى المدن . . . . . وأدرك ابن خلدون تأثير الأحداث السياسية على الحيـــاة الاقتصادية ، وهكذا ارتبطت نظريته فى التطور السياسى بنظريته عن الآثار الاقتصادية لهذا التطور » .

ثالثا : الظاهرة الثقافية : العلم والتعليم ، ويرى ابن خلدون أن العلم من طبائع العمران ، ويزدهر حيث يعظم العمران . ثم يعرض ابن خلدون لتاريخ جميع العلوم والفنون المعروفة فى عصره ، حتى فنون السحر والطلسمات والزيرجة وأسرار الحروف والطب الروحانى. ثم أفاض فى الكلام عن تاريخ التربية والتعليم عند كثير من الأمم الإسلامية فى المشرق والمغرب ، موضحاً ما ينبغى أن تسير عليه التربية والتعليم فى مختلف مراحل الطفولة والشباب .

ويقسم ابن خلدون العلوم إلى أصناف ثلاثة : علوم لسانية ، وعلوم

(١) محمد لطفى جمعة : المرجع الأسبق) ص ٣٢ .
(٢) جوستون بوتول (ترجمة عنيم عبدون) ابن خلدون ـ فلسفته الاجتماعية ص ٩٩ .

نقلية . وعلوم عقلية . أما العلوم اللسانية فهى اللغة والنحو والبيان والأدب أو الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور . ويرى أن ملكة اللسان العربى تحصل بكثرة الحفظ من كلام العرب ، ويرى أنه من النادر أن يجيد فرد واحد فى الشعر والنثر معاً ، لأنهما من الملكات ، وإذا حصلت ملكة عسر الحصول على ملكة أخرى من نوعها . وينصح المقبلون على الشعر بكثرة حفظه وكثرة نظمه . ومراجعة المنظوم بالنقد والتنقيح ، وترك الردىء منه ، والعدول عن كثرة المعانى فى البيت الواحد ، ويرى أن صناعة النثر والشعر فى حفظ الألفاظ وتركيبها ، أما المعانى فهى حاصلة لكل ذى فكر .

أما العلوم النقلية فهى مأخوذة عن الكتب والسنة ، وهى تدور حول قراءة القرآن وتفسيره ، وإسناد الحديث وتصحيحه ، واستنباط قوانين الفقه . وتشمل العلوم النقلية كتاب الله والسنة ومنها يعرف الإنسان أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه ، وعلم التفسير ، وعلم القراءات . وعلوم الحديث ، وعلم أصول الفقه الذى يعنى باستنباط الأحكام (المأخوذة من كتاب الله) من أصولها من وجه قانونى يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط : وعلم الفقه وهو معرفة أحكام الله تعالى فى أفعال المكلفين بالوجوب والحذر والندب والكراهة والإباحة ، وعلم الكلام وهو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية الرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة ، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد . ثم ضيف ابن خلدون علوم التصوف وتفسير الرؤيا . ويصف علم التصوف بأنه ناتج عن انقطاع بعض الصحابة والأئمة للعبادة وإعراضهم عن زينة الحياة الدنيا وترفها . ويصف علم الرؤيا وتفسير الأحلام بأنه معروف منذ القدم فقد فسر سيدنا يوسف عليه السلام الرؤيا ، وأن هذا العلم مبنى على قوانين وقرائن انحدرت للناس منذ القدم .

أما العلوم العقلية فهى ما يهتدى إليها الإنسان بفكره من فلسفة وعلوم ،

وتشمل هذه العلوم المنطق ، والطبيعيات ، والإلهيات ، وعلوم المقادير من عدد وهندسة وهيئة . ثم علم السحر وهو قدرة حقيقية فى بعض النفوس على التأثير فى عالم العناصر . وعلم السيمياء وهو علم حادث صدر عند ظهور غلاة المتصوفة ، وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس ، وظهور الخوارق استناداً إلى طبائع الحروف . وعلم الكيمياء وهو ينظر فى تحويل المعادن إلى ذهب ، ويرى أن هذا لا يكون إلا عن طريق السحر والكرامات ، وأن هذا معاناة بدون طائل . وعلم النجوم وهو يزعم معرفة الحوادث قبل وقوعها من معرفة قوى الكواكب وتأثيرها فى عالم العناصر ، ويرى ابن خلدون أن علم النجوم صناعة فاسدة لأن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل إذ قد تبين فى باب التوحيد ألا فاعل إلا الله .

ويقول ابن خلدون أن الفلسفة صناعة باطلة ، ويقول إن الفلاسفة يزعمون أنهم يعرفون كل شىء ، ولكن العالم أوسع من أن يستطيع عقلنا الإحاطة به ، وأنه يوجد من الكائنات والأشياء أكثر مما لا نهاية له مما نستطيع أن نعلم ، كما يقرر أن الأقيسة المنطقية لا تتفق فى الغالب مع طبيعة الأشياء المحسوسة ، وأن ما يزعمه البعض من إمكان الوصول إلى الحقيقة بمجرد استعمال قوانين المنطق ، فإنه وهم كاذب .

ورتب ابن خلدون العلوم حسب أهميتها للمتعلم فقسمها إلى أربعة أقسام : العلوم الشرعية بأنواعها ، ثم العلوم الفلسفية كالطبيعيات والإلهيات ، ثم العلوم الآلية المساعدة لعلوم الدين كاللغة والنحو وغيرهما . وأخيراً العلوم الآلية المساعدة للعلوم الفلسفية كالمنطق (١) .

ثم يعرج ابن خلدون إلى نقد طرق التعليم السائدة فى عصره ، فهو يعقد فصلا فى المقدمة عنوانه « وجه الصواب فى تعليم العلوم وطرق إفادته »(٢) . . . ويقول فيه . . . « وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا

---

(١) د. حية سنوات . المذهب التربوى عند ابن خلدون . ص : ٣٨

(٢) الفصل التاسع والعشرون من الباب السادس من المقدمة .

المعهد الذى أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون المتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلوم ويطالبونه باحضار ذهنه فى حلها ، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه ، ويكلفون وعى ذلك وتحصيله ، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون فى مبادئها ، وقبل أن يستعد لفهمها ، فان قبول العلم والاستعداد لفهمه ينشأ تدريجاً ، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا فى الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذى فوقه حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم فى التحصيل ، ويحيط هو بمسائل الفن . وإذا ألقيت عليه الغايات فى البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها ، وحسب ذلك من صعوبة العلم فى نفسه ، فتكاسل عنه ، وانحراف فى قبوله ، وتمادى فى هجرانه . وإنما أتى ذلك من سوء التعليم » (١) .

ومن قول ابن خلدون منذ حوالى ستة قرون نخرج بمجموعة من المبادىء والآراء ينادى بها رجال التربية اليوم ، ومن عبارة ابن خلدون نلمح المبادىء الآتية :

١ — ألا يتقدم للمتعلم فى بداية عهده بالتعليم المسائل الصعبة ، وأن المدرسين يخطئون إذا ظنوا فى هذا مراناً للمتعلمين . ويقول ابن خلدون إن الاستعداد للتعليم ضرورى ، وأنه يتم تدريجيا .

٢ — يتعلم الفرد البسيط الذى يستطيع عقله تقبله ثم بالتدريج والتكرار يتقدم إلى الأصعب باستعمال الأمثال الحسية أو الوسائل المعينة ، وبهذا يتم للفرد تحصيل العلوم والفنون .

٣ — يتعرض ابن خلدون إلى الآثار التى تنجم عن تكليف المتعلمين فوق طاقاتهم ، وأن ذلك ، وخاصة فى المرحلة التى لم يستعد المتعلم فيها استعداداً عقلياً مناسبا ، يؤدى بهم إلى الانصراف عن التعليم والتكاسل . ويلقى اللوم على سوء التعليم .

---

(١) المقدمة ص . ٥٣٣ — ٥٣٤ .

وفى لغة حديثة تقول إن ابن خلدون منذ ستة قرون تكلم عن الاستعداد للتعلم ، والشوق ، والتشويق ، والحوافز ، والتدريب ، والاهتمام والجهد . .

ويتكلم ابن خلدون فى تفصيل أكثر شارحا التدرج فى تلقين العلوم للمتعلمين ، ويقول إنها تحصل من ثلاث تكرارات . وهذا ما يراه ابن خلدون .

١ — . . . « يلقى عليه (المتعلم) أولا مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ويقرب له فى شرحها على سبيل الإجمال ، ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهى إلى آخر الفن ، وعند ذلك تحصل له ملكة فى ذلك العلم ، إلا أنها جزئية وضعيفة ؛ وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله (١) .

ويستخدم ابن خلدون عبارة « على سبيل الإجمال » ولعله يعنى عدم الخوض فى التفاصيل الدقيقة للعلم ، وإنما يتناول المتعلم فى بداية تعلمه العموميات المجملة التى يستطيع عقله واستعداده تحصيلها . أما عبارة « تحصل له ملكة » ، فالملكة بالفتح تعنى السيطرة على الشىء ، ولعله يقصد سيطرة وتملك المتعلم على ذلك العلم أو الفن ... ولكنه يستدرك فيقول إنها سيطرة جزئية وضعيفة ، وأن غرضها أنها هيأته لفهم الفن . ولعله يقصد بكلمة « فهم » هنا أن المتعلم أحاط بفكرة عامة عن الفن أو العلم .

٢ — ... « ثم يرجع به إلى الفن ثانية ، فيرفعه فى التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ، ويستوفى الشرح والبيان ، ويخرج عن الإجمال ، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه . إلى أن ينتهى إلى آخر الفن فتجود ملكته(٢) .

وهذه رتبة أعلى من الرتبة السابقة ، وهنا يستوفى المعلم الشرح ويخرج من الحقائق العامة المجملة إلى التفاصيل ، فهو ينتقل من العام إلى التفاصيل موضحاً لوجه الخلاف ، وعارضاً مختلف وجهات النظر .

٣ — ... « ثم يرجع به وقد شد ، فلا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا مستغلقاً

---

(١) ، (٢) المقدمة . ص : ٥٣٣ .

إلا أوضحه ، وفتح له مقفله ؛ فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته . هذا وجه التعليم المفيد . وهو كما رأيت إنما يحصل فى ثلاثة تكرارات . وقد يحصل للبعض فى أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه » (١) . وفى هذه المرحلة الثالثة لا يترك المعلم عويصاً ولا مبهماً غامضاً إلا أوضحه وشرحه حتى يتمكن المتعلم من الفن أو العلم تمكناً يرضى معلمه . وبحكمة واضحة يحترس ابن خلدون فيقول إن بعض المتعلمين قد يستولون على ملكة الفن فى أقل من ثلاث تكرارات وذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه . ولعل ابن خلدون هنا يتكلم بما نطلق عليه من اصطلاحات عصرنا « الفروق الفردية » .

وفى فصل من المقدمة تحت عنوان « كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم » يقول .. « ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء فى العلوم ، يولعون بها ، ويدونون منها برنامجاً مختصراً فى كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار فى الألفاظ وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة من ذلك الفن . وصار ذلك مخلا بالبلاغة ، وعسراً على الفهم . وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة فى الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ ، كما فعله ابن الحاجب فى الفقه وأصول الفقه ، وابن مالك فى العربية ، والخونجى فى المنطق ، وأمثالهم . وهو فساد فى التعليم وفيه إخلال بالتحصيل ؛ وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدىء ، بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد ، وهو من سوء التعليم كما سيأتى (٢) . ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعانى عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها ، لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك عويصة ، فينقطع فى فهمها حظ صالح من الوقت . ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم فى تلك المختصرات ، إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة . فهى ملكة قاصرة

---

(١) المقدمة . ص : ٥٣٣ .

(٢) هذا الفصل سابق الفصل الذى عنوانه « وجه الصواب فى تعلم العلوم وطرق إفادته » وهو الفصل الثامن والعشرون من الباب السادس .

عن الملكات التى تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع فى تلك التكرارات والإحاطة المفيدين لحصول الملكة التامة.. فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها » (١) .

ومرة أخرى يتناول ابن خلدون مسألة الاستعداد عند المبتدىء وكيف أن هذه المختصرات المخلة تضر بالعلم والفن ، فهى صعبة فى فهمها ، ولايسيطر المتعلم على العلم من مجرد حفظه هذه المختصرات . ويعيب ابن خلدون على الحفظ عند المتعلمين وخاصة حفظهم هذه المختصرات ، لأنها لا تحقق لهم تحصيل الملكات النافعة لهم . ولعل ابن خلدون يقصد شيئاً أعمق من مجرد أن تكون وظيفة التعليم تحفيظ المتعلم غايات العلم وأن تركز له هذه المختصرات التى تتكون من ألفاظ قليلة محشوة بالمعانى الكثيرة .

ويتدرج ابن خلدون فى فصول لاحقة وسابقة من مقدمته فى قسمها الخاص بالتعليم فيوضح لنا أسساً اعتقد أنه سبق بها زمانه بمئات السنين . ومن هذه الآراء :

ـ يكره ابن خلدون كثرة التأليف فى العلوم لأن هذا عائق عن التحصيل ، فيقول .. « إعلم أنه مما أضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف ، واختلاف الاصطلاحات فى التعليم ، وتعدد طرقها ... » ولعل ابن خلدون يرمى إلى التيسير على المتعلمين فى سنيهم المبكرة فلا يضيع الواحد منهم فى غمرة الآراء الكثيرة والاتجاهات المختلفة . وقد يصح أن تكثر المؤلفات فى مراحل التعليم العالية حيث يكون طالبو العلم أكثر استعداداً .

ـ يرى ابن خلدون عدم تقديم دراسة القرآن للأطفال على غيره من المواد ، وهى الطريقة التى كانت سائدة فى عصره . فيعقد فصلا عنوانه

(١) المقدمة .. ص ٥٣٢

« تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية فى طرقه » (١) ، فهو يستحسن ألا يتعلم الطفل القرآن من حداثته وذلك لقلة إدراك الصغار وفهمهم لما فيه من معانى سامية . ويرى ابن خلدون أن يؤجل درس القرآن وحفظه إلى أن يصل الفرد إلى سن مناسبة ومستوى من التفكير يجعله قادراً على فهم معانيه.

— يعقد ابن خلدون فصلا عنوانه « الشدة على المتعلمين مضرة بهم » (٢)

ويقول فى هذا الفصل .. « وذلك أن إرهاف الحد فى التعليم مضر بالمتعلم ، سيما فى أصاغر الولد ؛ لأنه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس انبساطها ، وذهب بنشاطها ودعا إلى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفاً من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعمله المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقاً ، وفسدت معانى الإنسانية التى له من حيث الاجتماع والتمرن ، وهى الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالا على غيره فى ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فارتكس وعاد فى أسفل السافلين ، وهكذا وقع لكل أمة حصلت فى قبضة القهر ، ونال منها العسف واعتبره فى كل ما يملك أمره عليه ، ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به تجد فى ذلك استقراء .. وانظره فى اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء ؛ حتى أنهم يوصفون فى كل أفق وعصر بالحرج ، ومعناه فى الاصطلاح المشهور التخابث والكيد ، وسبق ما قلناه . فينبغى للمعلم فى متعلمه ، والوالد فى ولده ألا يستبدا عليهما فى التأديب » (٣) .

وهكذا يعطينا ابن خلدون أسساً رائعة فى معاملة الأطفال ، ويربط بالتشبيه بين الفرد والمجتمع معطياً مثلا من اليهود الذين فشا فيهم خلق السوء.

---

(١) الفصل الواحد والثلاثون من المقدمة .

(٢) الفصل الثانى والثلاثون من المقدمة .

(٣) المقدمة . ص : ٥٤٠ .

ويتكلم عن اثر القهر فى النفس وكيف يسود حياة صاحبها ويذهب بنشاطها ويدعوه إلى الكسل ويحمله على الكذب . وقد اهتم علماء النفس الحديثين بالاهتمام بمعاملة الأطفال حتى لا تكون تربيتهم مؤدية إلى تكوين عقد نفسية يعانون منها فى طفولتهم وكبرهم . ويرى ابن خلدون أن الشدة على الأطفال تدعوهم إلى أساليب يطلق عليها اليوم (انحرافية أومرضية) كالمكر والخبث والخديعة .

— وينصح ابن خلدون ألا تطول الفترات بين الدروس ، إذ أن فى التقطيع مدعاة لأن ينسى المتعلم ما درسه لطول الفترة بين الدرس والآخر . وقال إن مواصلة الدروس يربط بينها وبين بعضها ويساعد على أن تتم عملية التعلم فى وقت أقصر ، وبطريقة أصح وتأتى بنتيجة أفضل (١) . ويقول فى هذا الصدد .. « ينبغى ألا تطول على المتعلم فى الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها » .

— ويقول ابن خلدون إن تعليم اللغة — الذى يجب أن يكون أساساً لتعلم سائر العلوم — يبدأ بتعلم الكتابة والقراءة ، ثم تربط الألفاظ بالمعانى ، ثم ينتهى بالتجريد والربط بين المعانى المختلفة وبين بعضها ، ويقول فى ذلك .. « فأولا دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهى أخفها ، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعانى المطلوبة ، ثم القوانين فى ترتيب المعانى للاستدلال فى قوالبها المعروفة فى صناعة المنطق ، ثم تلك المعانى مجردة فى الفكر إشراك يقتضى بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله » .

ومن رأى ابن خلدون أن الفرد يستطيع التعبير عن آرائه بطريقة أحسن وأفصح إذا استخدم لغته الدارجة التى يعترفها ويجيدها ، وبها يستطيع أن يصب معانيه ومشاعره وأفكاره فى ألفاظ . وينصح لذلك بتعليم اللغات الدارجة إلى جانب اللغة العربية الأصلية وهى لغة مضر .

---

(١) فتحية سليمان : المرجع الأسبق . ص : ٥٥

— ويفرق ابن خلدون بين التعليم النظرى والتعليم العملى (١) . فالتعليم النظرى أرقى من العملى لأنه يحتاج إلى استعمال الكتابة ... والكتابة من بين الصنائع الأكثر فائدة » وهو يقصد فائدة للنمو العقلى . والتعليم النظرى أرقى لأن فيه انتقالا من .. « الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية فى الخيال ، ومن الكلمات اللفظية فى الخيال إلى المعانى التى فى النفس فتحصل ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات » .. أى أن التعليم النظرى يحتاج إلى تكوين مدركات كلية مجردة ، وإلى تطبيق هذه المدركات فى شتى الشئون .

رابعاً : الظاهرة السياسية : الملك

ويرى ابن خلدون أن الملك مظهر من مظاهر السلطة المرافقة لكل مجتمع ، ولهذا فلم يقم ملك إلا بعصبية وغلب . ولا يحبذ قصر الخلافة على قريش أو على واحد ويصف من يقول بهذا بأنه ضال . ويقول إن من طبيعة الملك الاستئثار بالسلطة والانفراد بالمجد ، والترف والسكون ، ويقول إن الترف يحصل عن فتح يتم ومال يجمع ومغلوب يقلد ، ويدعو إلى السكون راحة من جهاد وجنى لثمرات الملك ، واستقرار فى تصور ، واستمتاع بنعيم الدنيا .

وقد يكثر صاحب الملك من الضرائب ، وهذا يفقر الرعية ويدفع بها إلى الكسل . وهذا يؤدى إلى قلة المال وقلة الجباية وافتقار السلطان الذى أكثر من الضرائب من كثرة الترف . ويرى ابن خلدون أن للدولة عمراً طبيعياً لا تتعداه هو عمر الفرد الطبيعى (٢) ... « وتستمر الرياسة ثلاثة أجيال ثم تهرم ، وهذا هو قانون الأجيال الثلاثة : حداثة وشباب وهرم ، يخضع له الفرد ، ورياسة القبيلة ، وملك الدولة » .

ويمضى ابن خلدون فى كتابه « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » وفى (الكتاب) الثانى تبدأ الموسوعة التاريخية ويتحدث فيها عن أخبار الأمم

---

(١) فتحية سليمان : المرجع الاسبق . ص : ٦١ .

(٢) عمر الفرد الطبيعى فى رأى ابن خلدون ١٢٠ عاما أى ثلاثة أجيال .

الأخرى من أفرنجية وتركية . ثم تأتى أخبار البربر فى (الكتاب) الثالث الذى يختتمه بالتعريف عن نفسه ، أو كما يطلق عليه حديثاً بالأوتوبايوجرافى Auto - piography . وقد أورد ابن خلدون تاريخ حياته فى كتابه « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » ، على أن التاريخ لحياته تضمن أيضاً ذكر ما مر به من حوادث وتفصيل عن بعض الخطب والرسائل والقصائد ، ثم هو يصف المجتمعات التى عاش فيها ، كما يشتمل هذا الكتاب على بحوث تاريخية لبعض الدول فى المغرب الأدنى والأوسط والأقصى والأندلس وسلاطين المماليك والأيوبيين فى مصر وغيرهم . وفى الكتاب تحقيق لحالة الفساد التى سادت القضاء المصرى . وقد ظهر لنا هذا جلياً فى حديثنا عن حياة ابن خلدون فى زمن إقامته فى مصر . وقد نشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر هذا الكتاب فى مصر عام ١٩٥١ .

وبين القسم الأول من كتابه « كتاب العبر » وهو المقدمة التى تعرضت إليها سابقاً ، والقسم الأخير من الكتاب وهو التعريف بنفسه ، يقع ما كتبه ابن خلدون عن التاريخ وقد قسم كتابه إلى فصول متصلة متداخلة . وقد تتبع تاريخ كل دولة على حدة من البداية إلى النهاية ، ومع الاهتمام بما بين الدول من صلات ، وهو بذلك ينهج نهج سابقيه ممن عمدوا إلى الكتابة فى صورة جداول تاريخية مرتبة حسب السنين .

ولابن خلدون نظرية فى التأريخ وفلسفته فهو يرى أن المجتمع يخضع لتطور حتمى يشمل درجات متنوعة ، فمجرد أن يصل المجتمع إلى أعلى درجة من الكمال تتيحها له طبيعته فان الانهيار يبدأ ويودى بالمجتمع شيئاً فشيئاً حتى يسقط تماماً . وهذا السقوط فى نظر ابن خلدون يعنى حلول أسرة حاكمة محل أسرة أخرى . ويتميز تاريخ ابن خلدون بالدقة والأصالة العلمية ، فقد وصف أحد علماء الغرب فى العصر الحديث واسمه دوزى رواية ابن خلدون عن تاريخ النصارى فى أسبانيا بأنها « منقطعة النظير » . ولا يوجد فى بحوث علماء الغرب المسيحيين فى العصور الوسطى ما يستحق أن يقارن بها ، وأنه لم يوفق

أى عالم من هؤلاء إلى تدوين التاريخ عن هذه الدول فى مثل الدقة والوضوح اللذين يتسم بهما تاريخ ابن خلدون (١) » .

أما عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية فقد اهتم الغربيون بها كل الاهتمام ، فيقول دى بور الهولندى إن ابن خلدون أول من حاول أن يشرح بإفاضة تطور المجتمع وتقدمه لأسباب وعلل معينة (٢) . كما يقول الاجتماعى للنفيج جمبلوفتش إن ابن خلدون أول من اهتدى إلى نظرية الأجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الأسر وانحلالها قبل أن يعرضها أوتوكارلورنتس فى أواخر القرن التاسع عشر . ويذكر جمبلوفتش أن أقوال ابن خلدون عن الوسط ومؤثراته يدل على أنه عرف « قانون التشبه بالوسط » قبل أن يعرفه داروين بخمسة قرون . ويبدى الاجتماعيون إعجابهم فيما يقوله ابن خلدون عن تشبيه الإنسان بالحيوان فى الخضوع للقوانين الاجتماعية العامة مما يدل على أنه عرف مبدأ « وحدة المادة » قبل أن يعرفه هيجل .

ويقول جوستون بوتول (٣) إن حب ابن خلدون للشئون العسكرية جعله يخصص فى المقدمة عدة أبواب للاستراتيجية ، ثم يقارن بينه وبين ماكيافيللى الفلورنسى ، فيقول إن ماكيافيللى أيد ابن خلدون فى قوله عن نظرية الجيوش القومية التى تدافع عن أرضها — فقد كان المعروف وقتئذ أن الحرب يقوم بها الجنود المرتزقة ، وقدم للإمارة عدة مشروعات لتنظيم الجند ، ولكنه لم يضع — مثل ابن خلدون — نظرية عامة للعصبية ولتماسك المجتمعات .

ويقول بوتول أيضاً إن روسو رأى كما رأى ابن خلدون أن سكان المدن

---

(١) على عبد الواحد وافى : (المرجع الأسبق) ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) محمد عبد الله عنان : (المرجع الأسبق) ص : ١٥٠-١٥١ .

(٣) جوستون بوتول : (المرجع الأسبق) ص : ١٢٤ .

يتكونون من رجال أفسدتهم الحضارة . ويقول شميدت الأستاذ بجامعة كورنل بأمريكا إن ابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف اجتماعي يوضع فى صف واحد مع أبرز المؤرخين والاجتماعيين (١) . ويرى شميدث أن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع قبل أوجست كونت بعصور طويلة ، وأن ابن خلدون ذهب فى تفكيره إلى حدود لم يذهب إليها كونت .

(١) محمد عبد الله عنان : (المرجع الأسبق) ص : ١٥٧ - ١٥٩

الفصل السابع
التربية فى العصور الحديثة
مدخل

... ويمضى الفكر التربوى فى رحلته الطويلة عبر الأجيال ، تارة تحجبه غيوم من الركود خلقتها أحوال سياسية أو عسكرية أو اقتصادية ، وتارة تنقشع هذه الغيوم فتسطع نجوم زاهرة تلقى أفكارها وفلسفتها إلى البشرية والمدنية مؤملة خيراً ورشداً وتقدماً .

... وبينما بدأت أوروبا تنفض عن نفسها غبار قرون تراكم على مناشطها المختلفة ، كان التثاؤب بدأ يسرى كسلا فى أوصال الحضارة العربية ، وتهب جيوش من المغول والتتار تارة ، ومن العثمانيين أخرى ، ثم أعاصير من نزعات داخلية وتفتتات أصابت جسم الأمة العربية بالتمزق والوهن حتى غمرتها طبقات من رمال الركود ، وراحت فى سبات عميق لم تدر معه ما كان يدور بالغرب ، بل لم تسمع فى نومها طلقات المدافع وانفجارات البارود .

... وكنا تركنا الغرب ويممنا شرقاً لننهل من حكمة بعض فلاسفة العرب ، ونعرف عن التربية الإسلامية ، فحق علينا ، وقد نامت الأمة العربية .... أن نجد أنيساً وجليساً مع الأمم الغربية فى أوروبا وقد صحوا من نوم عميق ليبدءوا مع شروق شمس حضارتهم عصراً جديداً ، وقد تخير له المؤرخون إسم « عصر النهضة » .

ويطلق « عصر النهضة » على الفترة الزمنية فى أوروبا بين القرن الرابع عشر والسادس عشر . وكلمة Renaissance تعنى المولد الجديد ، وهذا يشير إلى بعث الروح القديمة الكلاسيكية ، بعثها إلى الحياة على دعامات الفلسفة الإغريقية .

مرحلة انتقال

أمضى الإنسان الأوروبى ثلاثة قرون محاولا التخلص مما كسا عقله وصبغ تفكيره خلال العصور الوسطى . وشهدت الفترة بين القرن الرابع عشر والسادس عشر حركات جريئة تحدى فيها العقل الأغلال التى صفدته طويلا ، تحدى فيها الفلاحون والأقنان سادتهم وثاروا عليهم ، تحدى فيها العامة رجال الدين ورفضوا سطوتهم وسلطانهم بل تحدى الملوك سلطة الكرسى البابوية ...

وتعتبر هذه القرون مرحلة انتقال بين تربية العصور الوسطى وتربية العصور الحديثة ، بل إنها الفترة التى بذرت فيها بذور التربية الحديثة :

أولاً : عصر النهضة

قبل أن نتحدث عن التقدم التربوى فى عصر النهضة جدير بنا أن نلقى نظرة سريعة على مظاهر الحياة السائدة فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر فى أوروبا :

١ — نمت السلطة السياسية المركزية للحكام فى إنجلترا وفرنسا ، وبذلك كان النظام الإقطاعى يخلى السبيل للمؤسسات المركزية أى للحكومة القومية فى الدولة . ولكن الحال فى ألمانيا وإيطاليا ظل يعج بالفوضى نتيجة انقسام كل منهما إلى دويلات وإمارات . كما أن النظام السياسى فى انجلترا وفرنسا ساعدهما على تكوين امبراطوريات استعمارية . وقد عرفت أوروبا حروباً عديدة خلال قرون النهضة الثلاثة ، ولعل أشهرها حرب المائة عام التى بدأت بين فيليب الرابع ملك فرنسا وإدوارد الأول ملك انجلترا ، واستمرت هذه الحروب من ١٣٣٧ إلى ١٤٥٣ ، فقد رفض ملوك فرنسا أن يكون لملوك انجلترا أية سيادة على أرض القارة الأوروبية خارج الجزر الإنجليزية :

٢ — نمت التجارة التى بدأت فى الازدهار خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وكانت مدن إيطاليا وشمال ألمانيا مراكز هامة للتجارة ، ولكن تغيرات حدثت خلال القرن السادس عشر بعد اكتشافات فاسكودى جاما ، وكريستوفر كولمبس ، وما جلان ، فقد ظهرت آفاق جديدة للتجارة عبر المحيطات بعد أن كانت قاصرة على البحار مثل المتوسط والبلطيق والشمال . وازدهرت صناعة السفن وحرف كثيرة مرتبطة بالبحر والملاحة .

وبدأ تأثير الطبقة المتوسطة السياسى يظهر فى البرلمان الإنجليزى وفى السياسة الفرنسية وفى المدن الإيطالية الكبرى مما عكس صورة عن الثروة المتزايدة والقوة الاقتصادية النامية لدى جماعات التجار وهم الذين عرفوا باسم البرجوازيين ، والذين تجمعوا فى المدن الكبرى .

وعرف عن عصر النهضة كثرة ثورات الفلاحين الدامية . كما ازدحمت المدن بالسكان تحت ظروف غير صحية ، وانتشرت المجاعات وقتل الموت الأسود ملايين البشر . وقدأدى هذا إلى الإلحاح فى مزيد من الأيدى العاملة مما دعا إلى تحرير أعداد غفيرة من الأقنان من القيود الإقطاعية التى فرضت عليهم . وقد ثار الفلاحون فى إنجلترا فى القرن الرابع عشر ، حتى تمكن معظم الفلاحين من التمتع بحريتهم فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ، وتحول بعضهم إلى عمال فى المدن . أما ثورات الفلاحين فى ألمانيا فكانت أشد عنفاً ، وهاجم أحد أنصارهم وهو هانز بوم سنة ١٤٧٦ نظام الضرائب والإلتزامات المفروضة عليهم ، كما هاجم رجال الدين قائلا إذا كان كل الناس إخوة فعليهم أن يتقاسموا خيرات الأرض ونتاجها . وقبض عليه وحرق ، ولكن الثورة اشتعلت من ١٤٩٢ إلى ١٥٢٥ على ركيزة من التفكير الاشتراكى ومطالبة بأن تكون الغابات والمجارى المائية مشاعاً فلا تقتصر على الاستخدام الشخصى لطبقة النبلاء .

٣ — نمت الحركة المضادة للبابوية خلال عصر النهضة . فوقف فيليب الرابع ملك فرنسا وجهاً لوجه أمام البابا بونيفاس الثامن . فقد أصدر البابا

قرارات بألا يدفع رجال الدين ضرائب للملوك وألا يحاكموا أمام محاكم مدنية وأن له هو السلطة العليا على كل الحكام ، وأعلن عزل فيليب الرابع . فأرسل له فيليب جيشاً صغيراً قبض على البابا وطالبه باعتزال كرسى البابوية . ومات البابا بونيفاس بعد قليل وسقطت هيبة البابوية . ولمدة سبعين سنة احتل كرسى البابا الفرنسيون الذين يتلقون أوامرهم من فرنسا الأمر الذى لم يرض كبار رجال الدين فى روما وحدث انشقاق ثم محاولات لدرء الانقسام الدينى . ثم ظهرت زعامات دينية وحركات انفصالية خلال القرن السادس عشر منها حركة مارتن لوثر وحركة كلفن ، وعادت إلى البابوية سيادتها فى نطاق الكنيسة الرومانية الكاثوليكية .

ومع بداية القرن السادس عشر كانت الهجمات على الكنيسة تزداد من كل اتجاه ، فالملوك والحكام يريدون بسط نفوذهم على الكنيسة ، كما ثار الفلاحون معترضين ومعهم أفراد الطبقة الوسطى على الضرائب التى تفرضها الكنيسة ، وكانوا يصيحون أن رجال الكنيسة غرتهم الدنيا والغنى والمال فأهملوا واجباتهم الدينية . ولم تعجب الكثيرين الطرائق التى لجأت إليها الكنيسة فى الحصول على المال فللغفران صكوك تباع ، وللرجل أن يقترف الخطيئة ثم يدفع قدراً من المال فيعود طاهراً كأنه لم يقترفها . . . وتعالت صيحات الاحتجاج على الكنيسة من مختلف أركان أوربا .

٤ — نمت حركة تحول الاهتمام من روحانيات العالم الآخر ومن خوارق الطبيعة إلى العالم الطبيعى ، وبدأ الناس يدرسون الطبيعة وظواهرها وأن لها قوانين تسيرها ويمكن معرفتها . وبهذا بدأ التحرر من الاتجاهات السابقة المؤمنة بقوة إلهية لا سبيل إلى إدراكها ، وبدأ العلم الحديث يأخذ شكل معتقدات وافتراضات مثل : التأكد من أن أسرار الطبيعة يمكن الكشف عنها ، الاعتقاد بأن « العلم » يعنى أننا نتعلم بملاحظتنا للطبيعة لا بأنه المعرفة التى انحدرت إلينا من الماضى . وأخيراً تطور طريقة الحصول على المعرفة وهى ملاحظة الطبيعة وجمع الحقائق والتحقق الموضوعى منها واستخدام العمليات

الرياضية ، ثم أخيراً تطبيق النتائج على الطبيعة . ولم يقدم لنا عصر النهضة تقدماً فى العلم يقاس بما حققه القرنان السابع عشر والثامن عشر ، ولكنه أرسى دعائم التقدم العلمى وهز أركان السيطرة الدينية عليه ، وجعلها تسير حثيثاً فى طريق الضعف .

٥ — نمت دعوة الحركة الطبيعية التى تقول بأن للطبيعة البشرية صفات للخير متضمنة فيها . وكانت هذه الحركة تحدياً صارخاً لمذهب الخطيئة المتأصلة والتأكيد على الشر الفطرى فى الطبيعة البشرية . وقد قال البعض إن الخير ممكن بين الشعوب البدائية بدون بركات الدين والمدنية . وكانت هذه الحركة التفاؤلية عن الطبيعة البشرية ركيزة لآراء مفكرين فى العصور التالية منهم روسو .

٦ — نمت الاهتمامات بالأدب الكلاسيكى القديم ، فنقرأ عن الحركة الانسانية Humanism (١) وشغفها العميق باللغات القديمة وإدابها مع احتقارها لما عدا ذلك . ولكن الإنسانيين لم يهاجموا الكنيسة ولا الدين ولا النظم السائدة منذ العصور الوسطى ، ولم يعنوا بالبحث فى الطبيعة ، ومع ذلك فقد اهتموا بالطبيعة البشرية وبفردية الإنسان وهاجموا خضوع الفرد لمطالب المؤسسات كالكنيسة والنقابة ، ووجدوا أن الطريق إلى كمال الطبيعة البشرية هو دراسة الآداب القديمة . وظهرت تباشير حديثة ممتزجة مع روح القرون الوسطى فى « الكوميديا المقدسة » لدانتى . ومن رواد الحركة الإنسانية بترارك Petrarch الإيطالى (١٣٠٤ — ١٣٧٤) وقد أطلق عليه لقب « أول رجل حديث » وكان مفتوناً بشيشرون الرومانى وكتاباته التى مرت عليها قرون طويلة .

ومن رواد الانسانيين بوكاشيو Bocacccio الإيطالى (١٣١٣ — ١٣٧٥) الذى أبقى فى منزله يونانياً ليقرأ له أشعار هومر . وكان بوكاشيو جماعاً للمخطوطات الإغريقية وشروحها ، وكان يدرسها ويعلق عليها ، ويذكر أنه أنشأ كرسى دراسة الأدب الإغريقى فى فلورنسا عام ١٣٥٠ (١) .

---

(١) McCormic, op· cit,p.322

ومن كبار المنادين بالحركة الانسانية إيرازمس الهولندى Erasmus (١٤٦٦ – ١٥٣٦) الذى درس الآداب القديمة ودرس فى جامعة كامبردج وجامعات فرنسا وكتب مؤلفات لعل أشهرها وأهمها « تمجيد السذاجـة » Praisof Folly « والمحاورات » Colloquies « والحكم والأمثال » Adages

الاتجاهات التربوية فى عصر النهضة

كان لابد أن تتأثر التربية بما أصاب المجتمع فى عصر النهضة من تغيرات جعلته مجتمعاً يختلف عن مجتمع العصور الوسطى . ويمكن القول إن التربية (الحديثة) التى حتمها مجتمع عصر النهضة تختلف جذرياً عن التربية (القديمة) فى تأويلها للفلسفة الإغريقية ، فأصبح لأفلاطون مكانة أسمى من مكانة أرسطو ، كما أفسح الطريق لدراسة آداب الإغريق والرومان على أساس أنها تعبر أصدق تعبير عن خير ما فى الإنسان والطبيعة ، واهتمت التربية الحديثة بما فى الآداب الكلاسيكية من قوة التعبير وجمال الصياغة والحرية والانطلاق . ويذكر أن من أسباب الانطلاقة الفكرية والحرية من القيود العقلية ما أنتجته الحروب الصليبية وخاصة من ناحية الاحتكاك بالشرق الإسلامى ، هذا إلى جانب ما أسهمت به الجامعات فى إذكاء للفكر المتحمس الحر الذكى المنطلق . ولا ننسى قيام الطبقة البرجوازية فى المدن الكبرى . وكذلك كان لاختراع البارود أثره فى أن جعل فى إمكان الرجل العادى أن يتحدى السلطة التى تعتمد على القوة المادية . كما أن اختراع الطباعة مكن للمعرفة أن تنتشر وألا تكون حكراً لفئة قليلة . وكانت هذه الفئة – فى العصور الوسطى – تحتكر التفكير وتقصره عليها ، ولذلك كانت هنالك وحدة فكرية تفتتت فى عصر النهضة :

وبدأ إنسان عصر النهضة يجد شخصيته التى تاهت منه فى ظلام العصور الوسطى ، وبدأ يحس بامكانية التعبير عن نفسه . وبهذا بدأت تظهر تيارات فكرية حلت محل ركود وجمود قرون طويلة مضت . على أن هذه القيادات الفكرية لم تأخذ سبيلها المنتظم المتسق ، فقد ظهرت فى بدايتها أمواج عاتية

عالية ذات صبغة فردية متطرفة ، ثم تحولت تدريجيا إلى حركات نظامية ؛ بل إلى أنماط من المدارس الفكرية . ويرى منرو أنه تتمثل فى عصر النهضة ثلاث نواح من الاهتمامات كانت مجهولة فى العصور الوسطى ، وأنها فتحت ثلاثة من ميادين الحياة أو مظاهرها كانت مطوية تقريباً تحت صدأ العصور الوسطى ، وهذه النواحى هى :

١ — اهتمام بالحياة الماضية الحقيقية وإمكاناتها كما عبر عنها الإغريق والرومان فى آدابهم وفنونهم ، بينما تناسى مجتمع العصور الوسطى هذه الحياة بل لم يلقوا إليها اهتماماً يذكر .

٢ — اهتمام بالعالم الشخصى وهو عالم الانفعالات والاستمتاع بالحياة وتذوق ما فيها من جمال ، وإدراك حقائق النفس البشرية ، ويتم هذا بالمشاركة فى كل مناحى النشاط الحيوى التى تحيط بالفرد حتى يتثقف ذاتياً . وقد أهملت العصور الوسطى هذا الاهتمام ، بل جهلته .

٣ — اهتمام بالعالم الطبيعى ، فقد أهملت العصور الوسطى هذا العالم بل رأت المسائل الطبيعية غير جديرة بأى اهتمام .

وقد أدت هذه الاهتمامات الثلاث إلى اتجاهات نحو التثقيف الذاتى والنمو الشخصى ومحاولة الوصول إلى تربية مركزها النفس البشرية ، وإلى الاهتمام بالحياة الدنيا .

كما أدت هذه الاتجاهات إلى بعث للفلسفة الإغريقية وإعادتها إلى الحياة بعد ما أضفاه عليها الشراح من فلاسفة العرب ، وخاصة فلسفة أرسطو . وكان الاهتمام موجها إلى مبادىء أرسطو الطبيعية أكثر من الاهتمام بالجزء الخاص فى فلسفته عما وراء الطبيعة . ويتميز عصر النهضة بالعناية بالناحية الفردية وبالميل إلى الحقيقة المادية ، ومن ثم إلى الناحية الجمالية .

المدلول التربوى للنهضة : الحركة الانسانية

فى إيطاليا : كتب أحد أساتذة جامعة پادوا رسالة فى التربية عام ١٣٧٤ صور فيها الهدف من التربية ، فقال إننا لا نطلق على الدراسات اسم الدراسات

الحرة إلا إذا كانت جديرة بالرجل الحر ، وبها يمكن أن ندرك الفضيلة والحكمة ونمارسهما . وفى رأيه أن هذه هى التربية التى تعمل على استدعاء وتدريب وتنمية أعظم المواهب العقلية والجسمية التى تشرف الإنسان . ويرى فيرجيريو Pierpaolo vergerio أن الغرض من الحياة لدى صاحب المزاج العادى هو اللذة والكسب ، وأما صاحب الطبيعة الراقية فيهدف إلى القيم الخلقية والشهرة (١) .

وفيرجيريو إيطالى من أنصار الحركة الإنسانية ، وزامله فى المناداة بهذه الاتجاهات الإنسانية وتأييدها فى إيطاليا فيتورينو Vittorino وسيليفياس Sylvius وكاستيليونى Castiglione . وغيرهم . وقد تكون بينهم اختلافات ولكنهم يشتركون فى أن أهداف التربية هى (إنتاج (الفرد صاحب الثقافة الواسعة ذى الشخصية المتزنة المتكاملة ، القادر على تبوء القيادة فى الكنيسة والدولة . وعليه أن يلم بالأدب الكلاسيكى ، وأن يكون فى نفس الوقت إنساناً مسهماً فى مجتمعه ، قادراً على أن يعبر عن نفسه بالشعر ، مستطيعاً الغناء والرقص ، يتمتع بصحة جيدة ، وأن يكون مسيحياً مهذباً (٢).

وأما عن تعليم البنات ، فقد رأوا أن المرأة المثالية هى التى تتحلى بالصفات التى تناسب تلك الشخصية الذكرية التى هدفوا إليها ، ولكنهم لم يعطوا أسلوباً منهجياً لإعداد مثل هذه المرأة .

ولعل تحليلا لمقومات تربية هذه الشخصية التى هدف إليها الإنسانيون Humanists ترينا أنهم ضمنوها كل القيم الممكنة ، فهذه الشخصية قادرة فى الأدب والفن والحياة الاجتماعية . . . ولم يعن الإنسانيون ، على عكس التربية القديمة ، عناية كافية بالرياضيات والتاريخ الطبيعى . . . وأهملوا تماماً اللغة الدارجة . ودرسوا التاريخ والأخلاق من كتابات القدماء أنفسهم .

أما عن طرق التدريس فقد اهتموا بالحفظ والاستظهار ، ولكنهم فضلوا

---

(١) McCormick, op. cit., p. 326

(٢) Butts, op. cit., p. 227

أن يفهم الطالب القواعد أثناء دراستها . بل اهتم الإنسانيون بما بين التلاميذ من فروق . ولكنهم لم يتركوا ما يستدل منه عن كيفية تطبيق هذا على دراسة أدب شيشرون أو فرجيل . ونصح الإنسانيون بالتقليل من العقوبات البدنية ، وحرصوا على تشجيع تنافس التلاميذ فى عملهم لاكتساب إعجاب المجموعة .

ومع تقدم الإيطاليين فى فن المعمار وهندسة البناء والزخرفة . فان الحركة الإنسانية فى التربية لم تسهم بشىء يذكر فى هذا السبيل ، فلم تكن هذه من الفنون العقلية الحرة فى نظرها .

فى فرنسا : على أن حركة الإنسانيين الإيطاليين وهم رواد حركة النهضة تخطت الحدود الجغرافية وانتشرت فى أنحاء أوروبا حاملة معها شعلة التفكير الحر . وقد زار بترارك الإيطالى باريس عام ١٣٦١ م ، وقد صاحبه فى الزيارة قس فرنسى . ويذكر أن المخلفات الأدبية الكلاسيكية ترجمت إلى الفرنسية فى أيام حكم شارل الخامس (١٣٦٤ — ١٣٨٠) . وكان Jean de Montreuil (١٣٥٤ — ١٤١٨) أول الإنسانيين الفرنسيين ، وكان مبعوثاً ملكياً فى روما ، وصديقاً لعديد من الإنسانيين الإيطاليين .

وكان لجامعة باريس دور فى الحركة الإنسانية . فقد درست بها كتابات الكلاسيكيين ، كما عين بها أستاذان لتدريس الإغريقية . كما أن انتشار الطباعة ساعد على قراءة المخلفات الكلاسيكية . وكان أول كتاب طبع فى فرنسا فى عام ١٤٧٠ هو (خطابات جازبارينو دى بارز يزا Gasparino de Barzizza)(١) وهو أحد الإنسانيين الإيطاليين الأوائل .

وتؤرخ الحركة الإنسانية فى فرنسا منذ القرن السادس عشر ، ومن روادها وحملة لوائها Guillàume Budé زميل ايرازمس . وقد درس بودية القانون ثم اتجه إلى الآداب ، وعلم نفسه اليونانية ثم اللاتينية .

وأشهر مقالاته التربوية التى ظهرت بالفرنسية هى De l'Institution du Prince (تربية الأمير) ، وقد وجهها للملك الصغير فرنسيس

---

(١) McCormick, op. cit., p. 346

الأول ، لتهذيبه الشخصى وتذوقه الأدبى ، وفى نفس الوقت ليحمى الأدبا ويرعاهم .

ولعل أشهر مؤلفى فرنسا فى عصر النهضة هو رابليه Rabelais الذى سخر من مدارس عصره ووصفها ناقداً فى صورة كاريكاتورية ضاحكة فى مؤلفه Gargantua et Pantgruel وكتبه بالفرنسية ، وساعدت الطباعة على انتشاره . وقد سخر رابليه من غلبة الشكلية على المدارس الإنسانية ، كما تهكم على التربية (القديمة) ، وقارن بينها وبين الاتجاهات الواقعية (الحديثة) .

وقد عضد الكلاسيكيات ، ولكنه أصر على ضرورة توجيهها للسلوك . فلا تقتصر على النواحى اللغوية والأدبية : وقد اقترح رابليه منهاجا اشتمل على مواد كثيرة ، منها اللغات اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية ، والعربية ، والنحو ، والحساب والهندسة ، والعلوم الطبيعية ، والتربية البدنية . . . .

فى انجلترا : ظهر من أبنائها رواد فى الحركة الإنسانية منهم ليناكر Lincare وتشيك Cheke وليلى Lilly وكوليت Colet وآسكام Ascham الذى كتب رسائل عن التربية باللغة القومية : وقد خلف آسكام أستاذه تشيك فى كرسى اللغة اليونانية فى جامعة كمبردج ، كما عين مثقفاً للأميرة اليزابيث قبل أن تصبح ملكة . وقد كتب آسكام رسالة فى التربية سماها المعلم The School Master . وملخص فكرته عن التربية أنها ثقافة تهدف إلى غرس الفضيلة والتهذيب الخلقى والكفاءة العملية . وترى أن الوصول إلى هذه الأهداف يكون عن طريق الأدب . وقد عارض آسكام فى استخدام العقوبات البدنية إلا فيما يتعلق بالهفوات الخلقية .

ومن رأى آسكام أن التقليد والتكرار مهمان . ويرى أن يكرر الدرس حتى يتمكن منه المتعلم . كما رأى أن يتعلم المتعلم أولا لغته القومية (الإنجليزية) ثم يترجم الإنجليزية إلى اللاتينية ثم يعود فيترجم إلى الإنجليزية .

ومن رجال عصر النهضة الإنجليزية السير توماس اليوت Thomas Elyot

الذى ترجم مؤلفات بلوتارك الكلاسيكية وايسوقراط إلى الإنجليزية . ولإليوت كتاب بالإنجليزية عنوانه (هكذا Boke Named the(Governour لتعليم رجال السياسة اللغة اليونانية واللاتينية والبلاغة والمنطق والهندسة والفلك والموسيقى والتاريخ والجغرافية والرسم والنحت والتربية البدنية . ونلاحظ فى كتابه إنه لم يتمسك بجمود جماعة الإنسانيين ، فقد غلب على الكتاب الشمول لجوانب عديدة من المعرفة (١) .

ويتضح من الاتجاهات الإنسانية فى بعض المناطق الأوروبية التى تخبرتها أن الأدب الكلاسيكى أصبحت إله الصدارة . وأصبح الشخص المثقف هو الدارس للآداب الإغريقية واللاتينية ، و(الجنتلمان (هو من ألم بهذه الآداب. على أن الحركة الإنسانية لم تقف عند حد تعلم هذه الآداب فقد هدفت التربية فى نظرهم إلى إعداد الأفراد لحياة مدنية ليكونوا فى خدمة الدولة والكنيسة والنبلاء وكبار التجار . هذه التربية للخدمة العامة يجب أن تبدأ بأرضية سميكة غنية من الأدب الكلاسيكى . وأصبح المعنى الجديد للتربية العقلية الحرة يشمل إلى جانب الأدب ، التربية البدنية والجمالية والخلقية والاجتماعية .

ومع أن الحركة الإنسانية أحيت الآداب القديمة ، ونادى روادها بآراء تربوية هاجمت الإجراءات التى كانت سائدة أيام عصر النهضة ، إلا أن بعض الاتجاهات الإنسانية لم تأخذ طريقها إلى التنفيذ . ويتكلم منرو عن التربيـــة الإنسانية القاصرة فيقول: إن الاهتمام بالتربية الحرة الذى شمل الأهداف ومظاهر النشاط الملائمة للجنس البشرى والذى اتخذ ركيزته أساساً دراسة الآداب واللغات القديمة سرعان ما تغير حتى أصبحت دراسة الآداب القديمة فى القرن السادس عشر تعتبر غاية فى حد ذاتها ، بعد أن كانت مجرد وسيلة من قبل . وصار يقصد من المواد الإنسانية لغات القدماء وآدابهم ، وبذلك أصبح التفكير فى الهدف من التربية منصباً على دراسة الآداب بدلا من

---

(١) Eby, Frederick : The Development of Mcdern pEucation, p. 95 .

دراسة الحياة ، واتجهت الجهود التربوية نحو التمكن من هذه الآداب ، بل صارت الناحية الشكلية من هذه الآداب ذات أهمية كبرى بدلا من محتواها .

مع هذه الشكلية انحصر استعمال معنى المواد الإنسانية على اللغتين الإغريقية واللاتينية وآدابهما ، بل ضاق معنى « التربية الإنسانية » حتى أصبح يقصد منها ذلك النوع من التربية المطابق لمعنى « المواد الإنسانية » . وغلبت النواحي الشكلية فى طرق التدريس بالمدارس ، مع هذه التربية الإنسانية القاصرة ، فأصبح معظم الاهتمام موجهاً لدراسة قواعد اللغتين القديمتين والتدريب عليها دون مراعاة طبيعة الطفل وميوله . فالطفل فى رأى المربين ، وقتئذ ، رجل صغير لا يختلف عن الرجل الكبير الراشد فى ميوله وقواه العقلية إلا من حيث الدرجة . ولذلك فهو يكلف عند أول قدومه للمدرسة بمعرفة لغة أجنبية ، حتى ولو لم يتعلم لغته القومية ، وسبيل تعلمه هذه اللغة غاية فى الشكلية ، فهو يقوم على دراسة قواعد اللغة والبيان واستظهارها . ولهذا فكانت لقوة التذكر ، وهى واحدة من قوى العقل ، أهمية عظمى .

معاهد التعليم

على الرغم من تأثير الحركة الإنسانية ، إلا أن عدداً قليلا من المدارس العامة التى تعلم اللغات الدارجة نجحت فى اجتذاب تلاميذ يتعلمون فيها القراءة والكتابة باللغة الدارجة . وكان التلاميذ يتعلمون أيضا مبادىء العد والحساب. على أن هذه المدارس كانت دائما تحت مطارق النقد التى وجهها إليها الإنسانيون مركزين على اتهامهم بأنها ليست عقلية المحتوى ، وأنها لا تدرب العقل . ولكن هذه المدارس العامة استمرت فى عملها ، بل بدأت تجذب أعداداً أكبر حتى شقت طريقها بثبات خلال عهد الإصلاح الدينى . ثم أصبحت هذه المدارس جزءاً من الأنظمة القومية للتربية .

أما عن المدارس الثانوية الحديثة فى عصر النهضة فقد تطورت عن المدارس الموجودة بعد أن حلت اللغة اللاتينية القديمة محل لاتينية العصور الوسطى ، كما استبدلت دراسة البيان الشكلية بالدراسات الكلاسيكية الأدبية وحلت

العلوم الرياضية محل الحوار المنطقي ، وأضيفت اللغة اليونانية القديمة ، وأحيانا اللغة العبرية .

أما عن التعليم العالي فله قصة . ففى إيطاليا عارضت الكنيسة والجامعات الآداب الكلاسيكية فى أول الأمر ، وصدوا أبوابها عنها إلا فيما يتعلق بما تهجوا عليه فى القرون الوسطى ، بينما شجع البلاط هذه الآداب . ونفس القصة تكررت فى فرنسا فكان البلاط الملكى من أوائل المؤيدين للحركة الإنسانية . فقد وجدت جامعة باريس ، فى أول الأمر ، أن الحركة الإنسانية تهدد مصالح الأفراد المهتمين باللاهوت والدين وفلسفة أرسطو .

ومع تقدم الحركة الإنسانية فى إيطاليا وغزوها جامعات شمالها فى القرن الخامس عشر بدأت تشق طريقها رويداً رويداً فى فرنسا ، حتى استطاع الملك فرنسيس الأول تأسيس **Collegede France** ، وكان بهذه الكلية كراسى أساتذة لليونانية القديمة والعبرية واللاتينية والفرنسية والقانون والفلسفة والرياضيات والطب .

أما فى ألمانيا فقد أسس أول كرسى لحركة التعليم الحديثة « كرسى الشعر والخطابة » فى جامعة أرفرت **Erfurt** فى نهاية القرن الخامس عشر ، كما أن جامعة وتنبرج **Wittenperg** سارت على مبادىء النهضة منذ بدء إنشائها .

وفى انجلترا لم تسمح السلطات فى جامعتى كمبردج وأكسفورد بالدراسات الإنسانية إلا فى مستهل القرن السادس عشر ، وخاصة بعد زيارة إيرازمس لجامعة أكسفورد عام ١٤٩٨ ، كما كان له الفضل فى التطوير الذى حدث بجامعة كمبردج التى درس بها مدة أربع سنوات من عام ١٥١١ م .

* * *

وكلمة ختامية عن عصر النهضة تلح لتوضيح حقيقة موقف الإنسانيين من مدلول التقدمية والتقليدية . فمع سنى النهضة الأولى وظهور الحركة الإنسانية ثائرة غاضبة على ما خلفته العصور الوسطى ، كان ينظر لأنصار الحركة على

أنهم تقدميون ، وكان الإنسانيون يبنون موقفهم التقدمي على مبادىء وأسس قتنعوا بها وهي :

١ – أهمية نمو الإنسان كفرد ؛

٢ – ضرورة العناية بطبيعة واهتمامات المتعلم في تربيته ؛

٣ – ضرورة تحرر الفرد من ظلمة وجهالة العصور الوسطى ؛

٤ – ضرورة تقديم دراسات واقعية للمتعلم ؛

ورأى الإنسانيون أن الدراسات الكلاسيكية في الأدب والشعر والخطابة كفيلة بتحقيق هذه المبادىء ؛

ومن العجيب أن نفس هذه المبادىء والأسس نادى بها أنصار التقدمية الجديدة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في صيحاتهم المدوية ضد منهج الإنسانيين الذين وصفوا حينئذ بالتخلف والجمود والقدم ، واتخذ أنصار التقدمية الجديدة الدراسات الاجتماعية والعلمية أسلحة يحطمون بها منهج الإنسانيين . وإذا كان هذا المنهج قد حقق فوزاً رائعاً على مناهج العصور الوسطى التي طمرتها أجيال طويلة بالصدأ المتراكم ، فان نفس المنهج لم يعد صالحاً لمجتمع ما بعد الثورة الصناعية . ومع أن المباىء والأسس لم تتغير ، لكن العقلية تغيرت تبعاً لما طرأ على المجتمع من تغيرات عنيفة . وأصبحت الحركة الإنسانية التي كانت تقدمية في عصر النهضة ، أصبحت اتجاهات تقليدية قديمة لا تناسب ما حققه المجتمع من تطورات وتغييرات .

كانت الحركة الإنسانية في بداية عصر النهضة تقدمية ، وأدت أهدافها لحقبة من الزمن . وما عادت صالحة في عصر آخر .

وقبل أن نقفز إلى مجتمع ما بعد الثورة الصناعية ، جدير بنا أن نقف قليلا عند حركة الإصلاح الديني .

ثانيا – حركة الإصلاح الدينى

تحدثت عن حركة الإنسانيين وتأثيرها على الاتجاهات التربوية والاجتماعية بعد القرن الرابع عشر الميلادى . وثمة عوامل أخرى عملت على تشكيل العقلية الغربية ، فقد بدأ فينيسى إسمه آلدس فى استخدام اختراع جديد لإنتاج كتب ، وهو اختراع الطباعة ، وقد عملت اختراعات البوصلة والعدسات واستخدام البارود على تغيير عادات البشر .

وكان لنشاط المدن الإيطالية الخارجى أثره فى رفع مستواها الاقتصادى ، فقد خرجت من مدينة البندقية وجنوا المراكب تجوب شرق البحر المتوسط . وتحمل من موانى يافا وبيروت والاسكندرية المنتجات الشرقية . وقد سبق عصر النهضة بوقت ليس طويلا مغامرة ماركو پولو فى أواخر القرن الثالث عشر ، فعقب عودته من الشرق الأقصى أذهل الأوروبين بوصفه سحر الشرق وأسواق التوابل . وقد سال لعاب الأوروبيين لما سمعوه عن وفرة الذهب فى الشرق وغزارة التوابل والفخامة التى يرتع فيها أهل تلك البلاد . ولعل بعضنا يتساءل عن سر اهتمام الأوروبين بالتوابل ، فقد استخدموها فى حفظ الطعام ، بل استخدموها أيضاً لتغطية رائحة ومذاق الطعام الفاسد . وحاول الأوروبيون الوصول إلى الشرق دون أن يتعرضوا لمضايقات المماليك فى مصر . فداروا حول أفريقيا ، وأبحروا غرباً على أمل الوصول إلى الهند على أساس كروية الأرض . وبدلا من الوصول إلى الهند أكتشفوا أمريكا على يد كولمبس عام ١٤٩٢ . وباكتشاف أمريكا بدأت سلسلة من النزاعات بين القوى الأوروبية العظمى فى ذلك الوقت : انجلترا – فرنسا – أسبانيا – البرتغال .

ولم تكن أسباب النزاعات سياسية واقتصادية فقط ، كما لم تقتصر النزاعات على الدول ، بل شهدت أوروبا نزاعاً خطيراً أساسه الدين ، فقد ثارت غرب أوربا ضد البابا وظهرت الكنائس المحتجة على الكنيسة فى روما

وظهر البروتستانت فى انجلترا وهولندا والدنمارك والنرويج والسويد وشمال ألمانيا ، وانقسمت أوروبا إلى بروتستانت محتجين على البابا الكاثوليكى . وظل موالياً للبابا إيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وجنوب ألمانيا والنمسا .

وقد بدأت الثورة الدينية فى ألمانيا . وكان الألمان يدفعون مبالغ ضخمة للبابا بل كان على الأساقفة الألمان إثر تعيينهم فى وظائفهم أن يدفعوا مبالغ كبيرة للخزانة البابوية ليحصلوا على تأييد البابا . ولم يعجب بعض قادة الألمان تدخل البابا فى هذا التعيين ، كما إن كتابات إيرازمس وخاصة فى مؤلفه « تمجيد السذاجة » سخرية من هذا التدخل البابوى . وكان إيرازمس يعتقد دائماً أن هذه التصرفات البابوية لن تجد قبولا عند الناس عندما ينالون قسطاً كافياً من التعليم .

وفى عام ١٥٢٠ كتب مارتن لوثر Luther الأستاذبجامعة وتنبرج كتيباً Anaddress to the Ger man Nobility طلب فيه من الحكام الألمان إصلاح الكنيسة ، فقد وجد استحالة هذا الإصلاح عن طريق البابا ، وأظهر تحسراً على المبالغ التى تدفع للكنيسة الرومانية وطالب بتقليل عدد أيام العطلات الكنسية وفى الأديرة والسماح لرجال الدين بالزواج (١) .

وهاجم البابا ليو العاشر مارتن لوثر وآراءه ، ولكن الأمراء الألمان عضدوا موقف لوثر رافضين تدخل الكنيسة فى شئونهم . وأمام مجلس عقد فى ورمز سنة ١٥٢١ اعترف لوثر بمهاجمته الكنيسة . واعتبر لوثر مارقاً على الكنيسة ومهدداً لها وللدولة . وطلب أعضاء المجلس الذى دعا إليه شارل الخامس فى ورمز أن تمتنع الناس عن إعطاء لوثر طعاماً أو شراباً أو مأوى ، وصدر أمر بالقبض عليه . ولم يعر أحد التفاتاً إلى قرار ورمز هذا ، فقد هرب لوثر وتحصن فى قلعة بمدينة ورتبرج تحت حماية الأمير المنتخب . ثم بدأ ترجمة جديدة للإنجيل إلى الألمانية .

---

(1) Robinson, J. H. and Smith, E. P. : Our World today and Yesterday, p. 106.

واندلعت الثورة الدينية . وترك عدد كبير من الرهبان والراهبات الأديرة وتزوجوا . ومزق الطلبة والمواطنون صور القديسين فى الكنائس ، بل توقفوا عن بعض الصلوات الدينية التى تعتز بها الكنيسة الكاثوليكية . ولكن لوثر ثار ضد هذه التصرفات . وخرج يعلن أن أية تغييرات فى الإجراءات الدينية يجب أن تبدأ بها الحكومة لا الشعب . واستمع الحكام لأقوال لوثر لأنهم وجدوا فيها فرصة للاستيلاء على ممتلكات الكنيسة ، كما استمع الفلاحون لآرائه لأنها وضعت الكتاب المقدس بين أيديهم ولم يجدوا فيه ما يحتم عليهم دفع إتاوات لسادتهم .

وفى عام ١٥٢٥ ثار الأقنان . وباسم (عدالة الله) هوت قلاع وأديرة وقتل مئات من النبلاء . ولكن جماعة من النبلاء انتقموا أشد انتقام من الفلاحين فقتلوا منهم مائة ألف فلاح . وقد وقف لوثر إلى جانب الأمراء ضد الفلاحين ولكنه لم يقل بقتل الثائرين وإنما نصح باستعمال القوة والقسوة مما أغضب إيرازمس . واستمرت الحروب الداخلية مائة عام فى ألمانيا ، مما أضعف قواها .

وإذا تركنا ألمانيا إلى سويسرا وجدنا الحركة البروتستانتية يتزعمها زونجلى Zwingli وكلفن Calvin. فقد قاد زونجلى حركة تمرد دينية وسيطر على زيورخ ولكنه قتل فيها ، وخلفه كلفن الذى كتب رسالة إلى فرنسيس الأول ملك فرنسا يبرر فيها الحركة البروتستانتية ، ومعتمداً كل الاعتماد على ما جاء فى الإنجيل . فهو مثلا يرفض استخدام الأرغن والنوافذ ذات الزجاج الملون فى الكنائس لأن الكتاب المقدس لم يذكر عنها شيئاً (١) .

وانتشرت الحركة الكلفنية من جنيف إلى ألمانيا . ثم تغلغلت فى فرنسا حيث عرف أتباعها باسم الهيجنوت Hugenots، ثم فى الأراضى المنخفضة ثم فى إنجلترا بين المتطهرين Puritans . وفى اسكتلندا بين البرسبيتاريين Prespyterians وقد هاجر عدد كبير من الكلفنيين من مختلف هذه الطوائف إلى أمريكا .

---

(١) Butts, op. cit., pp. 240 241.

وكان لحركة الإصلاح الديني أثرها في البناء الاجتماعي والتربية ، أما عن البناء الاجتماعي فقد انتقل فيه مركز الثقل بحيث توزعت القوة بين الطبقات ، بل إن الطبقة الوسطى استخلصت لنفسها مكانة أخذت تتزايد عبر الأجيال .

وقد انقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات متميزة (١) :

١ ــ الطبقة الريفية وتنقسم إلى :

(أ) النبلاء ، وهم من كبار ملاك الأراضي ولهم حظوة وامتيازات عند الملوك .

(ب) الجنتري ، وهم من كبار ملاك الأراضي ، ولكن لا يتمتعون بالاحترام والمكانة الاجتماعية التي ينالها النبلاء .

(ج) الفلاحين الأحرار ، ويمتلكون مساحات محدودة من الأرض .

(د) المستأجرين ، والشغالين في الأراضي ، والأقنان ، وهؤلاء يعلمون تحت إمرة غيرهم .

٢ ــ سكان المدن وينقسمون إلى :

(أ) كبار التجار وأصحاب الأعمال وهؤلاء تملكوا معظم الثروات واستأجروا عديداً من الموظفين يعملون لهم .

(ب) صغار التجار وأصحاب المهن ، وهؤلاء يتمتعون بالاستقلال في كسب العيش ، ولهم مركز اجتماعي محترم .

(ح) العمال الفنيين ولهم مكانتهم بحكم مهارتهم في أعمالهم .

(د) الشغالين .

٣ ــ طبقة رجال الدين :

(أ) كبار القساوسة ، ولهم مكانة سامية كمكانة النبلاء وكبار التجار .

(ب) صغار القساوسة ، ولهم بحكم التقاليد نفوذ و مكانة محترمة .

---

(١) Butts, op. cit., p. 236

العقلية الأوروبية من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية

كان التفكير فى عصر النهضة احتجاجاً صارخاً على التقاليد المتزمتة التى فرضتها الحركة المدرسية خلال قرون طويلة ، وكان التفكير الجديد تحدياً للآراء الأرسطية والخضوع الكامل لها . ويمكن تقسيم العقل الأوروبى فى مراحل نموه منذ السنوات الأخيرة للعصور الوسطى إلى الثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) إلى عقلية عصر النهضة وعقلية عصر الإصلاح الدينى ، ثم عقلية الحركة العلمية ، وأخيراً عقلية فلسفات المذاهب العقلية والتجريبية والتشككية .

أولا : عقلية عصر النهضة :

درس الإنسانيون الكلاسيكيات ، ولكن قلة منهم تفهموا الروح العقلية الإغريقية ، ولذلك فان إسهام الإنسانيين جاء بطريق غير مباشر ، فان تأكيدهم على فلسفة أن الإنسان ككائن بشرى يجب أن تحتل مشاكله الدنيوية مركز الصدارة قد أدى إلى إثارة نمو الاهتمام بالأمور الدنيوية وحب الاستطلاع العلمى . وهذا ما يميز العقل الحديث . ولكن اهتمامات الإنسانيين كانت بعيدة عن الاتجاهات الواقعية وقريبة من الغموض . فان ارتباطهم بحركة الإصلاح الدينى جعلهم فى ركاب المعتقدات الدينية والإيمان بقوى عليا مهيمنة ، بل إن الإنسانيين والمصلحين الدينيين شغلوا بأمجاد العصور القديمة ، ولم يقدموا للتقدم البشرى إلا النذر اليسير .

وقد عبد الإنسانيون فى تقدير وخشوع التراث القديم ، وإذا كانوا فى دعواهم قد حاولوا تحرير عقل الإنسان إلا أنهم أوقعوه عبداً لكلمات وأفكار الكتاب القدماء مثل شيشرون ، كما حدث عندما وقع العقل البشرى أسيراً لفلسفة وآراء أرسطو . وقد عبر إيرازمس عن النزعة الشيشرونية فى نقد لاذع قائلا إن التفكير الحر يجب أن ينزه عن كل سلطة ، وأن هدف الإنسانيين

الشيشرونيين هو تقليد أفكار وأسلوب شيشرون (١) . وتحولت الإنسانية التي نادت في أيامها الأولى بالفردية والحرية العقلية إلى قوة ضغط وكبت (٢) .

ثانياً : العقلية البروتستانتية — الكاثوليكية :

تخلخلت السلطة ونوقشت المعتقدات السائدة عندما خرج المصلحون الدينيون في ثورتهم ضد الاستبداد الكاثوليكي . وفي غمرة هجوم المحتجين على التسلط الكاثوليكي فتحت أبواب ضخمة لآراء كثيرة تتحدى ما ظنه المسيحيون غير قابل للمناقشة . وكثرت مذاهب المتكلمين وآراؤهم ، وبهذا — بطريق غير مباشر — أتاحت البروتستانتية الفرصة للتقدم العقلي . فان البروتستانتيين أكدوا أهمية الكتاب المقدس كمصدر للإيمان وأساس للعقيدة والسلطة الدينية والخلقية . ورفض البروتستانتيون دعاوى البابا ورجال الكنيسة الكاثوليكية بأنهم المفوضون لشرح العقيدة المسيحية . ومن الناحية النظرية فقد نادى البروتستانتيون بحق الفرد المؤمن في الخلاص مباشرة دون الالتجاء إلى وساطة وسلطة الكهنوت . وقصد البروتستانتيون أن يكون من حق الأفراد والجماعات الصغيرة فهم وشرح الكتاب المقدس .

ولكن لم يستمر البروتستانتيون في دعواهم التحررية هذه ، فقد تحولوا إلى تسلط أشبه بالتسلط الكاثوليكي ، بل إنهم استخدموا القوى المدنية لتأكيد معتقداتهم الدينية .

ومع اختلاف المذهبين إلا أنهما يفكران بطريقة متشابهة في مدركاتهما عن الله والإنسان ومصيره ، والعالم . وقد جمعت هذه المدركات بينهما مكونين جبهة وقفت أمام شمس العلوم التي كانت تحاول البحث عن فجر تبرز من خلاله لتطل على العالم وتنيره وتدفئه . فقد ساد اتفاق بين البروتستانتية والكاثوليكية على أن هذا العالم من خلق الله ، وفيه يلعب الإنسان دوراً حدده

---

(١) ظلت الحركة الإنسانية تدافع عن نفسها حتى النصف الأول من القرن السادس عشر تحت اسم (الشيشرونية) التي ترى أن الغرض من التربية هو تدريب المتعلمين على اتباع الأسلوب اللاتيني الكامل وأن شيشرون هو المثل الأعلى لذلك الأسلوب . وفي رأي الشيشرونية أن العمل المدرسي يجب أن يقتصر على دراسة مؤلفات شيشرون أو مقلديه .

(٢) Mulhern, op. cit., p. 253

ـه الخالق وواهب الحياه . واتفق المذهبان على أن هناك فرقاً بين العالم الطبيعي والعالم فوق الطبيعي ، وأن هذا الأخير — أو العالم الروحي — أكثر أهمية :

وفى رأى أصحاب المذهبين أن طبيعة الإنسان ثنائية ، تتكون من عناصر روحية وعناصر مادية ، والعناصر الروحية أكثر أهمية . وأكدت بعض الجماعات المسيحية مثل الكلفنية مبدأ الخطيئة الأصلية وأن الفرد يولد ومعه الخطيئة ، ولكن سادت اتجاهات فيما بعد مؤداها إنكار الخير الفطرى فى الإنسان ، بل إنكار أنه يولد ليس خيراً وليس شريراً . وقد اتفق البروتستانتيون والكاثوليك على أن فعل الإنسان وسلوكه الخير فى حياته الدنيوية ضرورى لمجد الرب ولكى ينقذ الإنسان من عقوبة أبدية . وفى اعتقـاد الكاثوليك والبروتستانت أن المعرفة والحقيقة تكشف عنهما قوى عليا حتى تنكشف للإنسان ، وأن هناك حقيقة مطلقة محددة . وقد اتفق المذهبان أيضاً على أن الهدف الأول فى تربية الإنسان هو معرفته الحقة للقوانين والأحكام الإلهية . ولذلك فان معرفة الإنسان للعالم الطبيعى أقل أهمية من معرفته للعالم الروحى والخلقى . وقد فهم الكاثوليك والبروتستانت عملية التعلم على أنها الكشف عن الأفكار الفطرية التى وهبها الله لكل فرد . ولكى تخرج هذه الأفكار إلى عالم النور يجب أن يخضع المتعلم لعمليات تدريب عقلى وخلقى ، بل لابد له من دراسة اللغات والآداب وحفظها على ظهر قلب .

هكذا كانت عقلية عصر الإصلاح الدينى ، سواء عنـد المحتجين البروتستانت . أو أهل التعصب الكاثوليكى ، عقلية عارضت البحث العلمى الحديث ، فقد أحرقت الكنيسة الكاثوليكية جيوردانو برونو Giordano Bruno(١) . كما أرغم جاليليو Galileo على إنكار معتقداته عن أن الأرض

---

(١) اتهم برونو فى النصف الثانى من القرن السادس عشر بالهرطقة وتحدى سلطة الكنيسة الكاثوليكية عندما أعلن أن فكرة كل شخص عن العالم تتناسب مع مركزه ، وأنه لا توجد حقائق مطلقة ... الخ . وقد حكم عليه فى البندقية بالإعدام حرقاً ، وشد إلى قائم حيث أحرقته ١٦٠٠ . ومن المضحك أن القائم الذى شد إليه يرمز إلى « حرية التفكير » .

تدور حول الشمس . وقد وصف لوثر العلوم بأنها زوجة الشيطان وأنها أعدى أعداء الله (٢) .

ثالثاً : العقلية العلمية :

عاد الاهتمام بالعالم الطبيعي وقوانينه منذ القرن الثانى عشر فى أوروبا وتجمعت مظاهر هذه اليقظة فى حركة النهضة العلمية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر عندما تحول اهتمام التفكير من عالم ما فوق الطبيعة إلى العالم البشرى ، ثم تركز فى العالم الطبيعي وقوانينه . ولعل أخطر وأعظم (اختراع) كان طريقة البحث الجديدة وهى الملاحظة والتجريب ، فان كل التغيرات التى طرأت على التفكير والمؤسسات الاجتماعية ترجع فى أصولها إلى فضل العلم science وتأثيره على ميادين التربية والدين والأخلاق . لقد أعطى العلم للبشر عقلا جديداً ، عقلا ولد فى فترة من الألم والمعاناة من جراء الالتحام الدموى العقائدى بين القديم والحديث ، صدام أفكار حددت مقادير ومصائر الملايين من البشر على الأرض التى ارتوت بدماء البعض وازدهرت بجهود البعض الآخر (١) .

وكان الإنسان قد مجد نفسه ، ثم حدث أن اكتشفت الدنيا الجديدة فى الطرف الآخر من المحيط الأطلسى الواسع ، وساد اعتقاد بأن هنالك عوالم أخرى مجهولة وآفاقاً لم نعرفها بعد ، وبدأ تمجيد الإنسان يخبو لتلمع أهمية الأرض والعالم الطبيعي وتطلع الإنسان حواليه وإلى فوق رأسه . وبان له الكون هائلا جباراً ، وحل اعتقاد بأن الكون معقد لا نهائى .. وكان هذا الاعتقاد محطماً لآراء أرسطو وبطليموس وغيرهما ممن سيطروا على التفكير المسيحى .

ثم تقدم العقل العلمى محتلا الأرض التى جلا عنها السلطان الكهنوتى والسيطرة الكنسية ... وبدأت حركة تحرير العقل الغربى من تحكم الحكمة القديمة والمعتقدات والآراء التى خرجت من مدن فى شرق البحر المتوسط وانتقلت ببطء مستمر على اليابس وعلى سطح الماء إلى جنوب أوروبا ثم غربها

---

(١) Butts, op. cit., pp. 247-248

ووسطها وشمالها ... اهتز هذا العقل بفعل دقات العلم الحديث والتفكير العلمى السليم .

ومع أن الآراء القديمة عن الكون كانت من كلام الوثنيين إلا أن البروتستانت والكاثوليك اضطهدوا كل من عارض تلك الآراء ، فقد أحرق برونو وأرغم جاليليو على سحب آرائه ، واضطر كل أستاذ فى جامعة تشرف عليها سلطات كنسية أن يقسم بأنه لن يدرس نظام كوبرنيق (١) . وعارض العقل البروتستانتى والكاثوليكى نتائج التلسكوب واستخدامه ، بل قيل إن ما تراه العين من خلال التليسكوب إنما هو من فعل الشيطان القابع داخل هذا الجهاز ومهمته خداع العين ، وأن ما رآه أرسطو هو الموجود ، وما لم يره فهو غير موجود .

وعلى الرغم من هذه المعارضة الجارفة ، فقد تحين العلماء الفرص السرية للاجتماع وإجراء تجاربهم بعيداً عن العيون . وجربوا فى الطبيعة والكيمياء والهندسة ، وبحثوا فى الفلك والجغرافية والتشريح والطب والملاحة والإحصاء ... إلخ . وتنبأ أصحاب العقول الراقية أن اليوتوبيا العلمية أصبحت على الأبواب . عن هذه المدينة المثالية تكلم كومنيوس وبيكون وغيرهما ممن مدوا أبصارهم عبر السنين ليشاهدوا مدناً تصل إلى الكمال عن طريق الاختراعات العلمية . وقال بيكون إن المعرفة قوة .

فضل كبير يعود إلى الطريقة العلمية فيما توصل إليه الإنسان من كشوف واختراعات . وقد أسست هذه الطريقة على آراء فرنسيس بيكون Bacon فى كتابه الطريقة الجديدة Novum Organon (الذى ظهر فى عام ١٦٢٠) والذى نادى فيه بالطريقة الاستقرائية (٢) . ولبيكون الفضل فى أن طريقته

---

(١) نيقولا كوبرنيق (– ١٤٧٣–١٥٤٢) عالم فلك بولندى وصف الشمس بأنها مركز السكون وأن الأرض تدور حولها .

(٢) فى الاستدلال الاستقرائى تشتق المدركات أو المعانى أو القواعد من الجزئيات ، أى يكون الدارس قاعدة عامة من حقائق جزئية ، كأن تقول إن الحديد معدن وهو يتمدد بالحرارة والنحاس معدن وهو يتمدد بالحرارة والذهب معدن وهو يتمدد بالحرارة ، ثم تخلص إلى قاعدة وهى أن المعادن تتمدد بالحرارة وفى الاستدلال القياسى تطبق القاعدة على جزئيات .

الجديدة علمت العالم أن الأشياء الحقيقية هي الأشياء المادية وقوانين العالم الطبيعي . وكانت هذه النظرية تحدياً صارخاً لآراء أفلاطون (١) .

رابعاً : عقلية الفلسفة

كان لابد للاتجاهات العلمية أن تؤثر على تيارات التفكير ، فقد أصبح العقل العلمي يؤمن بأن لكل المعرفة جذوراً في الخبرة . ويؤمن التجريبيون Empiricists بأن ما هو موجود في العقل وجد قبل ذلك في الحواس . غير أن العقليين Rationalists يلحون في القول بأنه إذا كانت الحواس أدوات الحصول على المعرفة ، فان هناك مصدقات يصل إليها الفرد بعقله فقط ، ولا دخل للخبرة الحسية فيها . على أن المتشككين Skebtics أنكروا تماماً إمكانية المعرفة ، ولهذا فان شغباً عقلياً ساد القسم الأول من عصر العلوم .

فقد أساءت العلوم إلى اللاهوت والدين والأخلاق والميتافيزيقا . أساءت باتجاهاتها وآرائها وطرائقها في البحث . ووقف بعض الفلاسفة أنداداً أشداء للعلوم فيقول جورج بركلي Berkeley الفيلسوف الإنجليزي (١٦٨٥ — ١٧٥٣) بأن المادة لا توجد منفصلة عن كينونتها المدركة ، وأن عقل الله الذي يلاحظ كل شيء هو القادر على استمرار الوجود الظاهري للأشياء المادية ، كما أن داود هيوم Hume الفيلسوف والمؤرخ الاسكتلندي (١٧١١ — ١٧٧٦) أصر على تشككه فقد أنكر إمكانية المعرفة الحقة محطما دعاوى العلوم والفلسفة ومؤكداً إنكاره قدرة الإنسان على معرفة أي شيء عن حالاته العقلية أو عن العالم الخارجي .

ولكن ما أحسته الحواس كان كافيا لإقناع الجمهرة بأنه حقيقي ، وأن العالم المادي الطبيعي موجود . وبالحواس استطاع الناس أن يحركوا صخرة المنطق ممهدين الطريق للعلوم لتأخذ مجراها . بل إن الطرق العلمية أصبحت تجد صدى عميقا في اتجاهات تفكير الجمهرة . . . ولكن سطوة الدين وقفت شامخة ثابتة قوية وهب فلاسفة مثل بركلي يقولون إن الحقيقة روحية ،

---

(١) مزيد عن بيكون في الفصل التالي .

حقيقه مثالية ، وغيرهم آمنوا بالأفكار الفطرية ليحموا الدين . ولكن المتشككين والتجريبيين أنكروا صحة هذه الآراء . فيقول جون لوك Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤) إن أساس المعرفة الخبرة ، ثم أثار النقاش حول وجود الله . وظلت الحركات الثلاث تعمل لتحرير الفلسفة من عبوديتها للدين وبذلك مهد الطريق للفلسفة الحديثة ورائدها عمانويل كانت Kant الفيلسوف الألماني (١٧٢٤ — ١٨٠٤) .

ثالثا — عصر العقل

انتقل المسرح الذى تمثل عليه الدراما البشرية الحديثة والإصلاح التربوى خلال القرن الثامن عشر إلى فرنسا التى شهدت بزوغ أفكار ومبادىء كان لها أن تلعب دوراً خطيراً فى حياة إنسان العصر الحديث . والظاهر أن الفرنسيين أظهروا تفوقا على غيرهم من الشعوب الأوروبية ، فقد قامت حرب بين معسكر أنصار الأدب الكلاسيكي وبين أنصار الأدب الحديث بزعامة Charles Perrault فى عام ١٦٨٧ .

وعاش إنسان عصر التنوير فى أوروبا يتخير بين ثلاثة مصادر يشتق منها المعرفة : الحواس والعقل والإيمان ، وكان الإنسان فى تطوره يحاول دائماً أن يوازن بين هذه المصادر ، ولكن كثيراً ما كان يغلب عليه مصدر منها ؛ ففى العصور الوسطى غلب الإيمان ، فكان مصدر معرفته ما يترل إليه من عند الله . أما فى فرنسا القرن الثامن عشر فقد حدث تكامل بين عقلية ديكارت وتجريبية جون لوك ، ومثل هذا التكامل فولتير . ويعبر عن هذا التكامل بالعبارة الآتية (١) :

« نحن نعرف الحق بالعقل والعقل لا يستنير إلا عن طريق الحواس ؛ وما لا توصله حواسنا لا نعرفه ، ومن البله أن نضيع وقتا فى التخمين . إن التصور والإحساس يقودان الأعمى قيادة عمياء . وكل الذين يدعون أنه قد تكشفت لهم أمور أو ألهموا ، إنما هم مخادعون . وأن مصدقيهم بلهاء » .

---

(١) Eby, op. cit., p. 305

وبهذا المفهوم وهذه الفلسفة تميز التفكير فى القرن الثامن عشر ، معتمداً على العقل وعلى الإدراك الحسى. وأعلن ديكارت ثلاثة أسس تقبلها المفكرون : (١) تفوق العقل ، (٢) وحدة قوانين الطبيعة ، (٣) طريقة محددة لاختيار الحق والتحقق منه .

وقد حقق العقل نصراً خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر فى ميادين الرياضيات والعلوم الطبيعية ، مما حدا بمفكرى القرن الثامن عشر إلى الثقة به . وكانت آراء وأعمال كوبرنيق وجاليليو ونيوتون وغيرهم أصدق دليل على سفاهة التخمين والخضوع دون تفكير أو تجريب للأراء المتوارثة ، ووقف العلم شامخاً متحدياً رجال الدين وغير المؤمنين بالعقل والتجريب .

وكانت هذه التغيرات هى التى حدت بمفكرى القرن الثامن عشر إلى التأكد من أن يقظة عقلية بدأت تهز الناس ، واحدة من تلك اليقظات التى عرفها التاريخ أيام مجد آثينا وعصر النهضة مثلا . وأطلق المفكرون على هذا الزمن « عصر العقل » Age of Reason أو « حركة التنوير "Enlightenment" وأحس الإنسان المفكر أنه يتحرر من الماضى المظلم القاسى ، ذلك الذى سيطرت عليه الخرافات والأخطاء والجهل والتقاليد ، وكأنما الإنسان فى ذلك الماضى قد خدر واقتيد فى طريق ضال ، لأنه لم يفكر بنفسه ، فعاش حياته مغلفاً بالضباب لا يخرج منه ، ولم ير الشمس . ثم كانت الاتجاهات العلمية فانقشع الضباب وخرج الإنسان إلى النور ... وإلى الحرية ... بل إن النساء بدأن يدرسن الفلك والتشريح وأطلق لذكاء الإنسان العنان .

وأدرك الفلاسفة الطبيعة على أنها آلة ضخمة تحكمها قوانين ثابتة . ولابد من معرفة هذه القوانين لخير الإنسان . وكما قال بيكون « المعرفة قوة » ، وتحول التحول إلى علم واختراعات . وزاد إيمان المفكرين لمهاجمة الفساد فى الدين ، والأخلاق ، والدولة ، والمجتمع ، والكنيسة . ولن يستطيع الإنسان الوصول إلى هذه الجنة إلا بتحسين نفسه عن طريق المعرفة الماضية

الكلاسيكية ، ولكنها المعرفة الحديثة التى تظهر فى إنجازات العلوم والتحسينات فى الفنون .

ولكن من يفكر ؟ هل يستطيع كل الناس هذا اللون من التفكير ؟

يؤخذ على حركة التنوير أنها كانت أرستوقراطية فى اعتمادها على العقل كمنبع لنعيم الإنسان ، بل إن جماعة Encyclopedists (جامعى المعرفة) الذين هدفوا إلى التوفيق بين العقل والمؤسسات الاجتماعية ، اعتقدوا أن عامة الشعب غير قادرة على التنوير واستغلال العقل . ولذلك فهم فى حاجة دائمة إلى قيد يحدد حركتها . . . . « سوف تظل العامة دائماً غبية همجية ، إنهم ثيران تلزمها النير والسياط والعليق » .

وفشلت فلسفة حركة التنوير فى ميدان آخر فانها لم تقدم نظرية اقتصادية تتمشى مع الاتجاهات العقلية والعلمية ، وظهر جماعة أطلقوا على أنفسهم إسم الفسيوقراطين Physiocrats أو الاقتصاديين Economisis وكان ذلك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وكلمة فسيوقراطية تعنى سيادة العالم الطبيعى بمعنى سيطرة القوانين الطبيعية على الاقتصاد ، وإلى الفسيوقراطية يرجع الفضل فى تأسيس علم الاقتصاد .

الفصل الثامن
مذاهب وشخصيات

شهد النصف الثانى من القرن الثامن عشر ثورات حتمتها عوامل اقتصادية أساساً ، فقد اتبعت الحكومات الأوربية سياسة اقتصادية لتزيد رصيد الذهب والفضة عندها . ولذلك فقد رفعت المكوس الجمركية على البضائع المستوردة ، وخفضت الجمارك على الأغذية والمواد الأولية المستوردة . بل إن الحكومات الأوروبية المستعمرة حرمت على مستعمراتها صناعات تصنعها هى ، كما فعلت إنجلترا عندما حرمت على مستعمراتها الأمريكية ما تنتجه مصانعها ، بل إنها أجبرتها على شراء منتجاتها أولا تبيع موادها الخام إلا لها .

كانت العوامل الاقتصادية أسباب الثورات ، وساعدتها الظروف السياسية والدينية على اندلاعها ، فقد قامت الثورة الأمريكية احتجاجا على فرض ضرائب دون تمثيل نيابى ، واحتجاجاً على القيود التى فرضت على حرية التجارة . كانت ثورة بورجوازية ضد الفئة المستغلة .

وفى فرنسا كان الاقتصاد إقطاعياً ، فكان للملك خمس الأرض ، وللنبلاء خمس آخر ، وللكنيسة خمس ثالث ، ولبقية أفراد الشعب خمسان . وكان للأشراف ورجال الكنيسة سلطات ، فلم يكن من حق الفلاح أن يطحن حبوبه إلا فى مطاحن السيد النبيل ، ويزرع بأمره ، ويخبز خبزه فى مخابز السيد ، وتبيعه الدولة الملح بالسعر الذى تحدده . والموت عقوبة من يخالف الأوامر . وأعفى النبلاء ، ورجال الدين من الضرائب ، وفرضت ضرائب باهظة على الفلاحين والعاملين ، وحاربت فرنسا انجلترا حروباً طويلة أثقلت على الطبقات الكادحة .

وتكون المجتمع الفرنسى من طبقات : فى القاعدة العريضة عاطلون فقراء أصبحوا بالضرورة مجرمين ، وفوقهم طبقة عاملة من فلاحين وخدم وعمال

غير مهرة ، ومن هاتين الطبقتين تكون ثلاثة أرباع سكان فرنسا قبيل ثورتها الكبرى عام ١٧٨٩ . فوق الطبقة الثانية كانت طبقة صغار التجار وصغار رجال الدين وفقراء النبلاء والفلاحون (الأغنياء) ، وهؤلاء كونوا الطبقة المتوسطة الدنيا ، أما الطبقة المتوسطة العليا فكان قوامها أصحاب المهن الراقية وكبار الموظفين والتجار وأصحاب المصانع . واقتصرت الطبقة العليا على العائلة المالكة والنبلاء وكبار رجال الدين وهؤلاء كونوا مجتمع الـ ٢م ، وكان عددهم نصف مليون من مجموع السكان ، وكان ٢٠ مليونا .

وقد تعب الناس فى أوروبا من امتيازات رجال الدين وتسلطهم وخرافاتهم البعيدة عن تعاليم الدين ، بل ومن التعصب الدينى والنزاعات بين الملل ، وكان لكل دولة كنيستها ومذهبها ، كالإنجيلية فى إنجلترا ، والكاثوليكية فى فرنسا . ولكل مستعمرة أمريكية مذهبها . وتتعصب الدولة لكنيستها فتمنحها امتيازات وتعرض على غير أتباعها التزامات ، بل تعذيباً وأحياناً طرداً من أراضيها ، ووصل الأمر فى المستعمرات الأمريكية إلى المذابح الوحشية .

ونمت النزعات الوطنية والقومية ، ولعل أنبلها وأعمقها دعوقراطية تنادى بها جون لوك ، وروسو ، وجيفرسون ، وتحققت فى فرنسا وأمريكا . فقد أخضعت الكنيسة للدولة . وجعلت أرض الوطن أساس الوطنية المقدسة ونما ولاء لعلم الدولة وأناشيدها وأعيادها . وتحررت المدارس من سلطات رجال الدين ، بل إن أمريكا أخرجت دروس الدين من مدارسها . وقصرتها على الكنائس . وأصبحت المثل القومية أهدافا أساسية فى التعليم العام .

وإذا كانت الديموقراطية سياسة الحكومة ، فان القومية إحساس يربط الجماعات والطبقات برباط وثيق . وقد نما هذا الإحساس تحت أنظمة متحررة وأنظمة متسلطة . ويذكر أن من الفلاسفة كانت Kant وفخته Fichte أملا فى دولة عالمية . وعارضا فلاسفة النزعة القومية . وبعد هزيمة الألمان فى موقعة يينا (١٨٠٦) على يد بونابرت . تحول فخته إلى حماس القومية . ورأى أنها خطوة أساسية للعالمية . وآمن فخته بأن للدولة غرضاً مقدساً .

وأن الوطنية واجب ديني ، وأن الألمان جنس نقي ، لهم لغة وثقافة منقاة ، وأنهم أكثر شعوب الأرض تدينا ، وأكثرهم قدرة على الوطنية الحقيقية . . . ومهد فخته لاتجاهات تبلورت فى حكم النازى .

ورأى هيجل Hegel الألمانى أن الدولة تنقل إلى الأفراد إرادة الله ، وأن الدولة الألمانية لن تحقق مصيرها المقدس إلا بتحطيم الفردية والاتجاهات المتحررة ، وأن الدولة هى الحقيقة المطلقة . وليست هناك ، فى رأيه ، ذات فردية ، بل ذات قومية . وعلى الفرد أن يخضع ويطيع الدولة . وأن البقاء للأصلح . وقد تأثر كارل ماركس بفكرة هيجل القائلة بأن التاريخ عملية كفاح وتغيير ، فالقوة التقدمية فى أية مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى تصبح رجعية فى مرحلة تالية . وأن انتصار دولة على أخرى معناه أن المنتصرة أصبحت تحمل الروح المقدسة ، التى تنتقل من ذات قومية إلى أخرى . وقد تأثر موسولينى بفلسفة هيجل ، ولكن هذه الدعاوى لم يقدر لها أن تثبت . فان الدول أصبحت تعتمد بعضها على بعض اقتصادياً .

فمنذ ١٧٥٠ فصاعداً حدثت ظاهرة اقتصادية عرفها التاريخ تحت اسم « الثورة الصناعية » . فقد كانت التجارة مسيطرة على الصناعة ، ثم سيطرت الصناعة على التجارة ، وبعد قرن واحد من الزمان أصبحت الثورة الصناعية حقيقة ثابتة مؤثرة . وقبل منتصف القرن الثامن عشر اعتمدت الصناعة على أنشطة العائلات ، فالعائلة تشترى الأدوات والمواد الخام وتصنع . وحدث أن أصلح انجليزى من جلاسجو إسمه جيمس وات Jamep Watt عام ١٧٦٠ نموذجا لآلة بخارية اخترعها عبقرى إسمه نيوكومين Newcomen حوالى سنة ١٧٠٠ . وفى عام ١٧٨٥ استخدمت الآلة البخارية فى صناعة النسيج (١) .

---

(١) Robinson and Smith, op. cit., pp. 358 – 359.

وعملت الثورة الصناعية بعد أن انتشرت المصانع وعلت المداخن ، على إسراع نمو الرأسمالية ، وتكدس المدن بالسكان ، وخلقت عادات واتجاهات جديدة فقد زاد الطلب على إشراف الدولة على التربية ، بعد أن أصبحت التلمذة الصناعية على يد (الأسطى) فى المصنع اليدوى غير مجدية ، وتطلبت المصانع التى تعمل بالبخار صناعا مهرة ، كما أن المناهج تأثرت بالثورة الصناعية فازداد الاهتمام بالعلوم التى لم تعد معرفة مسلية (١) . ثم انتشرت الآلات البخارية بعد عام ١٨٥٠ . ثم دخل البترول والكهرباء كمصدرين للقوة . وبدأ عصر الآلات .

ومع التقدم الصناعى بدأ العمال يطالبون بتشريعات لحمايتهم ورعايتهم . وقد سمح باتحادات العمال فى انجلترا بعد عام ١٨٢٤ ، وفى فرنسا بعد عام ١٨٨٤ . وفى ألمانيا نظم الحزب الديموقراطى الاشتراكى سنة ١٨٦٣ . ثم أسس ماركس فى العام التالى جمعية العمال الدولية . وعمل بسمارك فى سبيل اشتراكية الدولة الألمانية كوسيلة لتحطيم محاولات الحزب والجمعية . وكلاهما منصف للعمال ومطالبهم .

الحركة الواقعية

ومع هذه التغيرات فى حياة المجتمع ، ظهرت مذاهب فلسفية وتربوية نلمسها اليوم فى الأنظمة والاتجاهات التربوية . وسوف أتعرض لبعض هذه المذاهب وشخصياتها فى الصفحات القادمة .

تعرضت فى صفحات سابقة للحركة الإنسانية . ووضحت كيف أن المذهب الإنسانى اتخذ رغبات وميول الإنسان موضوعا له . وبينت ثورته على جمود واتجاهات العصور الوسطى ، وقد ظهرت فى عصر النهضة حركة إحياء اللغات والآداب الكلاسيكية وكل ما يتعلق بالإنسان من لغة وأدب وتاريخ . ولكن الظاهر أن الاهتمام بالشكل أغفل المضمون . وضاعت القيم العملية للمواد التى يدرسها المتعلمون .

(١) Brubacher, op. cit., pp. 85 – 95.

وظهرت حركة قوامها الاهتمام بالجوانب العملية فى التربية ، والاهتمام بالمضمون فيما يدرسه المتعلمون . ولم يعترض أنصار هذه الحركة وهم الواقعيون الإنسانيون Humanistic Realists على المواد الإنسانية، ولكنهم حددوا من مداها ، فقللوا مثلا من دراسة النحو اللاتينى ، مكتفين بالقدر اللازم للتذوق الأدبى . واهتموا بالمعرفة ، ومصادرها فى رأيهم فى مخلفات الأقدمين المدنية والدينية . وفى هذا يقول منرو . . « ولقد اتفق الإنسانيون الواقعيون مع الإنسانيين الكلاسيكيين المحدودى الأفق فى أن اللغات والآداب الكلاسيكية القديمة هى الهدف الوحيد للدراسة ، وعلى الأقل الوسيلة الوحيدة للتربية . وكان منهج الدراسة لدى الفريقين يتكون من هذه اللغات وآدابها وكانت هذه اللغات وآدابها فى نظر الفريقين تمثل أرقى ما وصل إليه العقل البشرى ، وتشتمل على أغزر ما أنتجه الذكاء الإنسانى . وليس هذا فحسب بل إنها تشمل أيضاً كل ما هو جدير بأن يعنى به الإنسان . . ولكن يوجد فرق جوهرى بين هاتين الفئتين فالمذهب الإنسانى الكلاسيكى كان يهدف إلى الغاية اللغوية والأدبية التى تتحقق عن طريق لاتينية شيشرون ، وغايته هو إنتاج شباب رومانى جديد ، وخلق لاتينية جديدة . أما الإنسانيون الواقعيون فكانوا يهدفون إلى التوصل لمعرفة الدوافع الإنسانية ، ونظم الحياة البشرية والحياة وارتباطها بالطبيعة . . . وهدف الإنسانيون الواقعيون إلى السيطرة التامة على جميع مرافق الحياة المحيطة بهم طبيعياً واجتماعياً عن طريق تعرف حياة القدماء فى نطاق أوسع . . (١) .

وكان الإنسانيون الواقعيون أحد وجهين للحركة الواقعية ، أما الوجه الثانى فقد بدأه فرنسيس بيكون الذى وجد فى الطبيعة ومظاهرها مضمون الدراسة والبحث . فبدلا من الحقيقة التى توجد بين صفحات الكتب ، فإنه بحث عنها فى قوى وقوانين الطبيعة . ويعرف هذا الوجه من الحركة الواقعية

---

(١) منرو : (المرجع الأسبق) ص : ١٠٩ — ١١٠ .

باسم الواقعية العلمية Scientific Realism التى كانت بداية الحركة العلمية فى التربية فاستخدمت اللغات أدواتاً للمواد . وصمم المنهج بحيث يحتوى على الحكمة العالمية Pansophia ، على أمل أن إلمام المتعلمين بقدر كاف من المعارف يمهد الطريق لنظام اجتماعى جديد (٢) .

وسوف أتعرض لوجهى الحركة الواقعية من خلال بعض للشخصيات .

الواقعية الإنسانية

رابيليه PaanÇois Rabelais (١٤٨٣ — ١٥٥٣) .

كان رابيليه راهباً وطبيباً فرنسياً ، وقد طرد من الدير . ويعد من خير من يمثلون الواقعيين الإنسانيين . ودرس على البندكتين ، ثم على الفرنسيسكان ، على أنه فى معظم حياته كان جوالا لا يستقر فى مكان واحد . وقد تهكم رابيليه على الشكلية التافهة التى سادت عصره . وانتقد فى سخرية لاذعة منهج التربية القائم على دراسة الألفاظ والكلمات مستبعداً دراسة الحقائق الحيوية . واهتم بالتربية التى تشتمل على العناصر الاجتماعية والخلقية والدينية والجسمية ، وهو يؤمن بدراسة الكتب ، على أن تطبق حقائقها تطبيقاً فعلياً فى الحياة .

وأكد رابيليه ضرورة استخدام الملاحظة فى التدريس ، وأن تربط الدراسة بالحياة . كما اهتم بالتربية الرياضية ، وبعدم القسوة فى النظام . وتعتبر آراؤه واقعية وإنسانية فى وقت واحد ، وقد تأثر بها كثيرون منهم مونتين ولوك وروسو . وقد عبر رابيليه عن آرائه التربوية فى أحاديثه الساخرة التى كتبها عن بطل خرافى ذى قوة جبارة هو جارجانتوا . فمنذ مولده إلى سن الثالثة تعلم رجانتوا على يد والده النظام والأخلاق . . « وأمضى السنوات الثلاث كما يمضيها كل الأطفال ، أى فى الشرب والأكل والنوم ؛ فى الأكل والنوم والشرب ؛ فى النوم والشرب والأكل » . وفى سن الخامسة عهد به أبوه إلى واحد من الفطاحل الأساتذة الجهابذة الأستاذ الدكتور السفسطائى هولوفيرن الذى علمه حروف الهجاء حتى اتقنها جارجانتوا

McCormick, op. cit. p. 435 (١)

واستطاع تسميعها من آخرها إلى أولها . واستغرق ذلك خمس سنوات وثلاثة أشهر ، ثم أقرأه بعض الكتب غير المفيدة حتى كان عمره ثلاث عشرة سنة وستة أشهر وأسبوعين . . ثم استغرق ثمانى عشرة سنة وأحد عشر شهراً فى قراءة كتاب واحد . ثم مات أستاذه ، وجاءه أستاذ آخر الذى علمه حتى أصبح جارجانتوا حكيما كأى شيء خبز فى الفرن . . . ثم اكتشف أبوه أنه درس كثيراً . ولكنه لم يتعلم شيئاً ، وقارن بينه وبين صبى تربى بأسلوب حديث ولم يبلغ الثانية عشرة من عمره بعد ، ووجد أن ابنه مغفل غبى جاهل أمام الصبى .

ثم تعلم جارجانتوا على يد مؤدب يستخدم الطرق الحديثة . وكان هذا المؤدب مختلفاً عن المؤدبين السابقين ، فهو لطيف وذكى ، يتخير الظروف الملائمة للتدريس ، ويستخدم اللعب والتدريبات ، ويوجهه إلى الملاحظة . وأحب جارجانتوا الحساب لأنه درسه بطريقة لطيفة .

وأرسل جارجانتوا رسالة إلى ابنه جريويل . وفيها عبر رابيليه عن آرائه فى التربية .

الواقعية الحسية

فرنسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ — ١٦٢٦)

كانت ولادة بيكون بلندن عام ١٥٦١ فى بيت من بيوت الرئاسة من جانبى أبيه وأمه ، فكان أبوه السير نيقولاس بيكون حامل أختام الملكة فى عهد اليصابات وأمه ابنة السير أنتونى كوك الذى كان مربياً لإدوارد السادس وركنا من أركان الإصلاح الدينى فى زمانه (١) . وتلقى بيكون تعليمه فى طفولته على يد مربين خاصين ثم التحق بكلية ترينتى فى كامبردج ، فى سن الثالثة والعشرين انتخب عضواً فى البرلمان . وبدأ اسمه يلمع كمتكلم وكاتب . وتقرب من الملكة ، ولكنه لم يصب نجاحا . على الرغم من مساعدة صديقه الحميم اللورد اسكس المقرب منها . وقد فتحت الملكة آذانها للوشايات ضد

---

(١) عباس محمود العقاد : فرنسيس باكون ، ص : ٢٢

اللورد الذى أحبه الشعب فعهدت إليه بمهمة ولاية إيرلندا فى أحرج الأزمات .

وانتهى عهد اليصابات ، وأقبل عهد جيمس الأول ، وظل يترقى بيكون فى المناصب حتى وصل إلى منصب قاضى القضاة عام ١٦١٨ ، وكثر تزلفه وتملقه للملك . وعرف عنه أنه كان يقبل الرشاوى والهدايا ، وقد حدث أن تقبل رشاوى من طرفين فى خصومة ، وحكم لأحد الطرفين ، فثار الطرف الآخر ، وتألب عليه عدد كبير من الموتورين . وجرى تحقيق مع بيكون ، فاعترف . وظهر فساده على الملأ ، ولكن الملك كان يسانده ... وقال المتعذرون لبيكون القاضى الفيلسوف إنه كان يحكم بالعدل لأنه كان يقبل الهدايا من الطرفين .. وحكم عليه بالعزل من المناصب العامة وتحريم النيابة والولاية . ومات عام ١٦٢٦ .

ولم يكن بيكون مبتكراً لأفكار جديدة ، ولكنه لخص جميع الاتجاهات التى نشأت فى عصر النهضة معارضة لوجود أى سلطة خارجة على الحياة العقلية ، ومحبذة اكتشاف حقائق عالم الظواهر الطبيعية ، وعالم الفكر . وجعل بيكون الفلسفة أو العلم ، أو الحياة العقلية بوجه عام هدفاً جديداً ، فقد رفض تكديس المعلومات النظرية ، وأكد الاهتمام بالغرض العملى النفعى . فقال عن المعارف القديمة ... « إن الفلسفة والعلوم العقلية القديمة مثلها مثل التماثيل تزين ويحتفل بها . وهى تشبه هذه التماثيل أيضاً من حيث أنها لا تتحرك من المكان الذى وضعت فيه (١) » . وقد قارن بيكون بين الفلسفة القديمة والفنون الميكانيكية العملية النافعة التى تنمو وتسير فى طريق التقدم والكمال يوماً بعد يوم لأن لها أغراضاً عملية نفعية .

---

(١) Ulich, op. cit., p. 105

وليكون هدفان وراء كل دوافعه وإنتاجه ، والهدف الأول هو تحويل العلم إلى منفعة بنى الإنسان ، والهدف الثانى هو تطوير طريقة الاستقراء فى البحث لتساعد الإنسان على إخضاع الطبيعة لإرادته والسيطرة عليها . وكان بيكون يرى أن كل المحاولات الفلسفية والعلمية إنما هى محاولات تخمينية ، لأنها قبلت أحكاماً غير مؤكدة ، وجعلتها أسساً تبنى عليها . وقد حدثت تغيرات فى الاتجاهات منذ العصور الوسطى أو حتى منذ إيرازمس مؤدية إلى طريق التجريب ، وعبر بيكون عن ذلك فى احتقاره لأرسطو وللإغريق عامة فيقول : « إنهم تكلموا كثيراً و عملوا قليلا ، وكانت حكمتهم ثرثرة غير مجدية ولا منتجة » .

ويرى العقاد أن بيكون لم يكن أول من علم الناس منفعة العلم فى خدمة الإنسان ولا أول من أقامه على أساس التجربة والاستقراء ، ولا يقدح ذلك فى فضل رسالته لأن أصحاب الرسالات الفكرية جميعاً يصدق عليهم ما يصدق عليه .. « ولكنه وحده قد اهتدى إلى الموضع من الحقائق الحرى بالتوكيد والتقرير ، وبشر بالفكرة التى يستدعيها الزمن الحاضر والزمن المستقبل من بعده . وكانت حق طليعة الكشوف الموالية فى العلم الحديث » .

لقد نادى بيكون بأن المنفعة غاية المعرفة الإنسانية ، وأن الأقيسة مضلة للعقل فى تيه الغرض والتخمين ، نادى بهذا فى زمن كان الناس فيه يحتقرون الانتفاع بالعلم لاعتقادهم أن الآخرة هى محور كل علم ، وأن الزهد فى الدنيا صفة العلماء .

ولم يرفض بيكون الأقيسة برمتها ، فقد اعتبر الطريقة القياسية « توقعاً للعقل » وأنها تستخدم ولكن فى حدود . أما طريقة الاستقراء فهى الموصلة إلى تقرير درجة التأكيد ، وهى التى تستخدم فى الكشف عن العلم ، فى ترجمة الطبيعة ، وبهذه الطريقة يسيطر الإنسان على الطبيعة . ويرى بيكون أن العلم والسعادة البشرية صنوان ، ولا حد لمثل هذا العلم وتلك السيطرة ، والإنسان

---

(١) عباس العقاد المرجع الأسبق . ص : ٥٨–٥٩

إن هو إلا خادم ومترجم للطبيعة فكل ما يصدر عنه ، بل كل ما يعرفه وتحصل عليه نتج عن ملاحظته نظام الطبيعة ، فى الحقيقة أو فى تفكيره (١) . وفيما عدا هذا فانه لا يعلم شيئاً ولا يمكنه القيام بشيء ، لأن سلسلة الأسباب لا يمكن لأية قوة فصم عراها ، ولا تمكن السيطرة على الطبيعة إلا بالخضوع لها . وعلى ذلك فان موضوعى المعرفة البشرية والقوة البشرية يلتقيان فى الواقع فى نقطة واحدة ، والسبب فى فشلنا فى العمل هو جهلنا بالأسباب (٢) .

وفى رأى بيكون أنه لابد للعقل البشرى من التخلص من عوائق البحث الصادق والملاحظة الرشيدة ، وقد أطلق على هذه العوائق إسم Idols أى الأصنام أو الأوهام (ويسميها العقاد الأوثان) . وهى هذه العقائد والموروثات التى تنحرف بالإنسان عن قصده وتميل به إلى السخف والضلال . وقد عبر عنها فى كتابه Novum Organon (القسطاس الجديد أو القانون الجديد) . وقسم بيكون الأوهام إلى :

١ — أوهام القبيلة (وتسمى أحياناً أوهام الجنس) وهى الأوهام التى تصور الأشياء على صورة سابقة لا برهان عليها من التجربة والمشاهدة .

٢ — أوهام الكهف ، فكل إنسان محصور فى كهف من كهوف الوراثة أو النشأة أو علل الفطرة . وأوهام الكهف هى الميول الشخصية الفردية .

٣ — أوهام السوق . وهى شر الأوهام ، وتنتج عن العادات والتقاليد الاجتماعية ، وما يتبعه الإنسان فى علاقاته .

٤ — أوهام المسرح وهى تلك الأوهام التى تسربت إلى عقول الناس من آراء وأقوال وقضايا الفلاسفة وأخطائهم فى القياس والأحكام .

وعبر بيكون عن آرائه أيضاً فى كتابه New Atlantis (الأطلانتس الجديدة أو طوبى الجديدة) . وذكر فيها عن القارة الضائعة التى أشار إليها أفلاطون فى أحلام الفلسفة .

---

(١) Eb, op. cit,. p. 158

Ulich' op· cit·' pp' 165-160

(٢) منرو : (المرجع الأسبق) ص ١٤٧ .

وعن آرائه فى التربية تراه يتهكم على الكلاسيكيات فيقول إنه لا يشرفنا أن تقف الحدود العقلية عند اكتشافات القدماء ، ولذلك فيجب أن تتجه الدراسة نحو الطبيعة وكنهها . والمعرفة المشتقة من الطبيعة هى الصالحة للدراسة ، وهى تأتى بطريق الحواس ، وهى الحقيقة المثمرة ، وإذا كانت هذه هى مواد الدراسة فاننا نجده يحتم تناولها بطريقة جديدة هى الانتقال من دراسة الجزئيات إلى القواعد والمبادىء العامة .

ويلخص موقف بيكون فى أنه رأى وجوب إعادة تربية الإنسان بطريقة علمية ، وسوف ينشأ نظام اجتماعى جديد مؤسس على البحث العلمى فى مظاهر الطبيعة باستخدام الاستدلال الاستقرائى . ويرى أن العلم قمين أن يحسن ظروف الحياة المادية ويسعد الناس ويعمل على رفاهيتهم .. وإذا استطاعت المدارس أن تنشر المعرفة فان هذا سيؤدى إلى حل المشكلات التى حيرت البشرية . وفى خطته التربوية آمن بأن المعرفة قوة ، و أنه إذا تحسنت معارف الناس تحسنت أحوالهم . ولم يرفض الإلهام الإلهى . ولكنه رفض أن يلعب أى دور فى التربية ، فكل ما يدور فى حلبة التربية يجب أن يؤسس على المعرفة العلمية .

وليس من شك أن آراء بيكون ترددت قوية ساطعة خلال القرون الثلاثة الماضية ... منذ أيامه إلى وقتنا هذا .

كومنيوس John Amos Comenius (Komensky) (١٥٩٢ — ١٦٧٠)

يعرف عن جون آموس كومنيوس أنه أكثر المتأثرين بآراء بيكون ، بل أكثرهم تطبيقاً لها . ففى خط حياته كمدرس وكاتب طبق المبادىء البيكونية المتصلة بالبحث عن الحقيقة . وقد تمتع كومنيوس بشهرة كبيرة إبان حياته حتى أنه استدعى من مورافيا مسقط رأسه إلى لندن للإفادة بآرائه . واتجه كومنيوس البروتستانتى المتعصب إلى العمل فى القيادات الدينية مع اهتمامه بالتربية ...

وعاش حياة شهد فيها ألواناً من القسوة والاضطهاد ، إلا أنه لم يدع المرارة تسرى إلى قلبه ، بل رأى نفسه مواطناً عالمياً . لقد أحب بلده ولكنه

أحب أكثر أن تكون جزءاً من مجتمع مسيحى عظيم . وهو بهذا يختلف عن إيرازمس الذى احتقر الصفات واللغات القومية . فى حين أن كومنيوس آمن بضرورتها وأهميتها ، فهو نادى بعالمية مؤسسة على الحب والفهم الذى يضم الشعوب ووحدة البشر كأجزاء فى ثقافة المسيحية .

وقد أثرت خبرات حياته فى تلوين عقيدته التربوية وفلسفته . وظهرت جلية فى مؤلفه Great Didactic « المرشد العظيم » . الذى كتبه عام ١٦٣٢ باللغة التشيكية ثم نشر باللاتينية (١) . ويتكلم عن القوة الأساسية فى العملية التربوية ، ففى الفصل الثانى يرى أن الحياة فى حالة نمو مستمر ، والإنسان على رأس المخلوقات لأنه قادر على فهم عمل الله وحكمته ، وهو صورة الله .

ويعتبر كومنيوس ، فى تطور الفكر التربوى . أول الواقعيين الحسيين ، وهذا الاعتبار فاسد إذا حكمنا على كومنيوس من زاوية فلسفته المشبعة بالزهد والتدين وهى على النقيض من الاتجاهات التجريبية البيكونية

ويميز كومنيوس ثلاث مراحل لإعداد الإنسان لدوره البارز فى العالم الطبيعى المقدس ، فيقول فى الفصل الرابع من كتابه « المرشد العظيم» إن الإنسان وضع بين الكائنات (المرئية) ليكون : كائناً عاقلا، وسيداً لكل الكائنات ، وصورة لخالقه . وفى هذه المظاهر الثلاث أساس الحياة الحاضرة والمستقبلة . وعلى هذه الأسس قامت آراؤه التربوية . فلكى يقوم الإنسان بدوره العاقل فى هذا العالم فعليه أن يلم بالمعرفة كلها ، ولكى يسود الكائنات فيجب أن توهب له القوة على نفسه وعلى الأشياء . ولكى يعد لرسالته الدينية فيجب أن يتعلم كيف يكل نفسه وكل شىء على الله . مصدر كل شىء ، فالتربية تهدف إلى المعرفة والفضيلة والتقوى .

ولكى تتحقق هذه الأهداف ، فى رأى كومنيوس ، فيجب اتباع فلسفة

---

(١) مادة آراء كومنيوس فى التربية وفلسفته مأخوذة أساساً من كتابى Ulich و Price السابق الإشارة إليهما .

بيكون القائلة بأن الإنسان يطيع الطبيعة ليسيطر عليها ، ولكن كومنيوس يضيف مفهوماً قديماً عن الطبيعة جاء من شيشرون وسينيكا . هو المفهوم الفلسفى — الأخلاقى ، ومؤداه طبيعة الإنسان قبل أن يقترف الخطيئة الأولى الكبرى ، فالإنسان الطاهر هو نقطة البداية .

هذا ويمكن تلخيص أهم آراء كومنيوس فى النقاط الآتية (١) :

١ — عن طبيعة الكائن البشرى : يقول إن المناشط البشرية تختلف من فرد لآخر ، ولكنها تندرج تحت ثلاثة أنواع رئيسية ، فكل إنسان يتغذى ويحس ويفهم بطريقته . واعتماداً على مصادر إغريقية ورومانية يقول كومنيوس إن الناس مكونون بثلاثة مبادىء أو نفوس أساسية : النباتية والحيوانية والعاقلة والنباتية تغذينا وتنمينا ، والحيوانية تجعلنا ندرك الأشياء بحواسنا ، والعاقلة تهدينا لمعرفة الحقيقة والتصرف فى المواقف المختلفة . والنفس العاقلة قوامها العقل والإرادة والعاطفة . فالعقل يعرف ويميز . والإرادة قوة تجعلنا نعمل والعاطفة تجعلنا نرغب ونتخير . وعند الإنسان الكامل نجد اتساقاً وانسجاماً بين هذه النفوس أو القوى الثلاث . وهو ما كان موجوداً قبل الخطيئة الكبرى.

والإصلاح ممكن ، ولكن بدوره لا تنمو منفصلة عن المجتمع وعن التعليم الدينى . فالإنسان يتعلم الكلام والحكم على قيم الأشياء باحتكاكه مع أفراد المجتمع ويجب أن يتشبع المجتمع بالاتجاهات الدينية حتى يجد الفرد النامى أمامه نموذجاً صالحاً . فالفرد بحياته فى مجتمع صالح ويتربى تربية دينية صالحة سوف تتحقق له المعرفة والفضيلة والتقوى .

٢ — فى مراحل التربية ... وهذه تتم فى المجتمع الصالح .

(أ) خلال السنوات الست الأولى : تنمو حواسه ، وعن طريقها يدرك بيئته ويسمى هذه المرحلة بمدرسة الأم ، وفيها تعلم الأم الطفل كيف يتكلم ويلاحظ الطبيعة .

---

(١) محاولة التلخيص ، أرجو ألا تؤثر على الأفكار ، ولكن المقصود إلقاء بعض الأضواء فى عجالة عن الفكر عند كومنيوس .

(ب) من سن ٦ — ١٢ سنة يمضيها الطفل فى المدرسة الابتدائية التى تعرف باسم مدرسة اللغة القومية . وقد ألف كومنيوس مجموعة كتب لهذه المدرسة باللغة التشيكية . وهذه المدرسة عامة لكل الأطفال ، وتعلم القراءة والكتابة باللغة القومية ، والرسم ، والحساب ، والغناء ، والتاريخ ، والجغرافية والدين .

(ج) من سن ١٢ — ١٨ سنة يمضيها الفتى فى (المدرسة اللاتينية) ، وفيها يتعلم التلاميذ أربع لغات هى اللغة القومية واللاتينية والإغريقية والعبرية ، والفنون العقلية الحرة السبعة ، ومواد أخرى تؤدلهم للدراسة الجامعية .

(د) من سن ١٨ — ٢٤ سنة وتقضى فى دراسة جامعية . وفى هذه المرحلة تنبثق الإرادة . وغرض الجامعة تدريب الشاب على البحث ، وتزيد التخصص فى المعرفة ، وتعد للمهن كالطب والقانون . وعلى الطالب أن يدرس موادكثيرة جمعها كومنيوس فى ثلاثة كتب هى : البانسوفيا Pansophia وفيه الحقائق العامة عن الطبيعة والإنسان والله ، والبانهستوريا Panhistoria وفيه حقائق خاصة تؤيد ما جاء فى البانسوفيا ، والباندوجماتيا Pandogmatia وفيه تتجمع كل الآراء والأفكار الصائبة وغير الصائبة المتعلقة بالموضوعات التى كتبت فى البانسوفيا ، أو معظمه . ولكن أصول الكتاب ضاعت فى خضم المعارك بين البروتستانت والكاثوليك ، ولم يطبع .

٣ — عن العملية التربوية : إذا اتبعنا الطبيعة ، فمن الممكن أن تكون العملية التربوية سهلة (١) .

(أ) إذا بدأت فى سن مبكر ، قبل أن يفسد العقل .

(ب) إذا كان العقل مستعداً لها .

(ج) إذا بدأت من العام إلى الخاص .

(د) ومن السهل إلى الصعب .

(هـ) إذا لم يدرس التلميذ مواداً كثيرة .

---

(١) Ulich, op. cit., op. 194 (من الفصل السابع من « المرشد العظيم »).

(و) إذا تمشت مع عقلية المتعلم وطبيعتها .

(ز) إذا تعلم التلميذ كل شىء عن طريق حواسه .

(ح) وعرف المتعلم فائدة كل ما يتعلمه .

(ط) إذا سار التعليم فى طريقة واحدة .

٤ — الكتب المدرسية : اهتم كومنيوس بتأليف كتب مدرسية يستخدمها المتعلمون ، وشرح الأهمية العلمية لاستخدام هذه الكتب . ثم يعطى كومنيوس أصولا لاستخدام هذه الكتب حتى تنجح نجاحاً ملحوظاً ، ويعزى إليه أنه بدأ حركة « الكتاب المدرسى » . أما عن أشهر الكتب التى ألفها فهى كتاب « باب اللغات المفتوح » وهو لتعلم اللغة اللاتينية .

٥ — عن طريقة التدريس : وضع كومنيوس أصولا لطريقة التدريس ، وقد تأثرت طرق التربية الحديثة بهذه الأصول بعد أن أضفت عليها من الصبغة العلمية ما جعلها أكثر نفعاً . وقد حدد كومنيوس هذه الأصول فى :

(أ) كل ما لابد أن يعرفه الطفل يجب أن يتعلمه ويكون التعليم بعرض الشىء أو الفكرة مباشرة على الطفل، لا بعرض نموذج الشىء أو رمزه .
(ب) كل ما يعلم يجب أن يعلم على أنه ذو قيمة عملية فى الحياة اليومية ، وذو فائدة معينة .

(ج) كل ما يعلم يجب أن يعلم بطريقة مستقيمة لا عوج فيها ولا تعقيد .

(د) كل ما يدرس يجب أن نشير إلى طبيعته الحقيقية وأصله — أى أسباب وجوده .

(هـ) عند دراسة موضوع ما يجب شرح مبادئه الأولية أولا ، ثم نذكر بعد ذلك التفاصيل .

(و) يجب أن تعلم كل عناصر الموضوع دون استثناء ، مع بيان ترتيبها ومكانها وعلاقتها بعضها ببعض .

(ز) يجب أن ندرس كل شيء ، ولا نعلم أكثر من موضوع واحد المرة الواحدة .

(ح) يجب ألا نترك موضوعاً دون تفهمه تماماً .

(ط) يجب أن نؤكد الفروق التي توجد بين الأشياء المختلفة حتى تكون معرفة الإنسان عنها واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

لقد حاول كومنيوس أن يقيم طريقة تربوية فى الاتجاه العلمى مع الاحتفاظ بالهدف الدينى ، وقد نجح فى هذه المحاولة نجاحاً يستحق التنويه . ولقد تأثر المربون فيما بعد بالكثير من آرائه ، فبستالوتزى اهتم بالملاحظة ، ملاحظة الطبيعة وطورها إلى خدمة التربية بصورة فعالة ، كما عرض روسو بعض آراء كومنيوس التربوية فكان لها صدى عميق فى وقته . واستفاد بازيدو Basedow من فكرة كومنيوس عن استخدام المحسوسات والرسوم فى التدريس . وعلى العموم فان الكثير من مبادىء كومنيوس قد أظهرها اللاحقون من المربين بطريقة شعورية أو لا شعورية فى معرض كلامهم عن تدريب الحواس ، والربط ، والطبيعة ودراستها وملاحظتها .

جون لوك John Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤)

عاش لوك خلال فترة من الانقلابات السياسية فى انجلترا وقد شهد الثورة ضد شارل الأول ، وضد كرومل ، وعودة شارل الثانى وتولية ولیم وماری . وقد ولد فى عام ١٦٣٢ وتلقى تعليمه فى سنى حياته الأولى فى البيت تحت إشراف والده ، وفى سن الرابعة عشرة التحق بمدرسة وستمنستر ، ثم بكنيسة المسيح فى أكسفورد حيث أجرى تجارب فى الكيمياء وقرأ للفيلسوف ديكارت وقد درس الطب ولكنه لم يعمل طبيباً . وقد عمل مع بعض السياسيين ذوى النفوذ ، واضطر فى وقت إلى الالتجاء إلى هولندا ، وبقى بها ست سنوات إلى سنة ١٦٨٩ . وفى عام ١٦٩٣ نشر كتابه بعض أفكار عن التربية

"Some Thoughts Concerning Education" ويستكمل فى هذا الكتاب آرائه التى أوردها فى كتابين سابقين هما « مقـــال عن الفهم البشرى » An Essay Concerning Human Under-standing، و « سلوك الفهم » The Conduct of the Understanding.

وقد انتشرت آراء لوك وتردد صداها ، فى حين أن آراء كومنيوس لم تجد مثل هذا الصدى لمدة قرنين على الاقل . ولعل السبب كما يراه بوليك أن لوك قدم للقرن الثامن عشر مزيجاً رائعاً للتقدم والرجعية . وقد أعجب هذا المزيج المستنيرين وخاصة من بين الإنجليز . وقد أعطى لوك صورة للرجل المثالى ، وجذبت الصورة أنظار الكثيرين فأقبلوا عليها .

وتوصف الشخصية المثالية بأنها متحررة من قيود السياسة والدين ، بعيدة عن القيود التى توارثها النبلاء وطبقتهم التى بدأت شمسها تغيب . ولعل المدة التى قضاها لوك فى المنفى جعلته يرفض النظام المستبد فى الحكم ، وحكاية الحق الإلهى المقدس الذى أضفى على الملوك . ولعل موقفه أزال غشاوة عن عيون الناس فبدأوا يتساءلون باحثين عن الحكومة العادلة ، وعن التحرر من السيطرة السياسية . ففى رأيه أن الإنسان بطبيعته قوة يحمى بها ممتلكاته ، أى حياته وحريته من غيره من البشر .

وفى « خطابات أربع عن التسامح » يهيب بمعاصريه الذين أنهكتهم الحروب الدينية والبغضاء أن يتحرروا دينياً . فما فى النفوس ليس من سلطة الحاكم ، والدين مرتبط بما فى عقل الفرد ... وهذا ما يقبله الله ، فالله لا يقبل سلوكاً نتج عن قوة من الحاكم . ولن تستطيع وسائل التعذيب ومصادرة الممتلكات والسجن أن تغير ما فى نفس الفرد .

ومع هذه الآراء التحررية التقدمية التى نادى بها لوك فان جمهرة الشعب الإنجليزى ظلت معتقدة أن الإرادة الإلهية فى صف الرجعية . وسادت فى عهد وليم ومارى قوى الملكية والأرستقراطية مع السلطات الكنسية ، وظل الشعب خاضعاً لها ، حتى أن هذه القوى سيطرت على التعليم فى جميع مراحله ،

وطردت المارقين منه (حتى عام ١٨٧١) وضاع تعليم الشعب .

ولكن تناقضاً يظهر فى موقف لوك ، فان التربية من أجل (الرجل المثالى) أو (الجنتلمان) لم تكن مستطاعة لكل الشعب ، وإنما كانت ممكنة لطبقات مميزة . ولذلك نراه يقول إنه إذا استقامت أمور هذه الفئة فسوف تستقيم أمور المجتمع كله ، عن طريقهم . وهنا يظهر التناقض بين النزعة التحررية ، وقصر التربية الكاملة على فئة معينة .

ومع ذلك فنسمع من لوك أقوالا عن تربية الأطفال الفقراء ، ومعظمهم كانوا شغالين ، فيقول إن على الأطفال الفقراء بين سن الثالثة والرابعة عشرة أن يكونوا تحت إشراف مدرسين يدربونهم على العمل وليتفهموا الصناعة حتى يردوا بانتاجهم ما صرفه المجتمع على تغذيتهم !!

ويقف لوك مع فولتير الفرنسى فى صف واحد ، كلاهما يتكلم عن مجتمع من الأحرار مميز عن بقية المجتمع . بئس تربية هذه التى قالها لوك عن الفقراء وتدريبهم ليدفعوا ثمن طعامهم . لقد كان كومنيوس قديساً إذا قورن بلوك ، وقد نتلمس بعض العذر للفيلسوف لوك إذا حررنا عقولنا من مفاهيمنا الحديثة وعشنا فى عصر الاضطرابات والسيطرة الدينية والأرستوقراطية .

وإذا تركنا موقفه جانباً لندرس شيئاً عن آرائه التربوية فنجد أنه :

١ — يؤمن بأن الخبرة أساس كل المعرفة ، فالطفل يولد وعقله صفحة بيضاء Tabula Rasa . إن مصدر كل أفكارنا خبراتنا الحسية ، وإدراك الظواهر الداخلية أى نشاط الفهم (١) .

٢ — يؤمن لوك بالإلهام الإلهى ، ولكنه ترك هذا الموضوع ليكون تحت بحث العقل البشرى .

٣ — يؤمن بضرورة التربية الجسمية والخلقية ، وأن يبدأ الطفل تعلمه بالمحسوسات . ولهذا — ففى رأى البعض — يصنف لوك بين جماعة الواقعيين الحسيين .

(١) Mc Cormick' op. cit ; pp. 468 - 470 .

٤ — تهدف التربية إلى : قوة الجسم ، والفضيلة كما تتضح فى صلاح النشأة وحكمة السلوك ، والمعرفة . على أن المعرفة تتوقف على صحة الجسم وحسن الخلق والنشأة الطيبة . ويظهر اهتمامه بتربية الجسم فيقول إن العقل السليم فى الجسم السليم (١) .

٥ — ينبغى ، لكى ينمو الأطفال نمواً جسمياً صحيحاً ، ألا يلبسوا ملابس ثقيلة تدفئهم شتاء ، وأن يسيروا ورءوسهم عارية . وأن يناموا مبكراً ويتيقظوا فى وقت مبكر . والنوم ثمانى ساعات . والتقشف مستحب .

٦ — يرى أهمية التربية الخلقية ، فيكون الجسم قوياً ليكون قادراً على تنفيذ أوامر العقل ، فالجسم القوى قادر على تحمل مختلف الصعاب .. حتى رغباته .

٧ — يجب أن يتعلم الطفل إنكار الذات والسيطرة الذاتية ، ويجب أن يخضع الأطفال رغباتهم ومطالبهم فلا يندفعون وراءها . فلا يحصلون على شىء لأنه يرضيهم ، ولكن لأنه يصلح لهم .

٨ — تهدف التربية الأولى إلى تكوين العادات الصالحة ، ويتدرب الأطفال على تقبل أوامر الأب والمعلم ، عن أن يتحكم الخوف فى تحديد سلوكهم فى طفولتهم ، ويتحول محور السلوك إلى الحب والصداقة عندما يكبر الطفل ، ومع ذلك فيرى لوك أن العقوبة الشديدة غير مجدية ، وينصح باستخدام المدح والتقريظ أما العقوبات البدنية فهو يرفضها إلا فى الحالات القصوى .

٩ — يهتم ببث الفضائل منذ بواكير الطفولة ، فبالفضائل يتمتع الطفل بحب واحترام الآخرين كما يتعود التسامح مع نفسه . والسبيل إلى الفضائل هو التعليم الدينى صباحاً ومساءاً حتى يتعود الإخلاص لله الخالق الواهب الحافظ .

١٠ — تأتى التربية العقلية فى مرحلة تالية للخلقية ، ولا يرمى من التربية العقلية أن يحقق المتعلم كمالا فى علم من العلوم ، ولكن ليتفتح عقله لشتى العلوم .

---

(١) كما وردت : فى القسم الثانى من كتابه : Some Thoughts Concerning Education

ومهمة المربى أن يدرب (ملكات) المتعلم ويعلمه حسن استخدام وقته ، وأن يعوده تحمل الآلام ليحقق الكمال فى عمله .

ولكى يفكر الفرد تفكيراً سليما فيجب أن يدرب عقله على ملاحظة العلاقات بين الأفكار ، والرياضيات خير تدريب على هذه الملاحظة ، فهى الطريق إلى « تكوين مخلوقات عاقلة » .

وبعد هذا العرض السريع لأهم أراء لوك التربوية ، لعلنا نتساءل أين مكانه بين فلاسفة التربية ، فان البعض يضعه فى زمرة الإنسانيين ، والبعض يراه واقعياً ، وأحياناً نفعياً . فمع أنه قد نادى بتدريب العقل ، ولكن بعض آرائه لا تتفق مع القائلين بنظرية التدريب الشكلى ، فهو يرفض ما يذكرونه عن انتقال أثر التدريب .

— كتب لوك عن تربية طبقة خاصة ، ولذلك فلم تجد آراؤه صدى تطبيقياً فى المدارس ، ومع ذلك فقد أثرت آراؤه على التربية الإنجليزية والأمريكية وخاصة فى عملية التدريب ، ومشكلة النظام ، كما تأثر بها روسو وخاصة فى قوله بتربية الطفل تربية طبيعية .

الحركات الطبيعية والنفسية والاجتماعية

.... ونصل فى رحلتنا عبر القرون فى صحبة الفكر التربوى وتطوره إلى القرن الثامن عشر حيث سادت شكلية دينية وشكلية عقلية عرفناها فى عصر التنوير . وقد ثار مفكرون ضد الأنماط السلوكية الجامدة التى حتمها التفكير الدينى ، ثاروا بعد أن ازداد إيمانهم بحقيقة الطبيعة البشرية وما تتطلبه من حرية فى التعبير وارتياح ومرح . وقد ساء الفرنسيون خاصة سلطة الكنيسة الإرهابية القاسية على الفكر والعمل ، وقد ساندت الكنيسة دعارة البلاط الملكى وفسق الحكام ، ومع القوتين كانت قوة الأرستقراطية الممعنة فى إباحيتها الغارقة فى ملذاتها ... وكبار رجال الدين فى نعيم لا يعارضون ولا يحتجون على الملك والبلاط والنبلاء وإنما كبلوا الفكر والعمل بجمود الدين . وغطى رجال الكنيسة موقفهم بالمواظبة على أداء الطقوس الدينية ، وكانت مشبعة بالرياء والنفاق والورع الزائف

ومع ذلك فكانت فرنسا تزدهر وتسمو لتقود أوروبا كأول دولة هى مقومات الدولة الحديثة . وكانت حركة التنوير الفكرى (وقد أشرت إليها سابقاً) ثورة على السلطة الكنسية وعلى الاستبداد فى الحكومة والمجتمع محاولة تحرير التفكير من الجهل والخرافات . ومعتمدة على العقل الإنسانى والتفكير البشرى . وحاولت حركة التنوير بناء الشخصية للفرد مؤكدة كفايته وحريته الفكرية وهادمة المخاوف المتسلطة على المشاعر . فقد آمنت بعقل الفرد وعدالة الحكم والتسامح الدينى وبالحرية السياسية وحقوق الإنسان . وقد بينت فى صفحات سابقة آراء لوك المرتبطة بهذا التحرر . وتبلورت دعوة الداعين فى أن جميع الأفكار تنتج عن التجريب وأنه ليست هناك أفكار فطرية ، وأن الحس هو المصدر الأول لكل أنواع المعرفة ثم يأتى دور التفكير . وقد أعلى من شأن العقل . على أنه يؤخذ على كثير من المفكرين ومنهم فولتير ولوك قصر كفاية العقل وسموه على فئات معينة . ولم ترض هذه الأرستقراطية العقلية بعض المفكرين وقتئذ فقد رأوا فيها طبقة ذكية تقوم على أطلال طبقة غنية . وكان معنى هذا أن تعيش جموع الشعب فى ظلام وجهل . ويقول منرو إن الحركة الفكرية فى هذه النزعة الأرستقراطية تحولت إلى نوع من الشكلية ، شكلية فى الشكل وفى الأثرة وقلة الاكتراث ، وفى زخرفة مظاهر الاختلاط الاجتماعى ، وفى أنظمة عرجاء لمجتمع زائف .. بذلك بعدت هذه الحكمة العرجاء وسيادة الطبقة المتعلمة المصطنعة عن البساطة لاعتبارها دليلا على الابتذال . كما بعدت عن المنهج الطبيعى . ثم ظهر جان جاك روسو يدعو إلى مذهب طبيعى .

جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau « ١٧١٢ — ١٧٧٨ » .

يدرك الدارس لآراء روسو مدى تأثره بآراء مونتين ولوك ، ولكنه كان أكثر قدرة وشجاعة فى توضيح رأيه ، فلم يبال بما ساد عصره من عادات وأفكار لم تعجبه . فقد تأثر بآراء مونتين فى تربية الحواس مؤكداً أن العقل السليم فى الجسم السليم ، كما تأثر بآراء لوك فى العناية بتربية الجسم والعقل .

والخلق وعدم تدليل الأطفال بالمغالاة فى كسائهم وتدفئتهم شتاء ، ولكنه آمن بترك الطفل حراً يفعل ما يشاء ... وسوف تعلمه الطبيعة وتربيه .

ولد روسو فى عائلة فرنسية بروتستانتية تسكن جنيف عام ١٧١٢ ،وماتت أمه فى ولادته ، ورباه والده إلى سن العاشرة ثم كفله أقارب أمه . وقد درس ليتعلم الكتابة وتسجيل العقود ولكنه فشل ، وحاول تعلم فن النقش ولكن قسوة معلمه أبغضته فى الفن وأستاذه ، ويقول روسو فى اعترافاته إنه بسبب هذه القسوة تعلم الكذب والسرقة واعتاد الجبن والمكر . وقد حدث ذات ليلة فى سنة ١٧٢٨ أن عاد متأخراً فوجد أبواب مدينة جنيف قد أغلقت فخاف سوء المعاملة ، وقضى ليلته فى الخلاء . وبدأ يعيش مع إخوان السوء فانحدرت أخلاقه . ويقول روسو فى اعترافاته إنه عمل فى خدمة بعض الأغنياء ، واعتنق الكاثوليكية ، ثم تعرف بسيدة ثرية اسمها مدام دى وارنز وهى أرملة شابة متحررة علمته الموسيقى والكلاسيكيات ثم تركها ورحل إلى باريس ، وعاد إليها ١٧٣٢ ، وكان يحبها فهى فى نظره أجمل النساء (١) . وفى سنة ١٧٣٨ تحول إلى حب سيدة أخرى حتى عام ١٧٤٠ حيث عهد إليه بتربية أطفال إحدى العائلات الغنية فى ليون ، ولم ينجح كثيراً كمدرس . ثم رحل إلى باريس مؤملا أن يخرج على العالم بطريقة جديدة فى الموسيقى ، وقدمها إلى المجمع العلمى ، فرفضت ، ولكنه كسب معرفة كثيرات من السيدات اللاتى يجدن الموسيقى . وعمل بعد ذلك كاتم سر لسفير فرنسا بالبندقية ولكن زملاءه وشوا به فعاد إلى باريس واشتغل بالتأليف الموسيقى . ثم تزوج من امرأة غبية جاهلة اسمها تيريز . ويقول إنه أنجب منها خمسة أطفال وأنه أرسلهم كلهم إلى ملجأ .

ومن أعمال روسو فوزه فى مسابقة قدم فيها « رسالة فى العلوم والفنون » وفى العام التالى (١٧٥٢) قدم للمجمع العلمى « رسالة فى التفاوت وعدم المساواة » آملا الفوز ولكن آماله طاشت ، ونشر الرسالة فى العام التالى ، وفى

---

(١) أنظر : اعترافات جان جاك روسو (ترجمة محمد بدر الدين خليل) .

نفس السنة كتب روسو رسالة فى الاقتصاد السياسى قال فيها بوجوب تعبير القانون عن إرادة الشعب ، وأن تعلم الحكومة جميع الأطفال تعليما سليما حتى تربى الطفل ديمقراطياً ، وأن تفرض الحكومة الضرائب على الأغنياء لاالفقراء

وكتب روسو « العقد الاجتماعى The Social Contract »وفيه دافع عن الفقراء وانتصر للعامة وطالب بالرجوع إلى الطبيعة لتحقيق العدالة الاجتماعية .

وكان روسو جريئاً فى كتابته فى وقت كانت الجرأة نادرة ، فى وقت ساد فيها القول بأنه إذا كان الحكام ذئاباً وجب أن يكون المسيحيون غنماً ، نادى روسو بالحرية والمساواة فلا يمعن الغنى فى غناه ويمعن الفقير فى فقره حتى لا يشترى الغنى الفقراء ، ويبيع الفقير نفسه لعوزه وحاجته . والظاهر أن طفولة روسو وحياته بين فقراء أحياناً وأغنياء أحياناً أخرى . ثم احتكاكه بعناصر الفساد الخلقى على مستوى الجماعات وعلى مستوى الأفراد ، والنذالة التى عامل بها بعض الذين أحسنوا إليه ، والنذالة التى عومل هو بها .. كل هذا جعله يكتب بإيمان وصدق ، وقد عارض آراء فولتير الذى وصف جموع الشعب بأنهم أغبياء متوحشون ، وأنهم ثيران لا يحتاجون إلا إلى منخس ينخسون به ، ونير يوضع على رقابهم ، وعشب يأكلونه (١) .

وانتشر كتاب العقد الاجتماعى ليكون إنجيل الثورة الفرنسية ، فقرأه الجند فى معسكرهم ، وتلى فى شوارع باريس ، بل أعجب النبلاء والأمراء لعذوبة عباراته ومتانة حججه . وعبر الكتاب المحيط ليؤثر فى أمريكا أيضاً .

وكتب روسو « الاعترافات Confessions » أظهر فيها الطبيعة الحقة للإنسان وكان أميناً فى شجاعة وقحة فلم يخف خطيئة من الخطايا التى ارتكبها ، ويذكر أن أحداً قبله لم يقف عارياً — فى كتابته — أمام العالم كما فعل ، قائلا « إذا لم أكن أحسن من غيرى .. فأنا على الأقل مختلف عنهم » .

أما مؤلفه الخالد « إميل Emile » فكان الدافع له على كتابته سؤالا من سيدة طلبت أن يرشدها إلى الطريقة المثلى فى تربية أبنائها ، وقد وضح فى إميل

(١) محمد عطية الابراشى : جان جاك روسو ، ص : ٣٩ — ٤٠

كيف يربى الطفل منذ ولادته حتى يبلغ العشرين من عمره ، وتشمل الأجزاء الأربعة الأولى من إميل هذه التربية ، أما الجزء الخامس فشرع فيه تربية البنت لتكون امرأة تربى أبناءها وتسعد زوجها .

وكانت سنوات روسو الأخيرة متسمة بالمتاعب فبعد أن ألف إميل خاف الاعتقال فهرب إلى إنجلترا . وظل يتنقل هو وتيريز من مكان إلى آخر حتى عادا متنكرين إلى باريس سنة ١٧٧٠ ، وضاقت زوجته به وأهملته . وعاش بائساً يكسب قوته بنسخ الموسيقى حتى ضعفت أعصابه وعجز عن الكتابة أو كاد . وجالت برأسه هواجس وخواطر غريبة ففقد الثقة فى كل الناس ، ثم انسحب إلى الغابات حيث قدم له صديق كوخاً فى غابة يسكنه . وعادت إليه الخواطر السوداء فظن أن أعداءه يحيطون به . ويقال أنه انتحر ، وقيل إن سكتة قلبية دهمته فمات ودفن فى ليلة صيف هادئة بين أحضان الطبيعة وسط أشجار الحور . وبعد أن نجحت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) حمل الثائرون جثته حيث دفن مع العظماء فى البانثيون .

أما عن آرائه التربوية التى تردد صداها فسوف أكتفى بتلخيص وجيز لها :

١ — يرى أن هدف التربية هو تكوين إنسان كامل ، وأن على التربية أن تزيل كل شىء لتنمو الطبيعة الإنسانية وترقى ، فالتربية بهذا المعنى وسيلة يزول بمقتضاها ما يعوق نمو الطفل وما يؤثر فيه تأثيراً سيئاً .

٢ — ثار روسو ضد النظم القائمة وخاطب الناس قائلا « سيروا ضد ما أنتم عليه تصلوا إلى النجاح » . وقد هزأ بالتعليم المدرسى العادى ، ونصح المربين بأن يرجعوا مع الأطفال إلى الحالة الطبيعية .

ولا ندرى بالضبط ماذا يريد روسو بالحالة الطبيعية . فهو يقول إنه لا يجب أن يسمح للطفل فى تربيته بالاختلاط بأحد حتى لا يقلد نموذجاً سيئاً . وليذهب الأطفال إلى الطبيعة ويبقوا على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق مستوى البحر حتى لا يصابوا بأمراض خلقية اجتماعية ..

٣ — يرى روسو أن التربية الأولى من الميلاد إلى سن الثانية عشرة يجب

أن تكون سلبية محضة ، إذ أنها لا تدعو إلى بث الفضائل بل عليها أن تبعد كل ما يكون الرذائل عند الطفل ، وحتى تحفظ عقل الطفل من الخطأ . والخير فى أن تترك الطفل دون أن تفعل شيئاً له . وفى رأيه ألا يعلم الطفل شيئاً حتى الثانية عشرة .

٤ — حتم روسو على المربين دراسة الأطفال وأن يدرسوا العالم فى نظر الطفل وعقليته وغرائزه وميوله وتفكيره .. الخ ، ويقول « ادرسوا أطفالكم ، إننا لا نفهم معنى الطفولة » . وكان يرى أن جهل المربين بالأطفال والطفولة أدى إلى تربيتهم تربية خاطئة . ورأى .. « إن الطبيعة تتطلب أن يكون الأطفال أطفالا قبل أن يكونوا رجالا » والطفل فى نظره ليس مصغر رجل ولكنه كائن فى طريق النمو . ويتكلم روسو عن بعض صفات الأطفال فيقول « إن الأطفال لا يفكرون إلا فى الحاضر دائماً ، إن فى استطاعتك أن توحى إليهم بذوق أو عاطفة ، إنهم معجبون بأنفسهم يتمنون أن يكون لديهم ما لدى غيرهم ، إنهم مرحون محبون للمحاكاة ، إن الطفل يتمنى أن يكون أشياء ، وأن يقلد ، وأن ينتج ، وأن يظهر قوة ونشاطاً » (١) .

وكان يرى أن وظيفة المربين إعداد الطفل للحياة المقبلة وأن يدركوا العالم فى نظره ، وكيف يراه ويتخيله ، وأن يفكروا فى عالم الطفولة الذى يعيش فيه حتى يأخذ من المواد ما يلائم ذلك العالم .

٥ — اهتم روسو بنشاط الطفل ونصح بمده بالوسائل التى يظهر فيها هذا النشاط ، كما نادى باستغلال حواس الطفل وتربيتها منذ الطفولة . بل إنه نادى بعدم تعليم الأطفال القراءة فى الصغر معتقداً أن حركة الطفل ولعبه أكثر فائدة له فى الناحيتين الجسمية والعقلية .

٦ — يرى روسو أن يقلل بقدر المستطاع من الأوامر والنواهى التى يصدرها الكبار للأطفال ، كثرتها تميت شعور الطفل ، ولا تدفعه إلى التفكير لأنه يصبح آلة فى يد غيره . ولذلك فهو يرى أن يتعود الطفل السلوك دو..

---

(١) محمد عيطة الابراشى : (المرجع السابق) ص : ٧٦

سلطة خارجية تصده عن الخطأ . إذ أن معنى هذه السلطة أنه يعمل خوفاً من عقاب ولا يفكر فى إرضاء ضميره أمام الله والإنسانية . وإنما يسلك ما يسلك لإرضاء غيره .

٧ — يؤمن روسو بتشجيع الدراسة العملية والطبيعية والرياضية ، ويندد بتعليم الآداب واللغات . كما يرى ألا يعتمد الطفل على الكتب وحدها فى التعلم.

٨ — وفى رأى روسو أن يترك الطفل للطبيعة يتعلم ما فيها من أسرار ، ويدرس ما فيها من نبات وحيوان وجماد حتى يقدر قدرة الخالق . والطبيعة فى نظره خيرة وأن الشر يأتى إلى الإنسان من احتكاكه بالناس .

وقد عبر روسو عن آرائه التربوية فى كتاباته ، وخاصة فى « إميل » . وإميل شخصية رباها روسو فى كتابه ، ولم يقترح نظاماً للتعليم ، ولكنه ترك الطبيعة تأخذ مجراها ، والكثير من الآراء التى أوردها لا يمكن تطبيقها اليوم . ولكن روسو يقترح عدداً من الوسائل لدراسة طبيعة الطفل . والكتاب فى خمسة أجزاء (١) :

١ — الجزء الأول : من الميلاد إلى الخامسة ، وينصح روسو بأن ينقل الطفل إلى الريف ليعيش وسط الطبيعة . ولا يتدخل أحد فى تربيته ، بل يترك لتقوم الطبيعة بتهيئة الظروف للنمو الداخلى لمواهب الطفل وأعضائه . وينصح بألا يلف الطفل بعد ولادته بالأربطة واللفافات ، فهذا معوق لنموه الطبيعى ، وألا نغالى فى العناية به حتى ينمو مستعداً لمقابلة صعوبات الحياة ، فنجيب طلباته الضرورية دون أن ندلله . ويوجه الطفل فى هذه المرحلة : الأم مصدر حبه ، والأب وهو المربى الأولى للطفل ، ثم المعلم الذى يعلم الطفل واجبات الرجال .

٢ — الجزء الثانى : من الخامسة إلى الثانية عشرة ، ويظل الطفل فى الريف ويتركه المعلم يعلم نفسه بنفسه من الطبيعة . فاذا أخطأ يتحمل تبعة خطئه . والتربية فى هذه المرحلة جسمية ، وينصح بأن يعود الطفل الخشونة . وتتميز

(١) صالح عبد العزيز : تطور النظرية التربوية. ٢٨٤ - ٢٩٦ .

هذه المرحلة بأن التربية فيها سلبية ، تهتم بتعويد الطفل العادات الخلقية السليمة، ولا يتعلم القراءة والكتابة ، بل لا يحمل الطفل على تعلم أشياء لا يقدر على فهمها ، وأن يقتصر الإعداد التربوى للطفل على مجرد تدريب الحواس .

٣ — الجزء الثالث : من الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة ، وهذه مرحلة البلوغ ويراها روسو مرحلة التفكير والدراسة ، ومرحلة العمل والتعليم . وينصح بأن نعتمد على الظمأ الطبيعى للطفل نحو المعرفة ، وأن نعتمد على الطبيعة وألا نلجأ إلى الكتب ، فالعالم المحيط بالطفل هو كتابه ، وحقائق هذا العالم هى موضوعات التعليم . وينصح روسو بتعليم إميل الجغرافية والفلك والجبر والطبيعة ، ويكون تعلمها بطريقة عملية .

ويرى أن يكون كتاب روبنسن كروزو أول كتاب يقرأه إميل ، سيتقمص شخصية روبنسن ويتعلم بعض الصناعات التى كان يقوم بها بطله ، وأن هذا سيحرك فيه دافع البحث عن فنون أخرى . ومرة أخرى ينصح روسو بأن نعود إميل التقشف فيفترش الأرض ويلتحف السماء مثلا .

٤ — الجزء الرابع : من الخامسة عشرة إلى العشرين ، فبعد أن أخذ إميل قسطاً كافياً من التربية الجسمية والعقلية أصبح لازماً أن يربى دينياً وأخلاقياً حتى يدرك صلته بالناس وعلاقته بالله . ويرى الإقلال من النصائح والإرشاد وزيادة اتباع الطرق العملية واحتذائه المثل الصالحة التى يلمسها فى سير أبطال التاريخ . ومن رأى روسو أن تعليم الدين لا يبدأ إلا فى سن الخامسة عشرة . ويفيد إميل من احتكاكه بذوى الخلق السيء وزيارته للملاجىء والسجون حتى يشاهد أمثله محسوسة للبؤس ويتعرف على نتائج السلوك الخاطىء . وفى هذه المرحلة يبدأ إميل يتذوق القراءة والفن .

٥ — الجزء الخامس : تربية المرأة ، فقد كبر إميل وبدأ يبحث عن زوجة ، فوجد صوفى . وفى هذا الجزء يعطينا روسو آراءه عن تربية المرأة التى ستصبح إمرأة مهمتها إرضاء الرجل . ولهذا فيجب أن تربى لتحقق هذا الهدف ، وحيث أنها تسعى إلى إرضاء رجلها فيجب أن تمرن جسمياً لتكون

رشيقة سليمة البنية قوية ، وتتعلم الطهى والتطريز والعناية بالأطفال ، وبعض الفنون كالموسيقى .. وتتعلم كيف تكون فاتنة جذابة . ولا يرى أن تتعلم علوماً عقلية . وكل ما تتعلمه يدور حول إسعاد وخدمة الذكر ، طفلا وصبياً وزوجاً

ويرى بعض الكتاب أن موقف روسو الشاذ عن تعليم المرأة وحقيقة دورها فى المجتمع إنما سببه أنه لم يعرف فى حياته نساء ذوات شخصيات محترمة. ألم يتزوج خادمة غبية جاهلة سليطة اللسان ناكرة الجميل . ؟

لا يختلف المربون فى قولهم إن روسو واضع أصول المذهب الطبيعى فى التربية ، فقد ألح بوجوب اتباع الطبيعة ، فيقول .. إن كل شىء حسن طالما هو فى يد الطبيعة ، ولكن كل شىء يلحقه الفساد إذا مسته يد الإنسان ، نحن نولد ضعفاء فى حاجة إلى قوة .. نحن نولد مجردين من كل شىء ، فى حاجة إلى عون .. نحن نولد أغبياء ، فى حاجة إلى قدرة على التمييز ... فكل ما حرمناه عند الميلاد ، ونحتاجه عندما نكبر ، تمنحنا إياه التربية (١) .

ولعل صيحة روسو Retournez â le nature العودة إلى الطبيعة ، قد هزت المربين فى عملهم (الروتينى) ، وغيرت فى طرائق التربية ، وأثرت فى اتجاهات الكبار نحو الأطفال الذين لم يصبحوا رجالا مصغرين . ونال الأطفال حقوقهم على يد روسو ، بل نالت التربية مكانتها فى مركز النمو البشرى بعد أن تخلصت من دورانها فى فلك الكنيسة والدولة والمجتمع (٢) .

لقد عاش روسو حياة مضطربة ، وكتب درراً ثمينة ألهبت مشاعر الفرنسيين ، بل مشاعر الباحثين عن الحرية ، والكيان الفردى لكل إنسان ، ثم أمضى سنى حياته الأخيرة يعيش على الكفاف مع زوجة أتعبته وأهملته ولم تستمع لرجائه . ونصر روسو الطفولة حتى يسعد الأطفال مؤكداً ضرورة دراسة المربى نفسية الطفل .

— — —

(١) جان جاك روسو (ترجمة عادل زعيتر) : إميل أو التربية ، ص : ٢٧ - ٢٩ .

(٢) Ulich, op. cit., p. 223

... ويتقدم ركبنا فى تطوره التربوى حتى نطل من نافذة التاريخ على القرن التاسع عشر . وقد وارينا روسو التراب بعد صيحته المدوية الطبيعية والتى وجهت النظر إلى الطبيعة ، طبيعة الطفل و الطبيعة الخيرة التى يتربى فى أحضانها وتتحول التربية بالطبيعة إلى التربية بالنمو . ومن صيحة روسو وحياة إميل يبدأ عصر جديد للتربية بعد أن أصبحت عملية طبيعية تبدأ من الغرائز الفطرية ومن الدوافع إلى العمل ، توجهها المبادىء المستمدة من دراسة عقلية الطفل ونموه ، ومن عقلية الراشد وكيف تعمل ، بهذا وضع روسو الأحجار الأولى فى بناء الحركة النفسية .

ويأبى روسو أن يقف عند هذا الحد ، فهو يضع أيضاً أسس الحركة العلمية فى التربية . فقد قال بأن تكون الحقائق والظواهر الطبيعية قوام المادة التى يتعلمها الطفل ، فهو يبحث عن قوانين الطبيعة عن طريق احتكاكه المباشر بها ، ممجداً الطبيعة ومقللا الاهتمام بالإنسان ، فالطبيعة مصدر الخير . والإنسان سبب الفساد والشر .

على أن روسو أعجب بالإنسان البدائى فى حياته الطبيعية ، فاهتم بفضائله فهو إنسان حريص على تحسين عمله الخاص ويحس فى نفس الوقت بانتمائه إلى جماعة بشرية يتعاطف معها ويتعاون مع أفرادها ... وفضل آخر لروسو فقد أسهم فى أساس الحركة الاجتماعية .

ومع نهاية القرن الثامن عشر وبزوغ شمس التاسع عشر بدأت الحركات الثلاث (النفسية والعلمية والاجتماعية) تظهر على مسرح التربية متضامنة فى تكامل أصبح ينمو على مر السنين حتى يتعذر الفصل بينها . فقد التفت آراء المربين بمبادئها المتناسقة . وإن نظرة فاحصة قد تظهر لنا أن الحركة النفسية أسهمت بقسط كبير فى طرق التدريس ، كما تأثرت مادة الدراسة بالحركة العلمية ، أما الحركة الاجتماعية فتغلغلت فى المناهج والخطط المدرسية وفلسفتها.

وكانت نداءات روسو ذات طابع سلبى ، فهى تطالب أن تزال العقبات التى تقف أمام النمو الطبيعى للطفل ، وجاءت الحركة النفسية لتبذل مجهوداً للتعبير عن هذه النداءات إيجابياً .

بستالوتزى Johann Heinrich Pestalozzi (١٧٤٦ — ١٨٢٧)

صاحب فضل فى أنه وجه الأنظار إلى أن مشكلة التربية يجب دراستها من ناحية علاقتها بنمو عقلية الطفل . وإذا كان مربون سابقون قد أشاروا إلى نفس المشكلة إلا أن بستالوتزى رفعها عالية واضحة على قمم جبال سويسرا .

فى زيورخ عام ١٧٤٦ ولد بستالوتزى ، ومنذ طفولته عاش فى اليتم بعد وفاة أبيه ، وعوضته أمه عنه بعطفها الشديد . وقد التحق بالجامعة . ودرس اللاهوت ، ثم تحول إلى القانون كى يدافع عن الفقراء ، ثم تحول إلى تعلم الفلاحة والزراعة . وعول على استصلاح قطعة أرض ثم فشل . وحاول تنشئة طفله الوحيد متبعاً أسلوب إميل ، وهنا اكتشف السلبية فى آراء روسو ، وبدأ اهتمامه بالتربية .

وفتح بيته فى نيوهيف لعشرين طفلا يقوم على تربيتهم فى الحديقة والحقل صيفاً ، وداخل البيت شتاء .. وخرج من هذه التجربة بأنه إذا أحس الطفل عطفاً ورعاية فلن يقترف السلوك الشائن . وجاءته أعداد أخرى من الأطفال ، وكان آباؤهم فقراء . وفشل بستالوتزى معهم فقد ظن الآباء أنه يريد استغلال أطفالهم لمآرب مادية ، وفر الأطفال بعد أن كساهم بستالوتزى ملابس جديدة وأوشك على الإفلاس ، وأعانته زوجته حتى نضب مالها .

وعاش ثمانى عشرة سنةمنكباً على أعمال أدبية ، فرأس تحرير صحيفة ثورية وكتب مقالات تدور حول الإصلاح الاجتماعى . وأنه لا يتم إلا عن طريق التربية . وكتب « ساعة الناسك الليلية » الذى حوى مائة وثمانين اقتراحاً تربوياً . وكتب « ليوناردو جرترود » وتدور قصته حول حياة سكان الريف وأسباب انحطاط مستوى معيشتهم ونادى فيه بضرورة تنمية أخلاق الطفل وعقليته ، كما بين أهمية تحقيق الإصلاح فى المجتمع . وأعقبه بكتاب « كرستوفر والبزا » وضمنه بعض المبادىء التربوية ، وفشل الكتاب ، كما فشلت صحيفة أسبوعية أصدرها ، وسبب الفشلين أنه كتب للدراسة والموعظة ، وكان الناس يفضلون القراءة للتسلية والمتعة (١) .

(١) سعد مرسى أحمد : فوويل ، ص : — ٣٠ — ٤٣.

ثم تعرف على فلاسفة ألمان مثل جوته وفختة . وكتب مؤلفاً عنوانه «بحث فى أثر الطبيعة فى نمو الجنس البشرى» وكان صعباً جداً لا يفهمه الناس .
وكانت محاولته التربوية العملية الثانية فى مدينة ستانز (١٧٩٨) حيث أشرك معه آخرين فى تربية أربعين طفلا ذبح الجنود الفرنسيون آباءهم . وفى هذه المؤسسة التربوية حاول أن يجمع بين النشاط التربوى والصناعة اليدوية معتمداً على فتح قلب الطفل ثم تحقيق رغباته اليومية ، وإشعاره بالعطف والحب . وعاش فى دير مع الأطفال ، بعد أن هجره الذين وعدوه المشاركة مدة خمسة أشهر حتى احتل الجيش الفرنسى الدير ، ونجحت تجربته مع الأطفال ، لقد فهم عقولهم وقوانين النمو وعرف كيف يجذب قلوب الصغار نحوه . وتعب ماديا وتوسط له الخيرون حتى عين مدرسا فى مدرسة بمدينة برجدورف . وبعد أن درس ثمانية أشهر لأطفال تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثامنة ، جاءه تقرير من المدرسة عن عمله . . . «إن التقدم المدهش للأطفال ذوى القدرات المختلفة يبين أن كلا منهم صالح لشىء إذا استطاع المدرس أن يحسن استغلال مواهبهم مترسما خطى مبادىء علم النفس . إن الطرائق القديمة التى قامت على التعذيب وألوان العقاب المختلفة مكنت الأطفال من معرفة هجاء الكلمات وإجادة عمليات الحساب ، أما طريقتك فقد زادت على ذلك إجادتهم الرسم والخط ، بل ورغبتهم فى دراسة التاريخ الطبيعى والجغرافية مما سييسر على المدرسين الذين سيدرسون لهم فى المستقبل عملهم . . . » .

وألقى إليه الإشراف على مدرسة ثانية فى برجدروف ، بلغ عدد تلاميذها سبعين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة . وكان بستالوتزى يفكر فى خير كل الأطفال . . . » إذا أردنا أن نمد يد العون إلى الفقير والبائس ، فلا يوجد سوى طريق واحد هو تغيير المدارس إلى أماكن للتربية الحقيقية حيث يتاح للقوى الخلقية والعقلية والجسمية التى منحتنا إياها الطبيعة أن تعمل وتظهر ، وبذلك يمكن للإنسان أن يحيا كما يجب أن يحيا الإنسان راضيا عن نفسه ومرضيا غيره » .

ولمع اسم بستالوتزى . ومنحته الحكومة إعانة مالية ، وافتتح فصلا لتدريب المعلمين . ولكن الظروف السياسية قسمت سويسرا إلى مقاطعات ، وانقطعت الإعانة المالية ، فهاجر بستالوتزى إلى فردون ، وفى قلعتها بدأ يعمل . ووفدت إليه الوفود ليدرسوا ويلاحظوا طريقة بستالوتزى فى التربية جاءته من دول أوربية كثيرة . ولعب الحسد دوره . وبدأت الأحوال المالية تسوء : فاضمحل المعهد وأنسحب بستالوتزى فى أواخر أيامه إلى قرية صغيرة اسمها كلندى ، ثم رحل إلى نيوهيف حيث مات عام ١٨٢٧ .

أما عن آرائه التربوية فهو يقول إن ما يلزم عربة المدرسة ليس تغيير الخيول . ولكن تغيير الطريق ، ويرى أن اعتبار النمو هدفا للتربية معناه أن يصبح الطفل محور الاهتمام ، وفى ظل التربية الصحيحة ينمو النمو الصحيح . والتربية فى رأيه هى نمو جميع قوى الإنسان وملكاته نمواً طبيعياً فى اتساق وانسجام (١) .

والفكرة الأساسية فى طريقة بستالوتزى التى جذبت إليها الأنظار تلخص فى اعتماده على التجارب والنواحى العملية التى تعمل على تطوير العقل فتتحسن قدراته وتحلل المعرفة إلى عناصرها الأولية المبسطة حتى تجذب اهتمام الطفل ويتم هذا عن طريق الملاحظة والتأثير الحسى .

وتلخص آراء بستالوتزى فى التربية فى :

١ — يجب أن نبحث عن مبادىء التربية وأسسها داخل الطفل ، وأن تبدأ منه هو ، لا أن تفرض عليه من الخارج .

٢ — تشمل طبيعة الطفل على قدرات جسمية وعقلية وخلقية ، وهذه يجب أن تنمو .

٣ — للتربية ناحيتان : ناحية إيجابية وأخرى سلبية . فالوظيفة السلبية للمربى تلخص فى إزالة العقبات التى تعترض نمو الطفل . أما الإيجابية فتظهر فى إثارة المتعلم لتدريب قواه ، فالمعلم يمده بالوسائل والفرص المناسبة ثم يرشده إلى الصواب .

---

(١) سعد مرسى أحمد : (المرجع السابق) ، ص : ٤٣ — ٥١ .

٤ — يبدأ النمو الذاتى عندما يتأثر العقل بالموضوعات الخارجية ، ويقصد بها الإحساسات . وعندما يعيها العقل تتحول إلى مدركات حسية ، وتسجل فى العقل على أنها إدراك لأفكار ، وهذه تكون المعرفة الأولية التى تصبح أساساً لكل معرفة .

٥ — تعتبر التلقائية والنشاط الذاتى الظروف الضرورية التى فى ظلها يعمل العقل نفسه ويحصل على القوة والاستقلال .

٦ — تعتمد القدرات العلمية على العادات التى تكونت من تكرار وتدريب قوى المتعلم أكثر من اعتمادها على مجرد المعرفة البحتة ، فيجب أن ترتبط المعرفة بالعمل . ولعل غرض التربية الرئيسى هو تنمية قوى المتعلم .

٧ — يجب أن تؤسس تربية الطفل على التأمل وخبرته الشخصية ، وهذا هو الأساس الصحيح الذى يستمد منه كل معلوماته ، فالملموس سابق للرمز والمعنوى .

٨ — يستطيع الطفل بعد أن رأى وتأمل ، وبعد أن أصبح هذا العمل جزءاً من خبرته أن يصف الشىء بأسلوبه وكلامه . وعلى قدر وصفه من حيث سموله أو نقصه ، عمقه أو سطحيته نستطيع أن نحكم على دقة تأمله ، وبالتالى نعرف مدى معلوماته .

٩ — تؤدى الخبرة الشخصية إلى تقدم عمل المتعلم من القريب الملموس إلى البعيد المعنوى ، ومن الخاص إلى العـــام ومن المعلوم إلى المجهول. ويرى بستالوتزى أن هذه هى الطريقة النافعة مع الأطفال المبتدئين .

١٠ — يجب أن تكون المحبه أساس العلاقة بين المعلم وتلاميذه ، وأن تكون الركيزة التى يبنى عليها النظام المدرسى .

لقد نجح بستالوتزى فى تجاربه مع الأطفال ، وكان لشخصيته الفذة فضل كبير ولكنه لم يبين لنا بصورة نظرية أو عملية كيف يتم نمو العقل وكيف تتم عملية التمثيل العقلى ، وكيف تتحول الإدراكات الحسية إلى أفكار ، وهذا ما حاوله هربارت .

هربارت Johann Friedrich Herbart (١٧٧٦ — ١٨٤١) .

تناول هربارت أفكار بستالوتزى وصبغها بالأسس النفسية . وقد ولد بمدينة أولدنبرج بألمانيا عام ١٧٧٦ من عائلة على قدر كبير من الثقافة . ودرس الفلسفة فى جامعة يينا حيث تأثر بآراء فخته ، وفى عام ١٧٩٩ قبل وظيفة مؤدب لثلاثة أخوة أعمارهم ثمانى سنوات وعشر ، وأربع عشرة سنة . ومن هذه التجربة العملية كون عقيدته التربوية . وقد زار معهد بستالوتزى فى برجدورف عام ١٧٩٩ . وعين أستاذاً للفلسفة فى جامعة هيدلبرج عام ١٨٠٩ ، وألحق بها مركزاً نموذجيا لتدريب المفتشين والنظار ، ومن أهم كتاباته « نظام فى فلسفة وكتاب علم النفس » ، « مقالات تربوية » ، و « ملاحظات فى التربية العامة . »

وقد أسس هربارت آراءه التربوية على الأخلاق وعلم النفس ، فالأخلاق تحدد الهدف ، وعلم النفس يشير إلى الوسائل . وتتلخص أهم آراء هربارت فى :

١ — غاية التربية الأخلاق والفضيلة . والطريق إلى الفضيلة المعرفة الكاملة . وعلى المدرس أن ينمى فى تلاميذه البصيرة والإرادة حتى يتحقق الانسجام بينهما وعليه أن يفهم أولا نفسية تلميذه .

٢ — يتحدث هربارت عن التربية تحت عناوين : الحكومة ، والتعليم ، والتدريب ، فالحكومة تهتم بحاضر الطفل ، والتدريب بمستقبله .

٣ — لتحقيق الهدف الأسمى من التعليم ، وهو الفضيلة فيجب أن تهتم بهدف قريب هو تحقيق اهتمامات الطفل ، بهذا يضع هربارت أساسا وطيداً فى التربية ترتكز عليه اليوم ، هو مراعاة اهتمامات الطفل ، والاهتمام فى رأيه نوع من النشاط العقلى .

ويقسم هربارت الاهتمامات إلى :

١ — اهتمامات تنبع من المعرفة ، وهى الخبرة الحسية التجريبية ، التأمل فى طبيعة الأشياء ، التأمل وتقدير الجمال .

٢ — اهتمامات تتم عن طريق الربط ، وهى أفكار التعاطف الوجدانى

التى تربط الفرد بغيره ، والأفكار الاجتماعية المرتبطة بالمجتمع ، والأفكار الدينية المرتبطة بعصير الفرد . لذلك فان هربارت يرى أن تتجمع مادة الدراسة بشكل يحفظ عليها وحدتها وحتى يستطيع الطفل أن يدركها برمتها كما تعرض له . وبهذا تقوى هذه الميول المتعددة الجوانب ، وقد طبق فكرته هذه فى (الطريقة العامة) :

٣ — يرى هربارت أن النفس البشرية وحدة متصلة ، فلا تتكون من عقلية فطرية منفصلة . وأوضح أنها تتصل بالعالم الخارجى أو بالبيئة عن طريق الجهاز العصبى ، وبهذا الجهاز يتزود العقل بالمعلومات الأولية والمبادىء عن طريق الإدراك الحسى . وبهذا تتكون الحياة العقلية للطفل . كما أن تفاعل العقل لا يتكون ولا يكتسب ما ينطوى عليه من معارف بنمو القدرات الفطرية ، ولكن عن طريق الخبرة بما فيها من تجريب واستطلاع :

٤ — ومن الرأى (الثانى والثالث) يتكلم هربارت عن كيفية عرض المادة أو جزء من أجزائها . وعماد هذه الطريقة كيفية عمل العقل التى بها تتسع دائرة الشعور ، ولا تحددها طبيعية المادة ذاتها . والمؤكد أن هربارت لم يضع الطريقة بالصورة الشكلية التى عرفها المربون فيما بعد . و (الطريقة) الهربرتية تقسم إلى خمس خطوات (١) .

(ا) الإعداد أو التحضير . وفيها يستدعى المدرس إلى عقل تلاميذه الأفكار القديمة المرتبطة بالأفكار الجديدة التى يراد توصيلها للعقل :

(ب) العرض الفعلى للأفكار الجديدة ، وهنا ترتبط الأفكار الجزئية بعضها ببعض وتتضح الفكرة العامة .

(ج) الربط . ويقصد بالربط الصلة الحقيقية بين القديم والحديث ، وفيها يتم التمثيل العقلى للفكرة الجديدة . وتتجمع الأفكار المتشابهة مع بعضها ، وتظهر نقاط الاختلاف . وتتم المقارنة فى هذه الخطوة والمقارنة هى منطق الاستقراء .

---

(١) Edy, op. cit ; pp. 492 - 493

(د) التعميم ، اهتم بستالوتزى بموضوعات الخبرة الفردية والحسية فقط، أما هربارت فقد أدرك أن التفكير الحقيقى عن طريق تحليل الخبرات لاستخراج الصفات المعنوية ، وبهذا تتكون المدركات العامة . وهذه الخطوة ضرورية وإلا ظل العقل فى مرحلة التفكير فى الجزئيات والمحسوسات ، أما عن طريق التعميم فان العقل يستنتج القواعد من الجزئيات .

(هـ)التطبيق ، وفيها يستخدم الطفل المعرفة التى تعلمها ، فهو يطبق القواعد والمبادىء والمعارف فى أنشطة مختلفة .

ولهربارت الفضل فى تحطيم نظرية الملكات والقوى العقلية المنفصلة ، وله الفضل فى تقديم طريقة علمية رياضية للبحث التربوى . ولعله وجه الأنظار إلى اتجاهات تقدمية فى إعداد المعلمين وتدريبهم وقد ارتبط اسم هربارت فى بداية القرن العشرين عند المدرسين بكلمات . . . . الاهتمام ، الأفكار السابقة ، دائرة التفكير ، التركيز ، الربط ، ثم الخطوات الخمس التى أساء بعض المدرسين فهمها وأضفوا عليها شكلية فى تحضير الدروس .

فروبل Friedrich Wilhelm Froebel (١٧٨٢ — ١٨٥٢ —) :

تناقش آراء فروبل وأعماله من زوايا واتجاهات متعددة ، البعض يراه أعظم المربين فى القرن التاسع عشر على الإطلاق ، والبعض يراه مغفلا شاذاً ضيع وقته فى لعب مع الأطفال . ونفر ينظرون إليه على أنه صاحب آراء غامضة رمزية غير مفهومة . أما الحكومة الألمانية فقد رأت فيه ثائراً خطراً، ومنعت انتشاراً رائه التربوية وتطبيقاتها . وينظر كثيرون إلى أن آراء فروبل اقتصرت على رياض الأطفال ، وأنها تشبعت بالاتجاهات الدينية فلا تصلح للتطبيق العملى . . . واليوم تجدآ راؤه صدى عميقاً عند الذين لا يقفون عند حدود القشرة الخارجية ، بل يريدون سبر الأعماق .

ولد فروبل فى إحدى قرى ألمانيا عام ١٧٨٢ . وماتت أمه وسنه تسعة أشهر ، وترك لرعاية الخدم . وكان أبوه قسيساً منهمكاً فى عمله ، بعيداً عن طفله . وتزوج أبوه ، وتطلع إلى خير ، ولكنه رزق بطفل اغتصب كل

عطف زوجة أبيه . وأصبح فردريك دخيلا . فأمضى معظم وقته فى حديقة البيت يتأمل الطبيعة . ودخل المدرسة ، ومن دروس الدين أحس أنه فى سلوكه يسير فى طريق الجنة (١) .

وجاء أخوه الأكبر بعد دراسته ليقيم فى البيت ، ونال فردريك حناناً منه ، إلا أنه رحل ، وجاء خاله للزيارة ، ثم رحل ومعه فردريك فروبل إلى مدينة ستادلم . وكان عمره إحدى عشرة سنة . وأحس فروبل بالراحة مع خاله القس ، الذى شجعه على الدراسة ، وأقبل فروبل على دروس الدين بحماس ، وكره دروس اللغة اللاتينية . و عاد إلى أبيه ، ولم يسمح له بالدراسة الجامعية ، ولكى يلتحق بوظيفة فى الزراعة تتلمذ على صديق لوالده مدة عامين ، ويذكر فروبل حادثة أثرت عليه وهى مشاهدته لفرقة تمثيلية ، وقد أعجب جداً بالتمثيل والممثلين ، ووصف أبوه التمثيل بأنه رجس .

وحدث أن كلف بحمل مبلغ من المـــال لأخيه تروجوت الذى يدرس الطب بجامعة يينا ، وهنا توسل أن يدرس فى الجامعة ، وبقى بها شهرين . ثم باع أرضاً ورثها عن أمه والتحق بالجامعة عام ١٧٩٩ . . « ولم يكن لى صديق غير أخى . وقد آثرت أن أقضى معظم وقتى فى الدرس والتحصيل ولم أندمج فى الحياة العـــامة إلا نادراً ، وعلى فترات متباعدة . غير أننى كنت أتردد بين الوقت والآخر على المسرح القريب لاستمتع بمشاهدة التمثيل » .

وحدث لفروبل فى السنة الثالثة من دراسته الجامعية أن أعطى أخاه ما معه من مال ، ولم يرد الأخ ما أخذ ، وعانى فروبل ضائقة مالية . . . انتهت به إلى السجن ، ثم . . : « دفع أبى عنى كل ديونى بعد أن تنازلت أمام مجلس الجامعة عن كل حق لى فى ميراث منه . . . » وقطع فروبل دراسته الجامعية . وعاد إلى بيت أبيه فى سن التاسعة عشرة . وعكف على القراءة .

وبعد موت أبيه عام ١٨٠٢ التحق بوظيفة كتابية فى مصلحة الغابات . وتعرف بشاب يحمل الدكتوراه فى الفلسفة قال له . . . « حصن نفسك ضد

---

(١) لدراسة أوفى عن حياة فروبل ، أنظر ، سعد مرسى أحمد : فروبل وفلسفته فى التربية.

الفلسفة ، إنها تقودك إلى الشك والظلام . كرس جهدك للفن الذى يهبك الحياة والسلام والمرح . . . » وتقلب فروبل فى بعض الوظائف ، وكان أحبها إلى قلبه ونفسه ما عمل فيها فى الطبيعة وبين أحضانها البريئة الجميلة ، حتى عين مدرساً فى مدرسة فى فرانكفورت .

ثم زار معهد بستالوتزى فى فردون ، وهناك أحس أنه قزم بين عمالقة . وعاد إلى فرانكفورت ، وعلم الأطفال ، وقرأ عن الإنسان والثقافة والمدنيات والطبائع البشرية ، ثم عاد إلى فردون ومعه ثلاثة أطفال يقوم على تأديبهم . ثم رحل إلى جامعة برلين عام ١٨١٢ حيث استمع إلى محاضرات فى التاريخ الطبيعى . ثم التحق بالجيش ليحمى الوطن ضد نابليون بونابرت . وبعد أن انتهت الحرب ، انسحب إلى قرية جريشم وأسس « المعهد الألمانى للتربية » وكان عدد الطلبة خمسة . ثم تبرعت أرملة ثرية بمزرعتها الصغيرة فى كلهاو لتكون مركزاً للمعهد ، وتزوج فروبل بهنريتا الجميلة . . ونجح المعهد بعد عدة سنوات ، وذاع صيته فطلبت حكومة برن السويسرية من فروبل أن يضع خطة لإنشاء ملجأ فى برجدورف .

وتدور الحوادث وينشىء فروبل معهداً لمساعدة صغار الأطفال . . . ثم ماتت زوجته . وتخير اسماً لهذا المعهد ، « روضة الأطفال » .Kindergarten وكان صدى نجاح فروبل حقداً وحسداً وصداً من مواطنيه ، بل اتهامات من حكومته . ثم عاد إلى كلها وليدرب المعلمين . وحاضر عام ١٨٤٩ فى هامبورج عن تربية النساء ، ثم أنشأ جريدة أسبوعية فى التربية عام ١٨٥١ . وفى نفس السنة تزوج للمرة الثانية . كما صدر فى نفس السنة أمر من وزير التربية والدين بالغاء رياض الأطفال ، فقد اتهم فروبل بأنه يدعو الأطفال للإلحاد . ومات فروبل عام ١٨٥٢ ولم يلغ أمر الوزير إلا فى عام ١٨٦٠ . وقد ضمن فروبل آراءه فى كتابه « تربية الإنسان » Die Menschen Erziehung

أما عن فلسفة فروبل التربوية (١) . فقد سيطرت فكرتان على تفكيره ، هما مثالية غامضة وحب أكيد للأطفال والطفولة .

ويرى فروبل أنه لا يوجد شيء أمتع من الاتصال القريب بالأطفال ، ويفرق بين أن يمضى الكبير ساعة بين الأطفال وبين أن يكرس كل حياته لمراقبة سلوكهم ، ويهاجم فروبل التهمة التى توجه لمن يتعاملون مع الأطفال وأن أفقهم ضيق وتفكيرهم محدود . وقد ارتفع فروبل بالمربين إلى مستوى أرقى من مجرد النزول إلى الطفل .

ويتكلم عن التطور أو النمو وكيفية تكوينه ، وهو لا يقصد النمو من حيث الكم أو الزيادة العددية ، بل الزيادة فى تعقد التكوين والتحسن فى القوة والمقدرة والمهارة ، وفى تنوع مظاهر الوظائف الطبيعية ، وكيف أن هذه تنتج عن طريق الممارسة والمران وهذا ما نطلق عليه اسم النشاط الذاتى .

ويرى فروبل أن الحياة والنمو إن هما إلا تطور تقدمى ، وأن نمو الأفراد يمثل إلى حد بعيد نمو الجماعة الإنسانية فى مراحل التاريخ ، وأن المراس الوظيفى للكائن يعمل على استمرار عملية النمو . كما أن انعدام المراس يوقفها . ويرى فروبل تشابهاً فى نمو الكائنات الحية مما دعاه إلى القول بأنها خاضعة كلها لقانون أزلى أبدى يهيمن عليها وهو خالقها .

ويصف فروبل الصغار بأنهم طبيعيون بسطاء ، وجاهر بأن الطبيعة البشرية منزهة عن الشر ، وأنها لا تحيد عن جادة الصواب . وقد آمن بحتمية ستغلال قدرات الطفل الطبيعية وإمكاناته فيدرس المواد المختلفة ليتأتى له النمو المتزن ، بدليل أنه صرح بأن تعليم الطفل الرسم لن يخلق منه فنانا ، وحفظه بعض الأغانى الخفيفة والأناشيد لن يخلق منه موسيقياً . وكل ما نهدف إليه هو أن نتيح للطفل الفرصة لينمو نمواً حراً طبيعياً هادئاً كما أراده الله ، ولهذا فلا يجب علينا أن نحمل الطفل على إتيان عمل لم ينبع منه تلقائياً ، أو وجدنا تبرما منه وإحجاماً عنه لأنه ضد طبيعته وبعيد عن فطرته .

---

(١) سعد مرسى احمد : فروبل وفلسفته فى التربية ، ص : ٢١٥ - ٢٢٢

ولا يتفق فروبل مع روسو الذى قال بابعاد الطفل عن غيره ، كما أنه لا يسمح بترك الطفل لنفسه وسط غيره من الأطفال ، ولكنه يؤكد ضرورة الإشراف عليه والتأكد من أنه يوجد وسط ظروف ملائمة مناسبة . أما هؤلاء الذين يشرفون عليه فلا بد أن أن تكون لهم من المعلومات والخبرات ما يسمح لهم بتوجيه الصغار ومساعدتهم . بهذا يعمل فروبل على تحرير الطفل من النزعات الشريرة ومواطن الزلل ، ويعده ليكون مرشد نفسه . ويكون ذلك بتحريره منذ حداثته من الخضوع للقوانين الجائرة الخاطئة والقيادة السقيمة العقيمة .

ويتكلم فروبل فى كتابه « تربية الإنسان » عن القانون الأبدى الأزلى الذى يتحكم فى كل شىء . ويرى أنه معبر عن نفسه فى مظهرين : مظهر خارجى وهو الطبيعة ، ومظهر داخلى وهو الروح . ويرى أن اللهيسيطرعلى كل شىء وتتشكل مظاهر الطبيعة بأمره ، وتخضع له ، وتوجد باذنه فهو فيها وهى منه ، يخلقها كيف شاء . . ولكن الطبيعة ليست جسم الله . ويوجد عامل مشترك بين كل الكائنات . هو ذلك القانون الإلهى ، وهو أساس حياتها أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم فردية الشىء ، وفردية الشخص أو فردية الشىء هى هدفنا .

فعندما أقول إنى أربى شخصاً . فمعنى ذلك أننى أوقظ هذا الشخص وأتعهده على أنه كائن ذكى يفكر ويشعر بما يعمل ، وأنا أهىء له الفرص المناسبة لينفذ ما يريد ، وما تمليه عليه مشاعره الداخلية دون أن أتعرض له بما يحد من نشاطه الحر أو أكبت فيه هذه الرغبة التلقائية الملحة .

فبالتربية والتعليم يفصح الإنسان عن نفسه لخير نفسه ، ويسالم الطبيعة ويؤكد المودة بينه وبين الله . . ، ويرفعه التعليم إلى درجة يستطيع فيها أن يعرف نفسه وغيره ويرفعه إلى حياة نقية طاهرة منزهة عن أدران الرذيلة ؛ ولكى يتم هذا التعليم فمن الواجب أن نعامل كل طفل حسب إمكاناته ، فلا يصبغ كل الأطفال بصبغة واحدة ، فان بينهم اختلافات فطرية .

ويقول فرويل إن الطفل طفل لا لأنه فى سن معينة أو لأنه لم يصل بعد إلى سن معينة ، ولـــكن لأنه يحيا بصدق عما تمليه عليه فطرته وما تتطلبه طبيعته . والشاب شاب لأنه عاش بنفس الصدق فى طفولته حتى استنفد مطالبها ، وانتقل إلى مرحلة تالية تتطلب مطالب أخرى .

ومراحل النمو ليست منفصلة ، ولكنها تكون نمواً منسجماً متصلا فى ارتباط بديع يؤدى كل طور للذى يليه ، وتعتمد كل مرحلة على ما سبقتها من مراحل . ولهذا الاتصال صدى فى المواد التى يدرسها الطفل ، فان كل مادة دراسية لها معنى وقيمة بالنسبة لغيرها من المواد ، كما يوجد ارتباط آخر بين مختلف أنواع النشاط النفسى كالإدراك والإحساس والإرادة . وهذا الترابط يسمح لها بأن تعمل ككل منسجم منظم . لدينا إذن نوعان من الترابط : بين المواد المدرسية وهو ترابط خارجى ، وترابط بين مختلف المناشط النفسية وهو ترابط داخلى . وعلينا أن نربط بين الداخلى والخارجى ، أى ترتبط رغبته (الداخلية) للنشاط وأفكاره وإحساساته وإرادته بما يعمله خارجياً ، وهذا يعبر عنه فروبل بعبارة « جعل الداخلى خارجياً » أو « الخلق والابتكار » .

وينص لب نظرية فروبل على أن الطفل منذ وجوده فى العالم يخضع لقوى الطبيعة والكائنات الحية ، ويوجه الله هذه القوى ، وتظهر أقصى درجاتها عند الإنسان . وجسم الطفل يربطه بالكائنات البشرية والطبيعة ، أما قلبه وعقله فيربطانه ويجعلانه عضواً فى الجسم الأكبر وهو الإنسانية فى الماضى والحاضر والمستقبل ، ويعتمد كيانه كله وروحه على الله ، ومنه يستمد قوته ونشاطه وحيويته . وما دام الأمر كذلك فيجب على الطفل أن ينمو تحت تأثير الطبيعة ، ففيها سيجد الظروف الملائمة التى تمكنه من تعلم القوانين التى تتحكم فى كل الكائنات ، ويرى أنها تجاهد للوصول إلى درجة الكمال : ويلم بالقوانين التى تؤثر فيه . ثم يستنتج عن طريق عمليات الاستقراء الكثيرة أن القوانين الموجودة فى الطبيعة والتى تتحكم فيها أيضاً يمكن أن ترجع كلها فى مختلف مظاهرها إلى

قانون واحد ... وسيصل الطفل إلى محبة الله ، وأنه الخالق الأعظم القادر المتحكم المهيمن على الطبيعة وما فيها .

ويرى فروبل أن الوسائل التى تستخدمها الطبيعة لتنمية جسم الطفل هى حركة أعضائه واستغلال وتدريب حواسه . وأهم غرائز الطفولة هى غريزة الحل والتركيب وتبدأ بالتقليد ثم ينمو إلى الإبداع والابتكار . ويقترح تدريباً لكل حاسة من الحواس ، ويشجع الأسئلة التى يسألها الأطفال .

ويرى فروبل أن أهم سمة مميزة للطفل هى رغبته الفطرية فى النشاط أو ما يسمى باللعب ، وينصح بضرورة استخدام اللعب والغناء فى التعليم ... ولذا أنشأ رياض الأطفال وهى بيئات باسمة مرحة يجد فيها الطفل الألعاب والهدايا والحدائق للزراعة والحنو والارتياح ، ويجد فى لعب الأطفال مع بعضهم وتعلمهم عن طريق اللعب وسيلة للتعبير عن أنفسهم ، وبهذا ينمون . كما أنها وسيلة لتقريبهم من بعضهم البعض ومن الطبيعة ، ومن الله . فينمو حبهم له ولا يعصون له أمراً .

وانتشرت رياض الأطفال فى دول أوروبا ، وفى أمريكا ، وبقية دول العالم ونقش اسم فروبل بالنور فى سجل التطور التربوى . ولو أن طرائق فروبل السيكولوجية طبقت فى مرحلة رياض الأطفال إلا أن أفكاره عن « النشاط الذاتى » و « النمو » كأفكار بستالوتزى عن « الملاحظة والتأمل » وفكرة هربارت عن « الاهتمام والميول » تغلغلت عميقاً فى العمليات التربوية إلى يومنا هذا : وقد ارتبطت فكرة فروبل عن النمو بطبيعية روسو ، فلم يقبل القول بأن الإنسان يولد مزوداً فطرياً بالشر .

وسارت المبادىء التربوية ، المؤسسة على دراسة نفسيات المتعلمين ، جنباً إلى جنب مع التقدم الصناعى والعلمى . وزاد عدد سكان أوروبا خلال القرن التاسع عشر من ٢١٦ إلى ٣٥٠ مليوناً (١) بفضل زيادة الثروات والتقدم

(١) Bruuer, E. in : Readings in the Foundations of Education vol. I, p. 304.

العلمي . وطرأ تقدم كبير على العلوم الطبيعية وعلوم الأحياء ، وبان قصور واضح فى التعليم القديم والنزعة الإنسانية . واتجه النظر إلى محتوى المادة التى يدرسها التلاميذ ، ومدى ملاءمتها للتقدم العلمى . وشهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر اتجاهين فى :

١ — محتوى المادة التى تدرس .

٢ — إبراز قيمة الطريقة الاستقرائية وطرق تحصيل المادة .

وقد مهدت لهذين الاتجاهين آراء المربين ابتداء من روسو ونزعته الطبيعية وبستالوتزى ونزعته العلمية ولوك وتجريبيته . ولكن المواد الكلاسيكية ظلت تتمسك بصدارتها المناهج ، فكان من الصعب التخلى عن اللغات والرياضيات مثلا وظهر الصراع بين الاتجاه العلمى والتربية السائدة وقتئذ فى تحديد أن المواد أفضل للإنسان . ولهذا فقد فرق أنصار الحركة العلمية فى بداية الحركة بين المعرفة الآلية والمعرفة الإيجابية :

١ — المعرفة الآلية هى تلك التى تعنى بالوسائل للحصول على المعرفة ، كاللغات والرياضة . وهى تساعد الفرد على فهم النواحى الطبيعية والعقلية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والدينية ... إلخ . وهذه الوسائل تساعد الفرد على تنظيم حياته وإسعاد نفسه .

٢ — أما المعرفة الإيجابية فهى ترى ألا تمد الفرد بالمعارف فقط ولكن تمرن قواه العقلية حتى يتمكن من تحقيق أهدافه . وكانت الحركة العلمية فى بدايتها تؤمن بنظرية الملكات ولذلك فنادت بتدريب قوى العقل ، كل قوة مستقلة .

وكان لابد للاتجاهات السائدة فى أوروبا فى منتصف القرن التاسع عشر أن تؤثر فى التفكير التربوى . فصار عند جماعة العلميين تفسير جديد لمعنى « الدراسات العقلية الحرة » . وارتبطت الدراسة الحرة بقيمتها من الناحية العملية ، وهى التى تعد الإنسان لحياته كمواطن مستنير ، فالرجل فى مهنته صاحب أفق يتعدى ما يتصل بالمهنة ، متغلغلا إلى تأثيره فى المجتمع . ولكى

يكون مواطناً مستنيراً فانه يتعلم أصول المهنة إلى جانب إلمامه بمواد أخرى تعمل على نجاحه فى مهنته ، وقد تكون هذه المواد لغات وآداباً وفنوناً .

وبدأ يتطور مفهوم التربية الحرة ، فهى تربية تهىء الفرد لحياة سعيدة حرة فى مجتمعه ، تربية ليعمل ويتجاوب اجتماعياً عن فهم وذكاء مع غيره ، ويسهم بقدر إمكاناته فى الحياة الاجتماعية .

ولعل خير من يمثل الحركة العلمية هو هربرت سبنسر .

سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠ — ١٩٠٣)

وقد دخل سبنسر باب التربية بمقال عن « أى معرفة أكثر قيمة » .

وكتب هذا الفيلسوف الإنجليزى ثلاث مقالات متتابعة عن التربية العقلية والخلقية والجسمية مؤكداً أهمية إدخال الدراسات العلمية فى المنهاج ، ومهاجماً الاهتمام بالدراسات الإنسانية . وقد عرف سبنسر التربية بأنها إعداد للحياة الكاملة ولذلك فيهمه من المواد ما يوصل إلى هذه الحياة ، كما يؤكد أهمية الطرق التى تدرس بها هذه المواد . ويقول سبنسر إن تخير هذه المواد يجب أن يتم بعناية ، فلا تخضع (لموضة) العصر أو لرأى أولياء الأمور ، بل يكون معيار الاختيار هو تحقيق الحياة الكاملة . ويقسم سبنسر أهم مناشط الحياة حسب أهميتها إلى :

١ — مناشط تؤدى إلى حفظ الذات مثل تعلم الفسيولوجيا والصحة والطبيعة والكيمياء .

٢ — مناشط تحقق المطالب الضرورية للإنسان وهذه بدورها تؤدى إلى حفظ الذات ، مثل تعلم العلوم التى تساعد على كسب القوت .

٣ — مناشط تؤدى إلى حسن تربية الأطفال كتعلم الصحة وعلم النفس .

٤ — مناشط تعمل على إيجاد وإبقاء العلاقات الاجتماعية والسياسية .

٥ — مناشط صالحة لقضاء وقت الفراغ مثل تعلم الأدب والفن وعلم الجمال وهذه لها منزلة كمالية .

ويرى سبنسر أن المواد العلمية أصلح المواد لحفظ الذات كالصحة مثلا ،

بل هى أصلح المواد لمختلف المناشط ، فهى ضرورية ليعمل الإنسان وبذلك تحقق مطالب الحياة الضرورية ، وهى صالحة فى تفهيم الآباء كيف يربون أطفالهم . وهى لازمة لتوضيح أصناف السلوك المناسبة وضبطها ، وهى مؤدية إلى تفهم الفن والاستمتاع به ، بل هى أساسية فى التربية العقلية والخلقية والدينية .

ويلقى سبنسر اهتماماً واضحاً على التربية الخلقية ، ويعارض روسو فى رأيه عن الجزاء ، ويتفق معه فى ضرورة أن يتعلم الطفل بطريقة طبيعية .وفى التدريب العقلى يتفق سبنسر مع جمهرة علماء النفس فى وقته فينصح بتقوية قوة الملاحظة ، واستخدام المحسوسات فى التدريس ، ويؤكد أهمية استغلال الشدة فى العملية التعليمية .

وهوجمت آراء سبنسر بأنها نفعية استغلالية ، كما أنها إعداد للحياة وليست مؤدية إلى الحياة ذاتها . وفى هذا الهجوم تلاعب بالألفاظ ، فانه يقف فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر جامعاً بين الاتجاه العلمى والاتجاه الاجتماعى . فمواد الدراسة التى يقترحها شاملة على ما يفيد الفرد كفرد وكعضو فى جماعة .

وانتشرت آراء سبنسر ، ويلوح أنه كان خير الفلاسفة التربويين الإنجليز فى القرن التاسع عشر . وعبرت آراؤه وأفكاره المحيط الأطلسى كما عبرته فى السابق آراء غيره من الفلاسفة الأوروبيين إلى الأرض الواسعة الغنية .

* * *

تأثرت المدارس الابتدائية الأمريكية بآراء بستالوتزى التربوية . فقد هاجر إلى أمريكا واحد ممن درسوا على بستالوترى هو نيفHoneffعام١٨٠٦ وتكلم عن بستالوتزى وآرائه وشرح فهمه عن التربية أنها تفتح تدريجى لقوى الإنسان واقترح عديداً من الخبرات يتعرض لها الأطفال فى المدارس الابتدائية وطالب باستخدام المحسوسات فى تعليم الأطفال (١) ، كما تغلغلت آراء

---

(١) Butts and Cremin : A History of Education in American Culture, p. 219.

هربارت عن الميول والاهتمام فى المناهج الأمريكية ، وأخذ المربون الأمريكيون من فروبل فكرة النشاط الذاتى والمشاركة الاجتماعية ، كما تأثروا باتجاه سبنسر فى اهتمامه بالعلوم .

وتكلم المربون الأمريكيون فى منتصف القرن التاسع عشر ، ولعل أبرزهم شيلدونSheldon وفرنسيس باركرParker ، عن الطفل كمحور للعملية التربوية وقد تأثر شيلدون كثيراً بآراء بستالوتزى فصمم مناهج المدرسة الابتدائية بحيث تدور حول موضوعات محسوسة ، ففيها دروس عن الأعداد والأحجام والأشكال والرسم والألوان والأوزان والأصوات والأماكن والحيوانات والنباتات والمعادن والسوائل وبدلا من أن يعطى الأطفال مواد دراسية محددة ، عرضهم لخبرات مباشرة ، وعن طريق احتكاك الطفل بعناصر البيئة ودراستها وملاحظتها تتكون المادة العلمية ، وهو يشتقها ولا تلقى إليه من الراشدين .
ويذكر باطس وكريمن أن باركر أخذ خير ما عند بستالوتزى وفروبل وهربارت فى تكوينه لعقيدته التربوية . فقد أخذ من بستالوتزى وفروبل الاهتمام بالطفل وجعله مركز العملية التربوية ، ومن هربارت فكرة الربط ، وقد أدى احتلال الطفل هذه المكانه إلى زيادة الاهتمام بدراسته علمياً ، وكان هذا شغل المربين والنفسانيين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وظل ينمو مع السنين وأصبحت المناهج تصمم بحيث ترضى حاجات الأطفال واهتماماتهم وقدراتهم (١) .

وقد أدى هذا الاتجاه عند بعض المربين الأمريكيين فى نهاية القرن التاسع عشر إلى الاهتمام بالتدريب اليدوى فى المدارس الابتدائية ، على أساس أن هذا التدريب مفيد لنمو القدرة العقلية . وكان هذا الاتجاه (الجديد) مثيراً لجدل كبير بين معسكرين : معسكر أنصار (الطفل محور العملية التربوية) ، ومعسكر أنصار (المادة محور العملية التربوية) . وقد أصدرت رابطة التربية الأهلية National Education Association عام ١٨٩٣ تقريراً عن مناهج

---
(١) Ibid, pp. 382 - 383

المدارس الابتدائية (وكانت ثماني سنوات) وهي : النحو والأدب والحساب والجغرافية والتاريخ . وحول هذه المواد الخمس تتركز التربية فى المدرسة الابتدائية ، وتدعم هذه المواد بدراسة الأطفال عن الرسم (الصناعى والفنى) ومشاهد الطبيعة (لتدريب عادات الملاحظة) . وعلم وظائف الأعضاء ، والصحة ، والموسيقى ، والجبر ، والثقافة الدينية ، والأخلاق . ووزعت لجنة من أعضاء رابطة التربية الأهلية هذه المواد على سنى المدرسة الابتدائية الثمانية ليدرسها كل طفل . ووصف بتلر مدير جامعة كولومبيا تقرير الرابطة بأنه كان متجهاً فى نظره إلى الخلف وليس المستقبل .

وتدخل جون ديوى فى حومة النزاع قائلا إن المشكلة لا تحل بأسلوب « إما هذا أو ذاك » ، إما الطفل وإما المادة ، وأعلن رأيه فى كتابه « الطفل والمنهج » عام ١٩٠٢ . وبسط ديوى المسألة فى أسلوب حكيم ، فتناول الطفل فى جانب ، والأهداف الاجتماعية وقيم الراشدين فى جانب آخر . ورأى أن المسألة مسألة « تأكيد » ، فمدرسة تؤكد المادة وتهتم بها على حساب خبرات الطفل على زعم أن الاهتمام بميول المتعلمين يؤدى إلى السطحية فى العملية التعليمية ؛ أما المدرسة التى تدور حول الطفل ، فهى ترى المتعلم بداية ومركز ونهاية العملية التعليمية ، وترمى إلى أن يحقق الطفل ذاته لا أن يكتسب بعض المعلومات والمعرفة ، وبينما تهتم المدرسة الأولى بالنظام ، تؤكد الثانية الاهتمام والميول .

الفصل التاسع
الشرق العربي في القرن التاسع عشر

.... وكنا قد تركنا الشرق العربى يغط فى نوم عميق ، ورحلنا إلى الغرب لنتتبع يقظته عن كثب . ثم بدأ الشرق العربى يصحو مع فجر القرن التاسع عشر . ومن حقه علينا أن نعود إليه وإلى بعض رواده من المفكرين .

ومن أقوال الرحالة الذين زاروا مصر والشام فى أواخر القرن الثامن عشر تتضح لنا حقائق كثيرة عن الجهل العام الذى ساد البلاد فى شتى مناحى أنشطتها بل شمل الركود فى جوانبه العلم فى الأزهر . ويرجع أن الهيئات التى تولت حكم مصر والاحتفاظ بها إيالة عثمانية (وهى الباشا والديوان والمماليك) التفتت إلى أطماعها وتزاحمها على السلطة ، ولم تلق اهتماماً بأحوال الرعية وثقافتهم . بل إن القوة العثمانية وقفت سداً أمام اتصال المصريين بحضارة الغرب وأضعفت البلاد حربياً ، كما أن مصر فقدت شطراً كبيراً بتحول التجارة عنها.. وزاد الأمر سوءاً سيطرة أفكار الدروشة والتصوف على عقول الكثيرين من أهل مصر ... فطالت المسابح المدلاة من الأعناق ، وتلونت العمائم والملابس الفضفاضة ، وارتفعت بيارق ، ودقت الدفوف ، وكثرت حلقات الذكر ... وفى الغرب معامل تختبر ، ومصانع تعمل ومطابع تخرج الكتب الكثيرة الغنية الغزيرة .

ثم حدث اتصال بين بعض علماء مصر وعلماء الفرنجة بعد أن فتح بونابرت مصر ، وكان من هؤلاء العلماء عبد الرحمن الجبرتى والشيخ حسن العطار والشيخ إسماعيل الخشاب .. وغيرهم . وقد أسفر الاحتكاك مع عقليات غربية عن مفاهيم مغايرة وبداية نمو لاتجاهات فى التفكير احتاجت عشرات السنين حتى تتبلور عند بعض قادة الفكر والرأى . وكان الاحتكاك على أرض مصر فى ظروف ضيقة وإمكانات محدودة . ثم اتسعت الآفاق بدراسة المصريين فى أوروبا بعد الربع الأول من القرن التاسع عسر. ـ

وعاد المبعوثون ليسهموا فى رقى بلدهم ، ونبغ منهم الكثيرون وتعلم من أهل البلد عليهم كثيرون . وكانت بداية انطلاقة .

وقد يرى المؤلف خيراً فى عرضه بعض الاتجاهات التربوية التى نادى بها ثلاثة من المفكرين فى القرن التاسع عشر فى مصر .

رفاعة رافع الطهطاوى

هو السيد رفاعة بن بدوى بن على ... بن رافع المولود فى طهطا من أعمال مديرية جرجا عام ١٨٠١ ، وهى السنة التى جلا فيها الفرنسيون عن مصر ؛ ويعود نسبه من ناحية أبيه إلى الحسين بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه السلام .

ودرس رفاعة فى الأزهر مدة خمس سنوات ختم فيها دروسه وأصبح أهلا للتدريس ، فدرس فى الأزهر ... « وقد كان رفاعه منذ عهده الأول مدرساً ممتازاً ، فأقبل عليه الطلاب وأفادوا منه ، وكانت حلقات دروسه فى السنتين التاليتين لتخرجه حافلة دائماً بالمستمعين من التلاميذ والمشايخ ... » (١) .

وقد رشح الشيخ العطار تلميذه رفاعة إماماً لإحدى فرق الجيش الجديدة ، ثم رشحه إماماً للبعثة الموفدة إلى فرنسا . وذهب الشيخ رفاعة إلى باريس ، ولم تكن النية متجهة إلى أن يدرس إمام البعثة إلا أنه انكب على الدرس والتحصيل وتعلم اللغة الفرنسية حتى أجادها ، وكانت دراسة رفاعة فى الترجمة وأمضى خمس سنوات كاملة ترجم خلالها الكثير من الكتب والنبذ والقطع والمقالات ، وجاز امتحان الترجمة عائداً إلى أرض وطنه بعد أن عاش فى أرض غريبة أثرت حتما على قيمه واتجاهاته ، فقد اختلط بأقوام مختلفين وعادات غير مألوفة لديه ، وأنماط كان لها أثر كبير فى حياته بين قومه . ولكن لم تؤثر إقامة الطهطاوى فى عاصمة فرنسا أدنى تأثير على عقائده ، ولم تغير من أخلاقه الإسلامية وعوائده الشرقية ، كما يذكر ذلك على مبارك فى خططه :

(١) جمال الدين الشيال : رفاعه رافع الطهطاوى ، ص ٢٢

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية ، الجزء ١٣ ، ص ٥٤

ومن بين ما كتب الطهطاوى عن الحياة الفرنسية فى كتابه « تخليص الأبريز إلى تلخيص باريز » يذكر رأيه فى المرأة الفرنسية ، وأنه لا يعترض على السفور مؤمناً بأن الصلاح ينشأ من التربية الصالحة والفساد من التربية غير الصالحة . ثم هو يقول إن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى المرتبة الوسطى من الناس ، دون نساء الأعيان والرعاع . فنساء هاتين المرتبتين تقع عندهن الشبهة كثيراً ، ويتهمن فى الغالب . ثم يرى رفاعة إن وجود المرأة الفرنسية فى المجتمع تكسبه جمالا وتضفى عليه بهجة وأنساً وحياة . ويعيب رفاعة على الفرنسيين انتشار الفواحش والبدع والاختلالات وأن لهم عقائد قبيحة وشنيعة كإنكار بعضهم القضاء والقدر . ويذكر أن أكثر الفرنسيين لهم من دين النصرانية الاسم فقط ... فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه أو نحو ذلك .

وعين رفاعة مترجماً فى مدرسة الطب ثم نقل إلى مدرسة الطوبجية بطرة حيث ترجم فى الهندسة والجغرافية . وقد اقترح رفاعة إنشاء مدرسة للترجمة لسد حاجة البلاد من المترجمين والموظفين ليتم الاستغناء عن الأجانب ، فأنشئت سنة ١٨٣٥ مدرسة الترجمة وغير اسمها إلى مدرسة الألسن (١) . وكانت الدراسة بها خمس سنوات يترجم فيها الطلبة كتباً فى التاريخ والأدب وتطبع الترجمات الصالحة .

ويقال إن الشيخ رفاعة كان على علاقة طيبة بمحمد على وابنه إبراهيم ، فلما مات إبراهيم وتولى عباس الذى كان يكره هذه العلاقة فاستبعده إلى السودان وظل بها حتى جاء سعيد فعاد إلى القاهرة . ويقال أيضاً إن على مبارك إثر عودته من أوروبا إبان حكم عباس ضايقه المركز الذى يحتله الشيخ رفاعة وطمع فى المنزلة التى ينالها حتى أقصاه عباس . وكان سعيد يكره ما فعله عباس فأعاد الشيخ رفاعة إلى القاهرة . وأمطره الشيخ قصائد يمدحه فيها ويعدد صفاته الحميدة ومآثره النبيلة ، ومع ذلك فان سعيداً أصدر أوامره

(١) وكان مكانها بيت الدفتر دار بحى الأزبكية .

فى ١٨٥٥ بالغاء ديوان المدارس وتصفية ما فيه . ويقال إن رفاعة كان قد اشترك مع إبراهيم أدهم بك فى تخطيط لتعليم كافة أفراد الشعب ، ولكن انشغال سعيد بمشروع قناة السويس وغيرها من المشروعات كاصلاح الجيش قتل التخطيط . ثم عين الشيخ رفاعة ناظراً للمدرسة الحربية بالقلعة وأصبح أمير الاياً ، وصار يدعى رفاعة بك بدلا من الشيخ رفاعة ... وعاوده الحنين إلى مدرسة الألسن وأيامها فأمسى يعدل فى مناهج المدرسة الحربية حتى أنشأ بها قلماً للمحاسبة وآخر للترجمة ولبعض اللغات . وانكب على عمله فى نشاط حتى عهد إليه بنظارة مدرستى الهندسة الملكية والعمارة وتفتيش مصلحة الأبنية ، ثم أشرف على الترجمة وعلى إحياء المؤلفات القديمة ونشرها . ولكن المدرسة أقفلت بعد خمس سنوات من إنشائها أى سنة ١٨٦١ وعاد رفاعة إلى حياة بلا عمل ، بعد أن وضع لبنات الترجمة والنشر . فما كان أقوى غرام حكومة ذلك العهد برؤية العلماء عاطلين (١) .

ومع تولى الخديو اسماعيل عاد رفاعة إلى العمل وكان قد جاوز الستين من عمره فقد أعيد قلم الترجمة ، و أسندت نظارته إلى رفاعة الذى عين أيضاً عضواً فى قومسيون المدارس ، و أسندت إليه كذلك رئاسة مجلة روضة المدارس التى أنشأها على باشا مبارك مدير المدارس سنة ١٨٧٠ ، وهى مجلة علمية أدبية اجتماعية . وقد التحق بالتحرير فيها عبد الله فكرى بك للعلوم العربية والفنون الأدبية ، وبروكش ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم وخص بالتاريخ ، وإسماعيل الفلكى بك وعهد إليه بالفلك ، ومحمد قدرى أفندى للجغرافية والأخلاق والعقائد ، وأحمد أفندى ندا وعهد إليه ببيان المواد النباتية ، والشيخ عثمان مدوخ ، وطلب منه إمداد المجلة بغرائب النوادر والمضحكات والألغاز والأحاجى والنكات (٢) ... وكان يلحق بكل عدد من المجلة كتاب يؤلف لها ، مثل كتاب « حقائق الأخبار فى أوصاف البحار »

(١) من محاضرة ألقاها محمد جلال الدين الرافع عن جده ، ص ٢٦

(٢) من افتتاحية العدد الأول للمجلة فى : أحمد بدوى (المرجع الأسبق) ، ص ٧٣

لعلى مبارك باشا ، وكتاب « آثار الأفكار ومنثور الأزهار » لعبد الله فكرى ، وكتاب « الصحة التامة والمنحة العامة » لمحمد بدر مدرس الأمراض الباطنية بالمدرسة الطبية ... الخ .

وانتهت حياة رفاعة بك فى سنة ١٨٧٣ بعد أن عاش حياة حافلة متمتعاً بصحة جيدة وأعصاب قوية حتى ألمت به آلام النزلة المثانية . وشيعت مصر كما تشيع عظيماً قدم لها من علمه وإخلاصه ما جعلها تخلده فى سجل العظماء .

آراؤه فى التربية

تولى رفاعة الطهطاوى مناصب عدة مرتبطة بالمسائل التربوية والتثقيفية ، تفاوتت من التدريس فى إبتدائية الخرطوم ونظارتها إلى إدارة المدرسة الحربية وتخرج فيها ضباط أركان الحرب ، « ومدرسة الألسن » وكانت المورد لموظفى الدولة والتى تحولت فيما بعد إلى مدرسة للمعلمين ، كما قام بدور كبير فى تنظيم تدريس اللغة العربية بالمدارس فكان يمتحن الفقهاء والشيوخ ليتخير منهم الأكفاء لوظائف التدريس. وكان يزور المدارس ليتفقد أعمال المدرسين ويختبر كفايتهم . وكان يرى أن مدرسى اللغة العربية من الأزهر يجب أن ينهجوا فى التعليم مناهج جديدة ، وأن يتلقوا علوماً جديدة ، ويدرسوا أساليب فى التربية جديدة تؤهلهم لعبء القيام بعملهم فى المدارس الحكومية .

ومن كتابات ومؤلفات رفاعة بك يستخرج الدارسون آراءه فى التربية كما ورد ذكرها فى كتبه ومنها :

- تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز .
- المرشد الأمين للبنـــات والبنين .
- مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية .

١ — فى التربية ومعناها : يعرف رفاعة التربية بأنها فن تنمية الأعضاء الحسية والعقلية ، وطريقة تهذيب النوع البشرى ، ذكراً كان أو أنثى ، على طرق أصول مطلوبة ، يستفيد منها الصبى هيئة ثابتة يتبعها ، ويتخذها عادة

وتصير له دأباً وشأناً وملكة (١).

وفى هذا التعريف يتكلم رفاعة عن أن التربية عملية نمو وتعمل على تكوين اتجاهات صالحة للفرد تؤثر فى سلوكه وتصرفاته . ويضيف رفاعة إلى ذلك بقوله إن تغذية الطفل تتم على ثلاثة أضرب ، الضرب الأول هو تغذيته بالطعام لكى ينمو جسمه ، والضرب الثانى تغذية خلقه بتعويده العادات والطباع المرغوبة ، والضرب الثالث تغذية عقله بتعليم المعارف وألوان العلوم . وبهذا يجمع رفاعة بين التربية الجسمية والعقلية والخلقية . ويرى أن الأمة السعيدة هى التى أحسنت تربية بنيها . فان تربية الأفراد تربية حسنة سوف يؤدى إلى النهوض بالهيئة الاجتماعية .

٢ — فى نفسية التلميذ : يقول رفاعة إن على ولى الأمر أن يتأمل حال الصبى ليرى ما هو مستعد له من الأعمال ، وحتى يستطيع أن يوجهه التوجيه الصالح . ولا يحمله على غير ما هو مستعد له . ويرى أن التربية الصحيحة هى تلك التى تلائم استعداد الطفل فتعمل على استغلال ذلك الاستعداد لتأخذ بيده حتى ينضج (٢).

ويرى رفاعة أن التنافس صفة إنسانية تبعث طالب العلم على أن يجتهد كل الإجتهاد ليفوق الأقران ، أو يساويهم ، وأن يستقرىء ، ويبحث عما يفعلونه من الحسن والطيب ، والملائم ، ليشارك الأقران فيه ، ويبرع فيه بجودة فهمها ودقة نظره . فالتنافس فى رأيه غيرة محمودة وغبطة معهودة ، مركوزة فى جميع النفوس الزكية . ويدافع رافع عن التنافس فيقول .. « وربما ظهر ببادىء الرأى أن التنافس رفيق الطمع ، وشقيق الحسد ، وأن المتمسك به غير سالك فى السبيل الأسد . مع أنه ليس فيه شىء من هاتين المثلبتين ، بل بينه وبينهما بون بعيد فى الأثر والعين ، إذ ليس الغرض من التنافس حصر

(١) رفاعة رافع الطهطاوى : المرشد الأمين للبنات والبنين ، ص ٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٨

الفضل فى صاحبه . ولا الاختصاص بمكاسبه ومواهبه . بل مجرد التقدم فى المعارف ، والدخول مع الأقران فى ميدان السباق . ليبادر كل منهم ، بالسعى واللحاق . فهذا يحسن حال المعارف البشرية . وتبلغ درجة الكمال » (٢) .

ويرى رفاعة أن الأطفال مختلفون فى الذكاء . وأن التربية الموحدة لا لا تستطيع أن تسوى بينهم فى الذكاء . لأن ذكاءهم يختلف باختلاف الاستعداد الغريزى . ويرى أن الذكاء الكامل إذا صحبته التربية الرشيدة كان عظيم النجاح فان صحبته التربية المتوسطة . كان يسير النتيجة . لا يبلغ صاحبه الدرجة المنشودة .

٣ — فى أخلاق المتعلمين : يرى رفاعة أن الأثرة خصلة دنيئة يجب أن يتخلص منها الأطفال فهى منبع الحرص والطمع . ويرى أن يعلم الطفل ، ذكراً كان أو أنثى ، من بواكير الطفولة العقائد الدينية الدالة على وجود الله ووحدانيته ، ويرى أن تسير التربية الدينية جنباً إلى جنب مع تربية الطفل المعاشية . ولا ينصح رفاعة بتوبيخ الطفل إذا خالف أصول الأدب فى بعض الأوقات . بل لا يكاشف بأنه أقدم عليه . هذا فى أول أمره ، وفى المرة الثانية فيوبخ الطفل سراً : لأنه إذا تعود التوبيخ والمكاشفة أدى ذلك إلى أن يكون وقحاً ويهون عليه سماع الملامة فى ركوب القبائح (٢) .

ويحترم رفاعة صفات الأنوثة عند البنات وهى التى اختصت بها دون الرجل ، والتى تتزين بها . وهى صفة الحياة والخوف والوجل ، فان المرأة لم تخلق لتحرز شجاعة الرجل . ولكن لتحمل الرجال على الشجاعة .

٤ — فى مراحل التعليم وأهدافها : يقسم رفاعة التعليم إلى مراحل ثلاثة(٣) :

(أ) المرحلة الأولية أو الابتدائية . وهى مرحلة عامة يشترك فيها أولاد الفقراء والأغنياء البنون والبنات « ويدرسون فيها القرآن الكريم وأصول الدين

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٤

(٢) أحمد بدوى (المرجع الأسبق) ، ص ٢١٥

(٣) أحمد بدوى (المرجع الأسبق) ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩

والقراءة والكتابة والحساب ومبادىء الهندسة والنحو . ويؤمن رفاعة بأن الصانع إذا تعلم واجتاز هذه المرحلة بنجاح كان أقدر وأكمل فى إنتاجه . وينصح المعلم فى هذه المرحلة بأن ينهج أقصر الطرق فى تعليم الغلمان حتى لا يضيع عليهم وقت طويل ، وهم أحوج الناس إليه فى تعلم مهنة يكتسبون منها .

(ب) المرحلة الثانوية ، ويدرس فيها التلاميذ العلوم الرياضية بأنواعها ، والجغرافية ، والتاريخ ، والمنطق ، والطبيعة ، والكيمياء ، والإدارة الملكية وفنون الزراعة . والإنشاء والمحاضرات . وبعض لغات (ألسنة) أجنبية ، ويرى أن ترغب الحكومة الأهالى فى هذا التعليم الذى يكون به تمدين جمهور الأمة . ويكون تعليم المهن على اختلاف أنواعها بعد الانتهاء من التعليم الثانوى .

(ج) المرحلة العالية : وفى التعليم العالى يتخصص الدراسون ويتبحرون فى علم مخصوص ، كعلم الطب ، والفقه ، والجغرافية ، والفلك ، والتاريخ(١) ويرى أن يكون عدد تلامذة التعليم العالى محصوراً ، وألا يباح الانتساب إليه إلا لصاحب الثروة واليسار . بحيث لا يضر تفرغه للعلوم العالية بالمملكة .

فبينما يرى رفاعة انتشار التعليم الأولى نجده يحدد ويضيق التعليم العالى ، وقد يكون هذا سليماً ، ولكن الذى نأخذه عليه أن معيار هذا التحديد كان المركز الاقتصادى ، لا القدرة العقلية والاستعداد عند المتعلمين .

٥ — فى صلة المعلم بالتلميذ : يرى أن تبنى صلة المعلم بالتلميذ على الحب والإخلاص ويتكلم رفاعة عن أن التلميذ يدعو لأستاذه كلما شرع فى قراءة درس وتكراره أو مطالعته ، وإذا فرغ من الدرس دعا لأستاذه أيضاً ، كما يدعو الأستاذ للتلميذ . ويصر على أن يحترم المعلم تلاميذه ويجريهم مجرى بنيه ، وأن يكون شغوفاً عطوفاً عليهم ، صابراً على جفائهم وسوء أدبهم . ويستنكر

---

(١) يعتبر رفاعة الطهطاوى أول مؤرخ مصرى عرف تاريخ مصر القديم على حقيقته فى ضوء ما وصلت إليه الكشوف الأثرية وما كتبه المؤرخون الأوربيون ، كما أنه من أوائل من نظروا إلى تاريخ مصر نظرة شاملة فى جملته . (أنظر جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر ، ص ٤٩ — ٨٧).

ضرب معلمى القرآن تلاميذهم الصغار ، ففى هذا خروج عن حد الشرع . غير أنه يجيز للأب تأديب ابنه بالضرب ، وينصح المعلمين بترغيب الأطفال على التعلم ، ومسايرتهم باللطف والرفق وأن يأذنوا لهم باللعب فى بعض الأوقات ويكون لعباً جميلا غير متعب لهم ، ليستريحوا من عناء الدرس .

وإذا كان هذا موقف المعلم من المتعلمين . فان رفاعة يطلب من المتعلمين التأدب مع الله ومع المربين ، والتواضع والاعتقاد فيهم . ويرى أن يطيع المتعلمون المعلمين ويسمعوا أقوالهم وينتصحوا بنصائحهم .

٦ — فى طريق التدريس :

(أ) أن يبدأ المتعلم بالأهم ، ويرى أن يأخذ العلوم عن أساتذتها ، ويحذر من الاستفادة من الكتب إلا فى علم الحديث .

(ب) ألا يخرج الطالب من علم إلى غيره حتى يحكمه .

(حـ) المطارحة والمناظرة فائدتهما أقوى من فائدة التكرار .

(د) يقسم الدرس أقساماً حتى يسهل حفظه ، فهذا — فى رأيه — أدعى إلى الرسوخ فى الذهن من حفظه جملة (١) .

ويذكر أنه بعد الجولات التفتيشية التى قام بها ، أنه وجد عدم صلاحية الكتب التى بأيدى التلاميذ ، فألف كتباً جديدة ، يراها البعض أنها الخطوة الأولى فى سبيل النهضة بالكتب المدرسية فى تاريخنا التعليمى ، وكان رفاعة يسترشد بما رأى وبما درس من كتب فرنسية أثناء تلقيه العلم فى فرنسا (٢) .

٧ — فى تطوير الأزهر : وكان ابن الأزهر باراً بالمعهد الذى تخرج فيه ، فدعا إلى إدخال العلوم العصرية فيه ، قائلا إنه لو تشبث خيار أهل العلم الأزهريين بالعلوم العصرية لفازوا بدرجة الكمال ، وانتظموا فى سلك الأقدمين

---

(١) وفى هذا المعنى يقول :

يحسن حفظ اللوح الصغير على مرار ، بل والكبير
يرسخ فى الذهن ، وليس يمحى جربه بالتقسيم وأقبل نصحاً

(٢) جمال الدين الشيال : (المرجع الأسبق) ، ص ٥٠

من فحول الرجال ... وكل من سار على الدرب وصل . فيقول ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط — بعد ولى الأمر — بهذه العصابة (يقصد شيوخ الأزهر وطلابه) ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر العلوم البشرية المدنية ، التى لها مدخل فى تقديم الوطنية ، من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية ، فانه بانضمامه إلى علوم الشريعة والأحكام يكون من الأعمال الباقية على الدوام ، ويقتدى بهم فى اتباعه الخاص والعام حتى إذا دخلوا فى أمور الدولة يحسن كل منهم فى إبداء المحاسن المدنية قوله ، فان سلوك طريق العلم النافع من حيث هو مستقيم ، ومنهجه الأبهج هو القويم يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم ، وتلقيه من أفواههم أتم وأنظم ، لا سيا وأن هذه العلوم الحكمية للعملية ، التى يظهر الآن أنها أجنبية ، هى علوم إسلامية ، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة ، فان من اطلع على سند شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهورى رأى أنه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير ، وأن له فيها المؤلفات الجمة ، وأن تلقيها إلى أيامه كان عند أهل الجامع الأزهر من الأمور المهمة » .

وكان رفاعة حريصاً على أن يقتبس من المدارس الأجنبية الموجودة بمصر وخارجها ما يجد أنه صالح للتطبيق فى المدارس المصرية ، وكتب كثيراً فى (روضة المدارس) عن أخبار المدارس الأجنبية ونشاطها .

٨ — فى تعليم المرأة : رأى رفاعة أن المرأة من أجمل صنع الله القدير ، وهى قرينة الرجل فى الخلقة ، والمعينة له فى تدبير أمره ، والحافظة لأطفاله ، والساهرة على العناية بتدبير أمورهم ، والماسحة بيدها همومهم وآلامهم ولكنها تمتاز عنه بجسم أليف وألطف شكلا ، لا يؤهلها لأن تشاركه الأشغال الشاقة . وبنية جسمها على الرقة واللين توجب كونها ألطف من الرجل طبعاً وأرق حاشية ، فاذا انحرفت عن ذلك ، كان انحرافها ناشئاً عن ظروف التربية والبيئة .

وفى رأى الدكتور أحمد بدوى أن رفاعة ربما كان أول من نادى بتحرير المرأة من ربقة الجهل فى العصر الحديث . ويدعم رأيه مسترشداً بكتاب الطهطاوى (المرشد الأمين) حيث يدعو إلى أن تنال الفتاة حظها من العلم ، كما يناله الفتى لأمور شتى (١) :

أولا : ما للتعليم من أثر قوى فى إسعاد بيت الزوجية ، وحسن معاشرة الأزواج ، فالتعلم يخلق التناسب والتجانس بين الزوجين ، ويجعل المرأة أهلا لمشاركة الرجل فى الكلام ، وتبادل الرأى ، ويبعدها عن سخف العقل والطيش الذى ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لامرأة مثلها ، وإن حصول المرأة على العلوم والمعارف ، وثقافتها الممتازة أجمل من صفات الكمال ، وأرفع قدراً عند الرجل من الجمال .

ثانياً : إن آداب الفتاة ومعارفها تؤثر كثيراً فى أخلاق أولادها ، فابنتها الصغيرة إذا رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب ، وضبط أمور البيت ، والاشتغال بتربية أولادها أحبت أن تقلدها فى ذلك على عكس ما إذا رأتها مقبلة على زينتها وتبرجها ، وإضاعة وقتها فى هذا الكلام ، والزيارات التى لا فائدة منها ، فان البنت تشب مضياعة لوقتها ، منصرفة عن النهوض ببيتها :

ثالثاً : إن العلم يهيء للمرأة سبيل العمل . فتتعاطى من الأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، إذا دفعتها الحال إلى ذلك . وهذا من شأنه أن يشغلها عن البطالة . فان فراغ يدها من العمل ، يشغل لسانها بالأباطيل وقلبها بالأهواء . فالعمل يصون المرأة عما لا يليق . ويقربها من الفضيلة : وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال . فهى مذمة عظيمة فى النساء . فان المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن من خائضة فى حديث جيرانها . وفيما يأكلون ويشربون . ويلبسون ، ويفرشون ، وفيما عندهم وعندها ... هكذا .

رابعاً : إن التجربة قد قضت فى كثير من البلاد ، أن نفع تعليم البنت أكثر من ضرره ؛ بل إنه لا ضرر فيه مطلقاً .

---

(١) أحمد بدوى (المرجع الأسبق) ، ٣٢٠ – ٣٢٢

خامساً : إنه قد روى فى كتب الأحاديث روايات كثيرة عن النساء ، وقد كان فى زمن رسول الله من يعلم القراءة والكتابة من النساء للنساء ، وكان من أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من يقرأ ويكتب ، كحفصة بنت عمر ، وعائشة بنت أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ وغيرهما من نساء كل زمن من الأزمان .

ويذكر ان لجنة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ اقترحت العمل لتعليم البنات فى مصر ، وكان رفاعة أحد أعضاء هذه اللجنة ، ولكن الاقتراح لم ينفذ ، فان المجتمع وظروفه وعقليته لم تكن تسمح وقتئذ بتعليم البنات كما اقترحته اللجنة ، واكتفى بانشاء مدرسة للقابلات والمولدات (١) . ولم يسكت رفاعة عن رأيه فدافع عنه كاتباً ومتكلماً ومسئولا ، مطالباً بأن تتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب وما يليق بالبنات أن تعلمه من الصنائع كالخياطة والتطريز .

وفى سنة ١٨٧٣ أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر ، أنشأتها جشم آفت هانم أفندى .

هكذا كان يفكر رفاعة بك رافع الطهطاوى فى التربية ومستقبلها ، فقد آمن بالتربية والتعليم والمعلمين ، حتى أنه كتب فى كتاب المرشد الأمين ... « إن خير الناس من يمشى على الأرض المعلمون » (٢) .

---

(١) جمال الدين الشيال (المرجع الأسبق) ص ٥١

(٢) رفاعة الطهطاوى (المرجع الأسبق) ، ١٤٦

الفصل العاشر
بياجيه ومنتسورى

عرف العالم الدكتورة ماريا منتسورى الإيطالية دارسة للطب ثم التربية ، واهتمامها بأطفال روما ، وخلقها بيوت الأطفال حيث يخضعون لتربية كانت غريبة عن الربع الأول من القرن العشرين . عرفها العالم غير مقدرة فى بلدها ، ثم سافرت فى ربوع أوروبا ثم أمريكا وبدأت شهرتها تعلوولكن بدأ نجمها يأفل حتى ما عاد اسمها يذكر إلا فى محاضرات تاريخ التربية .

عرف العالم جان بياجيه السويسرى ودراساته العديدة عن الطفل وتفكيره ولغته ، وترجمت كتبه ، وظل اسمه يردد فى بعض جوانب القارة الأوروبية ولكنه بدأ ينطفىء فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وفى أواخر الخمسينات ، وأوائل الستينات كان الحديث عالياً عن ماريا منتسورى وجان بياجيه . بعث من جديد بلغ ذروته اليوم عام ١٩٧٠ .

وقد يكون هذا الاهتمام لعدة أسباب ، ولكن سببين يمكن أن نلخصهما :

أولا : أظهرت كتابات بياجيه ومنتسورى أنهما سجلا ملاحظات غير متوقعة عن سلوك وتفكير الطفل ، بل لم تكن معروفة .

ثانياً : أن هذين الدارسين استخرجا من خلال ملاحظاتهما قوانين ومبادىء سلوك وتفكير الطفل .

وعند بياجيه قادته ملاحظاته إلى تكوين فلسفة جديدة عن المعرفة . فى حين أنها عند منتسورى تسببت فى خلق فلسفة جديدة للتربية .

ولن يكون هدفنا هنا عرض ما توصل إليه بياجيه ومنتسورى . ولكن سأعرض ثلاث أفكار أصيلة عن تفكير وسلوك الطفل توصل إليها بياجيه

ومنتسورى ، كل كان يعمل مستقلا ، لا صلة بينهما إلا البحث والدراسة ، وقد يكون من الخير قبل عرض هذه الأفكار الثلاثة أن نستعرض فى إيجاز أوجه الشبه والاختلاف بين ماريا منتسورى وجان بياجيه .

بينهما شبه كبير فى أن كلا منهما درس علم الأحياء ، بل أن بياجيه كتب مقالا فى ذلك العلم ولم يزل فى الثامنة عشرة من عمره ، ثم نال درجة الدكتوراه من جامعة لوزان . منتسورى كانت أول سيدة إيطالية تحصل على شهادة فى الطب ، ولها بحوث طبية .

بهذه الخلفية البيولوجية رأى كلاهما أن النمو العقلى امتداد للنمو البيولوجى بل هو خاضع لشتى القوانين والأسس .

كلاهما — أيضاً — يؤكد أهمية ظواهر النمو والسلوك عند الغالبية أكثر من الظواهر الواضحة فى الفروق الفردية . فنجد مثلا أن بياجيه حرص على تبيان التكوين العقلى الذى إذا صح لفرد سيكون صحيحاً بالنسبة للمجموع ، وبالمثل كانت منتسورى شديدة الاهتمام بالحاجات والقدرات الشائعة عند كل الأطفال مثل الفترات الحساسة و « التفجرات » .

لا يعنى هذا أن منتسورى أو بياجيه ينكران أهمية الفروق الفردية ، ولكنهما يقولان فى بساطة أن نقطة البداية لفهم الفروق بين الأفراد أن نفهم النمو السوى .

وجه شبه آخر بينهما ذلك الاهتمام الشخصى ، ذلك الشغف العميق الأصيل ، هذا التعاطف العبقرى مع الطفل وبالطفل ، إن من يقرأ لمنتسورى أو بياجيه يحس بقدرتهما على سبر أعماق الطفل وأنهما يعرفان فيم يفكر وبم يحس ، ولماذا يفعل كذا فى هذه اللحظة أو تلك .

فى دراساتهما صدق أصيل ، نابع من حماس أصيل ورغبة أصيلة ،

---

(١) لكن بياجية يقول إن هناك وجه اختلاف بين حياة الجسم وحياه العقل ، بمعنى أنه يحدث لحياة الجسم بعد سن معينة نكوص موصل الشيخوخة .

Piaget, J. : Six Psychological Studies, p. 3 .

ناهيك عن كلمات فقدت الكثير من معانيها من كثرة ترديدها كالتضحية والولاء وعدد العينة والحالات و و ... الخ .

منتسورى جمعت الأطفال وجلست إليهم وبينهم ومعهم إلى أن تغلغلت فيهم وعرفتهم ، كان بياجيه مع أطفاله الأب والأخ والرفيق ، وفوق كل هذا العالم .

وقد يرى البعض أن بين منتسورى وبياجيه بعض نقاط خلاف فى دراسة الطفل ، بالنسبة لبياجيه دراسة الطفل وسيلة إلى غاية ، ليست غاية فى حد ذاتها .

اهتم باستخدام نتائج دراسته للأطفال ليجيب عن أسئلة عن طبيعة وأصول المعرفة ، لا يعنى هذا أنه لم يهتم بالطفل كإنسان ، ولكن الحديث هنا عن دراسة الطفل ، هذه الدراسة لم يقصد بها بياجيه الحصول على أصول تنمية الأطفال ، بل إنه لم يدخل فى إطار المشاكل التربوية للطفل إلا فى عام ١٩٦٤ ، قال إن غيره يستطيعون هذا خيراً منه ، أما هو فإسهامه قاصر على ميدان المنطق والمعرفة ... ثم ثانوياً يأتى اهتمامه بسيكولوجية وتربية الطفل .

على النقيض كانت منتسورى ، فمنذ البداية وهى حريصة فى ولع شديد بصلاح الطفل ، لقد أمضت سنوات عديدة من عمرها المثمر فى تدريب المرشدات (المعلمات) ، وتربية الآباء والأمهات ، وتحرير الأطفال من طرائق تربوية كانت فى رأيها مؤذية للنمو العقلى كالطعام الهزيل فى قيمته الغذائية بالنسبة للنمو الجسمى . وهبت منتسورى نفسها لتحسين تربية الطفل .. وكان ذلك بطرق محسوسة ملموسة غير سابحة فى آفاق النظريات والفلسفة .

طرق يستطيع من يربى أن يفهمها .

بساطة مؤثرة . بعيدة عن التعقيد غير المفهوم .

فهمت وانتفعت وعرفت منتسورى ما تريد ، فأمكنها أن توصل للبشرية ما توصلت إليه ... وفى غير تعقيد .

وجه اختلاف آخر بين هذين المجددين ينبع أساساً من طريقة المعالجة والدراسة، بياجيه أساساً اهتم بالنظرية ، أما منتسورى فقد أخضعت نفسها للعمل الملموس . أطلق بياجيه على عمله وعن نفسه أنه « رجل فى الوسط » بين جماعة القائلين بأن الخبرة أساس المعرفة ؛ والقائلين بأن العقل محتو على عناصر المعرفة وهذه ليست حاصلة عن طريق الحواس .

ولننتقل الآن إلى أوجه الشبه ، مع ملاحظة التأكيد هنا على آراء منتسورى أكثر من الاهتمام بطريقتها ، حيث يمكن عقد أوجه الشبه بينها وبين بياجيه ، إذ أن الأبحاث الجارية على طريقة منتسورى لم تستكمل بعد :

أولا : الوراثة والبيئة :

كان واطسون عام ١٩٢٨ فى أوج مجده (مدرسة السلوكيين) منادياً بأهمية البيئة وأثرها الهائل فى النمو العقلى للفرد ، وفى الستينات جاء برونر بنفس الدعوة ولكن فى صلابة وانتشار أكثر ، وإذا قارنا بين بياجيه ومنتسورى فى كفة وواطسون وبرونر فى أخرى ... فالمقارنة لن تجدى نفعاً .

ينكر برونر تماماً أثر الوراثة ، ولم ينكر بياجيه ومنتسورى أثر البيئة تماماً. المسألة إذن ليست فى قالب هذه أو تلك ، الوراثة أم البيئة ولكن فى مشكلة التفاعل بينهما .

سبق أن قلت إن رأيهما متفق على أن النمو العقلى امتداد للنمو الجسمى ، وعلى هذا القول وتطوير هذه الفكرة قدما إسهامها العظيم لمشكلة التفاعل بين البيئة والوراثة .

البيئة تقدم الغذاء للتكوين العقلى ، بالضبط كما تقدم الغذاء لنمو الأعضاء الجسمية .

هذا يعنى أيضاً (ومنتسورى تؤكد هذا فى شدة) أن بعض العناصر التى تقدمها البيئة أكثر فائدة من غيرها للنمو العقلى . بالضبط كما أن بعض المواد الغذائية أصلح للجسم من غيرها .

« البيئة المعدة »(١) كما هى موجودة فى مدارس منتسورى ، أعدت بحيث تمد الطفل بأمثل غذاء ممكن لنموه العقلى .

ولكن المسألة ليست بهذه البساطة فى أنها ذات جانب واحد ، البيئة تهيىء الغذاء للنمو العقلى . لكن على النمو أن يكيف ويشكل نفسه على حسب البيئة التى يوجد فيها ، الطفل يستطيع تعلم أية لغة ليتكلمها ، وهو يتعلم اللغة التى توجد فى البيئة التى يولد فيها والتى تعرض لها ، وبالمثل ما يكونه الطفل من عادات واتجاهات وقيم ومفاهيم و .. الخ مما تفرضه البيئة الاجتماعية والمادية التى يعيش فيها الطفل .

يأخذ فى الاعتبار كل من منتسورى وبياجيه هذا الدور الذى تلعبه البيئة فى تكوين المحتوى العقلى للطفل . ما أجمل ما فعلته منتسورى وهى تقدم للأطفال لعباً وأدوات مثل الحروف الهجائية المغطاة بالورق المصنفر ، لوحات الأعداد ، الأشياء ذات الأشكال والأوزان المختلفة ، إذ هى فى نفس الوقت تقدم الغذاء للنمو العقلى وكذلك المحتوى التربوى ، يتعلم الطفل أشياء وهو يتناول الغذاء لنموه العقلى .

إذن : البيئة تقدم المادة الغذائية لنمو التكوين العقلى أو القدرات العقلية التى تم وضع نمط نموها سابقاً ... فى الجينات .

ما يحويه الفكر هو من البيئة مباشرة كاللغة والمدركات ، والأفكار ، والعادات ... إلخ . كل ما يكتسبه الطفل .

ما الدليل على هذا المفهوم للدور المزدوج فى التفاعل بين البيئة والوراثة ؟ فيما يختص بالبيئة على أنها المورد الغذائى لنمط النمو العقلى والذى هو موجه داخلياً ولا علاقة للبيئة به ، فهناك أدلة عديدة فى بحوث بياجية(٢). فى دراسة قام بها Hyde عام ١٩٥٩ أعطى مجموعة من الأطفال (إنجليز ، عرب ،

---

(١) Orem, R.C. (Editor) : A Montessori Handbook. p. 71.

(٢) Decarie, Th. G. : Intelligence and Affectivity in Early Childhood, pp. -27.

هنود ، صوماليين) مجموعة اختبارات فى أعمال عن الأعداد والكميات . وقد كانت الإجابات متشابهة ومشابهة لتلك التى حصل عليها بياجيه من الأطفال السويسريين . وفى عام ١٩٦٦ وجدت Goodnow و Bethon اختلافاً ضئيلا بين مجموعتين من الأطفال الأمريكيين ومجموعتين من الأطفال الصينيين فى هونج كونج فيما يختص بالسن الذى يظهرون فيه نسبة تفكير محسوس ، وقد ستخدمت الباحثتان ستة مجموعات تتراوح أعمارهم بين السابعة والحادية عشرة وهى أيضاً متفاوتة فى الذكاء . وقد استخدمت الباحثتان مجموعة من اختبارات بياجيه عن الكمية والوزن والحجم وغيرها .

معنى هذه الدراسة التى تشتمل على الأطفال من شعوب مختلفة ، أن الأطفال يستطيعون استخدام أية مثيرات موجودة لنموهم العقلى ، بالضبط كما يستخدم الأطفال فى أى مكان مختلف المواد الغذائية ليحققوا نموهم الجسمى

وهناك أدلة عديدة فيما يختص بالدور المباشر الذى تلعبه المثيرات البيئية إزاء محتوى الفكر . فى دراسة مقارنة قام بها Kleinberg و Cambert عام ١٩٦٧ كانت هناك فروق ، حتى فى سن السادسة . وفى إجابات الأطفال على سؤال « من أنت ؟ » . معظم الأطفال الأمريكيين دار تفكيرهم أساساً حول « أنا ولد » أو « أنا بنت » فى حين أن أطفال قبائل البانتو أجابوا فى إطار الجنس « أبيض ، أسود .. الخ » . الأطفال اللبنانيون ربطوا إجابتهم بالصلات العائلية والقرابة .. « أنا ابن عم على » . تظهر هذه الدراسة دور البيئة الطبيعية والاجتماعية فى تشكيل فكرة الفرد عن نفسه .

بالنسبة للقدرات العقلية للوراثة الدور الموجه ، والبيئة تابعة . وفيما يتصل بمحتوى الفكر العكس صحيح .

بهذا الدور المزدوج أعطى بياجيه ومنتسورى العالم مفتاحاً لحل هذه المشكلة ... الوراثة والبيئة .

ثانياً : القدرة والتعلم :

حيث تدور البحوث فى علم النفس التجريبى ينظر إلى الطفل على أنه كائن

ساذج . هذا يعنى أن الطفل هو الفرد قليل الخبرة — أو نادرها — على الرغم من أن قدرته على التعلم لا تختلف فى جوهرها عن تلك التى يمتلكها الراشد . ولعل الاختلافات بين الراشدين والأطفال هى أن الأول كانت لديهم الفرص والوقت للاستفادة من الخبرات ، الأمر الذى يفتقده الأطفال .

يرى بياجيه ومنتسورى أن الطفل كائن صغير غض ، وهذا يعنى أن حاجاته وقدراته تختلف عن تلك عند الكبار .

وإذا وضعنا ذلك القول بلغة علم النفس التجريبى لقلنا إن القدرة تتحدد بالتعلم ، فى حين أن علم نفس النمو يرى أن التعلم يتحدد بالقدرة (أو بالنمو) .

الأمر قد يتضح إذا قارنا بين الطائرات ذات المحركات منذ ربع قرن مضى والطائرات النفاثة والمتخطية لحاجز الصوت اليوم، ناهيك عن الصواريخ وغيرها . طائرات الأمس سرعتها محدودة (قياساً بسرعة طائرات اليوم) والمسافة التى تطيرها قصيرة (أيضاً نسبياً) . طائرة اليوم سريعة جداً ، تقطع المحيط دون توقف ، سعتها أكثر وإمكانياتها أضخم (أيضاً نسبياً) . طائرة الأمس ، لها سرعة قصوى . ومهما بذل الطيار ومساعدوه فلن تسرع الطائرات أكثر مما تستطيعه ، وهو أقل بكثير مما تستطيعه طائرة اليوم . وليس من شأننا هنا أن نقارن طائرة اليوم بالمستقبل . وحقاً حققت طائرة لأمس معجزات على قدر (موتورها) و (عددها) وتصميمها ... الخ .

ولكن طائرة اليوم لم تظهر فجأة من طائرة الأمس ، بل مرت فى العديد من التجارب والتحسينات ، أو قل أطوار نمو .

ونمو العقل يمر فى أطوار من الطفولة إلى الرشد .

وكما أن موتور الطائرة وعددها و .. الخ . تحدد سرعتها وسعتها ومداها ، كذلك القدرة العقلية فى أية مرحلة تضع الحدود لتعلم الطفل .

إذا حصلنا على طائرة من طائرات الأمس (فى حالة صالحة للطيران) وعهدنا بها إلى مختص حاذق ، فقد يعدل شيئاً هنا وشيئاً هناك ، وقد يغير قطعة ما فى الموتور ، أو المحرك أو فى كليهما إذا ارتأى ذلك ، وهنا تستطيع

الطائرة أن تحمل عدداً أكبر من الركاب ، أو طروداً أكثر (حسب الظروف) وقد تقطع مسافة ما فى زمن أقل مما تحتاجه قبل هذه العناية الهندسية .

بشىء من التدريب العلمى على يد المختصين يستطيع الطفل أن يتعلم ما كان يلوح أنه لا يستطيعه قبل تلك العناية من المختص .

فى رأى بياجيه ومنتسورى ، أن ذلك الطفل لم تتغير قدرته على التعلم . أى أن القدرة تحدد التعلم ، والعكس ليس صحيحاً .

منتسورى وبياجيه براء من الإشاعات التى راجت والمرتبطة بتعجيل النمو والإسراع فى النمو .

يقول بياجيه « من المحتمل أن تنظم عمليات النمو لها مدد ترى أنها الأفضل والأكثر صلاحية ، فمثلا إننا نعلم أن الطفل البشرى يحتاج بعد ولادته من تسعة أشهر إلى اثنى عشر شهراً قبل أن يكوّن مفهوماً مضمونه أن الشىء سوف يظل مكانه إذا أسدلت ستارة أمامه وحجبته ، القطط تنمو فى مراحل تنمو كالبشر ، ولكن القطة تفهم ما فهمه طفلنا البشرى هذا بعد ثلاثة أشهر فقط من ولادته فالقطة متفوقة على طفلنا بستة أشهر . هل هذه ميزة ميز الله بها القطط وحجبها عن الإنسان ؟

الإجابة ببساطة أن القطة لن تنمو أبعد من هذا ، والطفل البشرى ، أبطأ حقاً ولكنه قادر على التقدم إلى أبعد ، فالأشهر التسعة لم تضع عبثاً ، ولتسبق القطط ما شاء لها : يقول بياجيه فى حديث له مع محرر مجلة أمريكية ...

« إذا قبلنا الحقيقة القائلة بأن هناك مراحل للنمو فسوف يقفز سؤال أسميه بالسؤال الأمريكى وأنا أسأل نفس السؤال كلما زرت الولايات المتحدة الأمريكية ... إذا كانت هناك مراحل للنمو هل فى الإمكان الإسراع بها ؟ هل من الضرورى أن يمر الطفل فى كل مرحلة من هذه المراحل . أم أنه فى الإمكان تخطى واحدة أو أكثر ؟ الإجابة السريعة « نعم » ولكن إلى أى حد نستطيع ذلك ؟ ...

منذ عدة سنوات قال جيروم برونر Jeroms Bruner ما أذهلنى حقاً

وهو أنك تستطيع آن تعلم أى (شىء) للطفل إذا قدمته بالطريقة السليمة ، اى شىء لأى طفل إذا اتبعت الطريقة الصحيحة ... لا أعلم ما إذا كان متمسكاً برأيه هذا ... وكل ما يمكن القول به الآن أن لدى فرضاً ، ولكننى لست قادراً على برهنته ... من المحتمل أن تنظيم العمليات الخاصة بالنمو لها وقت يمكن أن نسميه بالأفضل والأحسن » ...

ثم يقص بياجيه قصته عن القطة والطفل البشرى السالف ذكرها .

كان هذا رأى بياجيه فى عام ١٩٦٧ ومازال الخلاف واضحاً بينه وبين برونر الأمريكى . وإن كان المفضلون لبرونر فى تزايد مستمر خاصة بعد أن أدخلو فى حسابهم استخدام التكنولوجيا(١) .

وعلى نفس النهج كتبت ماريا منتسورى «لا يجب علينا أن نشغل أنفسنا بمشكلة البحث عن وسائل وكيفية تنظيم داخلية الطفل وشخصيته ، إنما مشكلتنا الحقيقية فى البحث عما نقدمه غذاء للطفل لنموه العقلى (٢) » .

إن فشل العديد من التجارب التى قصد بها تدريب الأطفال على ما وضعه بياجيه فيما يختص بالتفكير عند الأطفال ، قد عضد فكرته عن أن القدرة تحدد ما يتعلمه الطفل . وهناك تجارب أخرى وجد فيها أن أطفال السادسة والسابعة والثامنة استطاعوا تحسين نتائج إدراكهم الحسى نتيجة لتدريبات معينة ، ولكن وجد أن الأطفال الأكبر من أولئك سناً قد حصلوا نتائج أعلى بأقل كمية من التدريبات ، المقارنة مع الأطفال الأصغر سناً .

ومع تأكيد بياجيه ومنتسورى على أن القدرة تحدد ما يمكن أن يتعلمه الطفل وكيف يتعلمه ، فإنهما لا ينكران أن الأطفال « يتعلمون كيف يتعلمون» أى أنهم فى أى سن يمكن تعلم فنيات تساعدهم على استخدام قدراتهم بفاعلية أفضل .

---

(١) Jenninegs, Frank G. : Jean Piaget – Notes on Learning : Saturday Review 20 : May 20th 1967, pp. 81 – 83.

(٢) Montessori, Maria : Spontaneous Activity in Education, 70.

كلاهما لا يعضد التعجيل فى النمو العقلى :

ما يؤكدانه هو ضرورة مد الطفل بالمثيرات والجو اللازمين لتحقيق إمكاناته فى الزمن والسرعة المناسبين .

ثالثاً : الحاجات المعرفية والسلوك المتكرر :

لاحظ بياجيه ومنتسورى تكرار السلوك المصاحب لانبثاق القدرات العقلية السلوك المتكرر فى نظر النفسانيين والتربويين غير مقبول ، ولا يجب أن يشجع الأطفال عليه . . فقد لاحظ بياجيه تكرار الأطفال فى سن معين لأسئلة تبدأ بكلمة « لماذا ؟ .. (ليه ؟) » ، هذه الأسئلة التى تبدو مضايقة للوالدين وتبدو غبية من فم الطفل خاصة عندما يكررها بإلحاح . هذه الأسئلة المستطلعة تعبيرات عن محاولات الطفل التفريق بين أحداث مقصودة أو مدفوع الإنسان لعملها ، وبين نتائج القوانين الطبيعية ... طبعاً الطفل فى الخامسة لا يعرف مضمون ومعانى هذه الكلمات ، ولكن أسئلته فى مجموعها درست وحللت ووجد أنها تهدف إلى الوصول إلى تلك الفروق .

وقد لاحظت منتسورى أيضاً هذه العمليات المتكررة ، وقدرت أهمية هذا السلوك المتكرر ، وأطلقت عليه « استقطاب الانتباه » .. تقول (١) ...

« راقبت الطفلة بانتباه شديد دون أن أحاول التدخل فيما تعمله ، وعددت كم من المرات تعيد تنظيم القطع الصغيرة فى اللوحة التى أمامها ، واستمرت مدة طويلة ، ثم اقتربت منها ورفعتها وهى على كرسيها ووضعتها على منضدة ، وما زالت اللعبة فى (حجرها) وتبعثرت القطع ، ولكنها سرعان ما جمعتها وبدأت تلعب من جديد ثم ناديت على الأطفال ليغنوا ، وقد غنوا ، ومازالت الصغيرة مستغرقة فيما هى فيه ... وكنت مازلت أعد ، فقد لعبت لعبتها أربعاً وأربعين مرة ... ثم توقفت ، ونظرت حوالها شاعرة بالرضا والكفاية ... كأنما صحت من نومة منعشة » .

تكرار السلوك دليل على نضج القدرات الجسمية ، الطفل يمسك أشياء فى يده ثم يلقيها ، يتناول فنجاناً ثم يقذفه ... ليس هذا سلوكاً تدميرياً تخريبياً ،

(١) Ibid, pp. 67-68

وإنما هو نابع عن حاجة الطفل للتدريب على مسك الأشياء ثم تركها . وما يفعله الطفل هنا هو تدريب القدرات الحركية المنبثقة أو تحسينها ، وبنفس الطريقة تتحقق القدرات العقلية ، ويتم ذلك بالتدريب وبالاستعانة بأية مثيرات موجودة طفل الرابعة الذى يقارن نصيبه من الحلوى بنصيب إخوته ليس أنانياً أو سيء الطباع ، إنما هو تلقائياً يمارس قدرته فى عمل المقارنات الكمية . طفل منتسورى الذى يكرر فك الزراير ثم إحكامها ثم فكها وهكذا عدة مرات انما هو يمارس ويدرب قدراته العقلية المنبثقة .

يقول بياجيه ومنتسورى إن هذا السلوك المتكرر له قيمة كبرى للطفل ، بل هو ضرورى لنمو ذكائه .

وعلى الرغم من أنه لا توجد أبحاث كافية خاصة بدور التكرار فى النمو العقلى ، ومع ذلك فان ثمة نتائج توصل إليها Elkin وWeiss عام ١٩٦٧ . عرض الباحثان — على أطفال من رياض الأطفال والصف الأول والثانى والثالث — لوحة عليها ١٨ صورة مثبتة على هيئة مثلث . وكان عمل الأطفال التعرف على كل صورة من الصور الثمانى عشرة بالترتيب الذى لصقت فيه الصور على شكل مثلث . بالنسبة لأطفال الرياض سموا الصور بالترتيب الآتى : بدءوا من قمة المثلث ثم تتبعوا ترتيب الصور على أضلاعه الثلاثة . بنفس هذا الترتيب تتبع أطفال الصف الثالث الصور ، وكذلك بعض أطفال الصف الثانى . ولكن بعض أطفال الصف الثانى وأطفال الصف الأول سلكوا طريقاً غريباً : من قمة المثلث إلى القاعدة ثم من اليسار إلى اليمين .

تفسير هذا ، يلوح ، هو أن أطفال الصف الأول ما زالوا فى مرحلة بداية تعلم قراءة اللغة ، وهى الإنجليزية ، فهم يقرأون من اليسار إلى اليمين ثم تتتابع السطور من أعلى الصفحة إلى أسفلها ، من المحتمل أن هذا أثر على طريقتهم فى تسمية الصور على أضلاع المثلث . لهذا لا نحب أن نحكم على سلوكهم بالغباء ، لاحظ أن بعض أطفال الصف الثانى اتبعوا نفس الطريقة ، وهم أبطأ فى تعلم القراءة من زملائهم فى نفس الصف بحيث يمكن وضعهم فى مستوى الصف الأول .

الفصل الحادى عشر
الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى

لم تأل الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى جهداً فى سبيل استخدام المدارس والكليات لتشكيل المجتمع . مجتمعان مختلفان ، ولكن معاهد التعليم فيهما لها دور واضح التأثير . فإلى العالم الجديد ، على الجانب الغربى من المحيط الأطلسى هاجرت مجموعات مختلفة من جنسيات عديدة . وإلى أمريكا على الجانب الشرقى من المحيط الهادى نزحت أعداد غفيرة عابرة هذه الشقة المائية الهائلة من آسيا . تنوع واضح تحت ظلال علم واحد ونظام سياسى واحد فكان لابد من مجهود جبار تبذله التربية فى محاولات لإزالة المتناقضات التى حملها المهاجرون ، ومازالوا يحملونها فى هجرتهم إلى اليوم . وقد نجحت المدارس الأمريكية فى هذا المضمار .

وفى اتحاد الجمهوريات السوفييتية كانت الحاجة ملحة لثورة تربوية مباشرة فى أعقاب الثورة البلشفية . فلسفة جديدة ، بل تختلف جذرياً عن فلسفة المجتمع الروسى قبيل ١٩١٧ . كان لابد للماركسية اللينينية أن تتأكد ، وبسرعة ، بل كان لابد للأجيال الصاعدة أن تتشرب هذه الفلسفة وتعيشها حتى تصبح جزءاً من نسيج تكوينها ، وقد نجحت التربية الروسية فى هذا المضمار .

وتتميز دور المدارس فى كلا المجتمعين — أيضاً — بالتأثير المباشر كوسيلة النمو الاقتصادى . لم يكن معقولا أن يكون نمو اقتصادى دون العضد الركيز من التربية بمدارسها ومعاهدها ومؤسساتها . لم يكن معقولا ولا مقبولا أن يفكر المسئولون فى تنمية اقتصادية دون أن تكون التربية بنداً رئيسياً فى تفكيرهم ، لهذا تضاءلت الفجوة بين المداخن والسبورات ، بين أفران الحديد والصلب وقاعات المدارس لقد سقطت دول نامية فى هاوية الخطأ عندما فكرت فى نمو وازدهار إقتصادى ، ثم أقبلت عليه دون أن تعد له القوى البشرية اللازمة ، فاهتزت المداخن ، وخرج الإنتاج بنوعية هزيلة ...

بين التربية الروسية والأمريكية أوجه تشابه ، وبينهما أوجه اختلافات

واضحة وهذا ما سأتعرض له فى الصفحات القادمة . ولكن كبداية قد يحق لنا القول بأن كلا النظامين تعرض لضغوط واحدة :

١ — ضغط الأعداد المتزايدة من المتعلمين .

٢ — ضغط المعرفة وتفجرها وتنوعها .

٣ — ضغط القوى التى قاومت التغير .

ومع كل هذه الضغوط استطاعت التربية فى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى أن تشق طريقها بنجاح ، وتحقق الكثير من أهدافها .

الاتحاد السوفييتى :

لم تجد ثورة ١٩١٧ نفسها أمام خراب وإملاق ، فقد كانت روسيا دولة أوروبية لها موارد اقتصادية (وخاصة الفحم والبترول) غنية . حقاً لم تكن موسكو ولا سانت بطرسبرج فى غنى لندن أو برلين أو باريس ، لكنهما كانا أحسن حالا من مدريد وبرشلونة وروما ، كانت هناك صناعات ضخمة ، فقد تدفقت رءوس أموال طائلة فى روسيا مرسية دعائم نمو اقتصادى . ليس من شك أن النمو الاقتصادى منذ ثورة ١٩١٧ كان موجها ومرسوماً ولكنه استفاد من المجهودات السابقة .

على أن ثورة ١٩١٧ — ورثت فيما ورثته — أمية بالغة وخاصة فى الأجزاء الآسيوية من الاتحاد السوفييتى ، وفى المناطق الريفية عامة ، أما المدارس — بصفة عامة — فكانت متخلفة فى مناهجها وطرائق التدريس ، تخلفاً يجعلها أقل من المستوى عن الأقطار الأوروبية ، بل أن الفجوة واسعة بينها وبين المدارس الإنجليزية ، وإن كانت تضيق قليلا بينها وبين مدارس جنوب أوربا .

وكانت للأرستوقراطية والطبقة المتوسطة العليا مدارس ثانوية ذات طابع أكاديمى يؤدى بالخريجين إلى الجامعات التى تخرج الموظفين للإدارات الحكومية وقد سارت المدارس الثانوية والجامعات على المنهج الألمانى ، فى حين أن الفرنسية كانت لغة الأرستوقراطية . على أن ثورة ١٩١٧ أتت بنوعين من

... ـلاحات غيراصوة وجه التربية تغيراً عميقاً . كان الإصلاح الأول موجهاً ضد الأمية السائدة . وكان مذهلا ما حدث فى الاتحاد السوفييتى ، فى مدة زمنية امتدت ثلاثين عاماً زالت الأمية عند الشباب وغير الطاعنين فى السن ، كما أصبح هناك تعليم ابتدائى عام . تم هذا فى الوقت الذى خاضت فيه روسيا حرباً عالمية طاحنة ، فَكما فقدت حوالى عشرين مليوناً من أبنائها ، إلى جانب ما حاق بها من دمار وتخريب . ويعزى جانب كبير من هذا الإنجاز المذهل إلى حماس الحزب الاشتراكى وجديته فى إطفاء نيران الأمية والجهل : لقد عبئت الجهود الصادقة ، وفتحت المدارس والمراكز فى المزارع والمصانع ، ومدارس عملت بالنهار وبالليل فى إيمان وتصميم لتعليم المواطنين والمواطنات ، ويذكر أنه كانت تمنح فى القرى أمكنة للسيدات اللواتى يستطعن تعليم المواطنات ، كما كانت النظرة إلى غير المتعلم تضعه فى مواقف حرجة .

وقد اهتمت الإدارة المركزية باعداد المعلمين ، كسلاح ماض لتحقيق هدفها فى محو الأمية ،فأنشئت مراكز تدريب المعلمين حيثما سمحت الظروف. والتحق بها من كانوا على قدر من التعليم ليعدوا مدرسين . أما الاهتمام بتحسين الجامعات والمعاهد العليا فقد جاء فيما بعد ، بعد أن اتسعت وامتدت القاعدة العريضة فى إعداد المعلمين . وقد نال المعلمون منذ بداية الثورة مكانة مرموقة وكان هذا الاهتمام الضخم بالمعلم هو الاصلاح الثانى .

ولننتقل الآن إلى فلسفة التربية فى الاتحاد السوفييتى ، ونحن هنا نقف وجهاً لوجه أمام الماركسية . ويذكر أنه عندما أصبحت السيدةKrupskaya (زوجة لينين) المسيطرة على التربية السوفيتية نشرت آراءها . التى نظر إليها على أنها آراء تقدمية . ومن الغريب أن تسود آراء جون ديوى الأمريكى التربية الروسية ، فقد عمت التربية التقدمية المدارس بما فيها من مركزية حول الطفل . وخضوع لميوله واهتماماته ، وفرص عديدة للنشاط الفردى ، والتساهل فى التقيد بمناهج محددة موضوعة . وقد ألغيت هذه الديويات فيما بعد .. ولكن مازالت آثار منها تترك بصماتها على التربية السوفيتية اليوم . فمثلا هناك إعتراف

بأهمية الطفل فى المجتمع السوفييتى ، ويهتم المجتمع بمعاملة الأطفال كأفراد لهم حقوق يجب احترامها . هذا موجود الآن ، ومن المحتمل أن السيدة كروبسكايا فى آرائها استندت إلى التقاليد الروسية فى حب الأطفال . وهذا واضح اليوم فى اهتمام روسيا بدور الحضانة وبالتطبيع الاجتماعى المبكر للأطفال ..

هذا وقد دعت الظروف الاقتصادية — فى وقت ما — المسئولين فى الاتحاد السوفييتى إلى إبقاء الأطفال بالمدرسة ساعات طويلة مع منحهم وجبات غذائية فقد كانت أزمة مساكن ، وقلة من الغذاء ، فكان خيراً أن يبقى الأطفال فى المدرسة إلى المساء .

وكان اهتمام السوفييت بالأطفال يعادله اهتمامهم بالمرأة التى تبوأت مكانة مرموقة فى المجتمع . ومن المعروف أن المجتمع السوفييتى أعطى المرأة أعلى مكانة ، فهناك طبيبات ومدرسات ومهندسات بأعداد لم يستطع أى مجتمع غربى فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية الوصول إليها . ولعل الفضل فى هذا التقدم النسائى يرجع إلى تشجيع السيدات على التعلم والتسهيل عليهن بفتح دور حضانة تتقبل الأطفال فى أية ساعات من اليوم .

وقد قتلت آراء ديوى فى عهد ستالين . بل يقال أنه أمر بالغاء التعليم المشترك . وأن يفصل البنون فى مدارس خاصة بهم ، وللبنات مدارسهن .. ولكن عاد التعليم المشترك مرة أخرى بعد انقضاء العهد الستالينى . وظل اهتمامه بالنظام وسلطة الإدارة المدرسية ، والتحصيل الدراسى سائداً ، ولكن صار تحول عن المدرسة المتمركزة حول الطفل . ولعل هذا أحد الفروق الأساسية اليوم بين التربيتين الروسية والأمريكية . ويرى الملاحظون والدارسون للتربية السوفييتية أنها تتميز بالتركيز على مناهج موحدة لجميع التلاميذ ، ومدارس موحدة عامة . كما أن التركيز فى علم النفس السوفييتى على التعاون . ومن أساسيات علم النفس (الماركسى) أن القدرات تكتسب وليست فطرية ، وأن الفروق بين الأفراد تمثل اختلافات فى الظروف البيئية وفى الاستجابات التى يكونونها . وينتظر من التلاميذ المتفوقين فى التحصيل الدراسى أن يساعدوا

زملاءهم المتعثرين ، كما أن اعتقاداً يسود بأن ضآلة التحصيل الدراسي مرجعها إلى عدم الرغبة فى التعلم ... فكل الأفراد خلقوا سواسية ، ومن يقبل على التعلم أكثر يحصل أكثر ... ولا دخل هنا لما يسميه علم النفس فى الدول الغربية والرأسمالية بالذكاء الفطرى والقدرات التى يولد الفرد مزوداً بها .

ومع هذا ، فان الفروق بين الأفراد تفصح عن ذاتها فى سن معين ، ولهذا فان الاتحاد السوفييتى ألقى اهتماماً بانشاء مدارس خاصة بعد سن الخامسة عشر حيث يدرس فيها التلاميذ ليصبحوا جيش العمال المهرة . ولعل على رأس وظائف التربية فى الاتحاد السوفييتى إعداد طوائف المتخصصين للمجتمع فى شتى مجالاته وأنشطته .

وتكون الجامعات نسبة بسيطة (نسبياً) فى النظام التعليمى ، وكذلك المدارس التى تعد الطلبة لهذه الجامعات . وتهتم الجامعات باعداد الباحثين فى شتى المجالات ، ومستواها عال جداً ، ويضم التعليم العالى — إلى جانب الجامعات — المعاهد التكنولوجية المتخصصة ، وهى ذات طابع تطبيقى .

ويلمس الدارس للتربية السوفييتية أثراً ماركسياً آخر هو مزج الدراسة بالعمل . فقد اهتمت (إصلاحات) خروشوف (١٩٥٨) التعليمية بتنمية نظام يعطى فيه كل طالب — باستثناء الموهوبين — فرصة العمل بين سن ١٤ سنة وعشرين سنة حتى تذوب الفوارق بين الفئة المثقفة وغيرها . ويقال إن دافعاً لهذه الإصلاحات هو العجز فى عدد العمال بعد ملايين الضحايا فى الحرب العالمية الثانية ونقص المواليد ، وكذلك خوف الساسة من تكون طبقة طلابية قد تقوم بعمليات فيها خطورة على النظام . ومهما تكن الأسباب فان إتاحة الفرص للطلبة للعمل اليدوى فيه احترام وقدسية للعمل حتى لا تنمو إحساسات بفروق طبقية أو تطلعات ينشؤها العمل العقلى وموقفه من العمل اليدوى . وصار تعليم الشباب على أساس أن العمل واجب وشرف ...

وفى رأى بعض المربين الغربيين أن الفلسفة التربوية والنظام التربوى

الروسى هما مزيج من التقاليد القيصرية السابقة للثورة ، والتعاليم الماركسية ، وتأثرت من المجتمعات الغربية . فلم تنبذ الثورة كل قديم ، ولم تقفل الباب نهائياً أمام خبرات الغرب ، بل أخذت منها ما يتناسب مع الماركسية ولا يطيح بأساسياتها . وقام هذا المزيج المريح لينتج مجتمعاً متميزاً بالوحدة ومتشبعاً بالماركسية وقادراً على مد الصناعة والمزارع بالقوى البشرية ذات الكفاءة الممتازة ، بل وفوق كل هذا تهيئة أفراد أغنياء بولائهم لوطنهم والذود عنه ، ولعل المعجزة الكبرى للنظام التعليمى السوفييتى قدرته على استيعاب هذه الأعداد الهائلة من الأفراد وكفايته الرائعة فى توجيههم بنوعيه فائقة . فقد تضاعف عدد الأطفال منذ ثورة ١٩١٧ ، كما أن عدد تلاميذ المدارس تضاعف عدة مرات .

وتفخر التربية السوفييتية بأن نسبة عدد المدرسين إلى التلاميذ تعد أحسن نسبة فى العالم (١) كما أن موقف أولياء الأمور من المعلمين يتميز باحترام وتقدير كبيرين الأمر الذى يشكو منه معلمو الولايات المتحدة مر الشكوى . والمقارنة تتضح بصورة جلية فى اجتماعات مجالس الآباء والمعلمين فى كل من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية . ففى الأخيرة يكاد يكون المدرس مذنباً يتلقى التأنيب من أولياء الأمور (دافعى الضرائب) وعليه إذا أراد أو أرادت أن تقدم تقريراً لوالد جونى ، وجونى تلميذ ضعيف مهمل كسول ، فهنا يبدأ المعلم بمحاولات يرمى من ورائها رضاء والد جونى ، فجونى مثلا يلبس قميصاً يتلاءم لونه مع بنطلونه ، أو أنه صاحب ابتسامة لطيفة ، ثم يلمح المعلم أن جونى ضعيف فى تحصيلة . وإذا كان الحاضر من طرف جونى والدته ، فقد لا تنتهى ليلة المدرس أو المدرسة إلا بأنه هو الضعيف فى مادته غير القادر على التدريس(٢). الصورة مختلفة تماماً فى الاتحاد السوفييتى حيث يتم فى اجتماعات الآباء والمعلمين أن المعلم يؤنب ولى الأمر الذى لم يحسن

---

(١) ولا تقترب من هذه النسبة إلا اليابان .

(٢) هذه الصورة الكاريكاتورية قد يكون فيها شىء من المبالغة .

العنابة بابنه وقصر ، بل إن التأنيب والتقريع يخرج إلى دائرة المجتمع الضيقة أولا حيث تنهال طلقات التأنيب على ولى الأمر من كل اتجاه ...

على أن ما يتوج التربية الروسية هو هذا التنظيم الدقيق لمركزية تنبع من الحزب الشيوعى ، مركزية تسيطر على المناهج والكتب المقررة وأنظمة الامتحانات . ولكن إلى جانب هذه المركزية هناك المبادآت المحلية والمجهودات التى تتقلها الإدارة المركزية بكل تقدير . شيء رائع ومثير هذا الجمع بين مركزية ولامركزية ، دول غرب أوروبا تتبع سياسة مركزية ، والمحلية والإقليمية اللامركزية سمة أمريكية . ولكن الاتحاد السوفييتى هو الفريد الذى جمع بين الاثنتين فى نسيج مبدع محكم .

هذا ، وتظهر الفروق بين التربية الاشتراكية والتربية فى المجتمعات الغربية الرأسمالية فى طبيعة الإنسان فى المجتمع . ولعل ما وضحه Neilo'Connor(١) عن هذه الفروق جدير بالاقتباس هنا وقال :

« يتجه علم النفس التعليمى السوفييتى إلى تعميق فعاليات التربية ، ومن الإنصاف القول بأن هذا هو هدف علم النفس التعليمى فى أى مجتمع . ولكن نجد فى إنجلترا مثلا اعتقاداً جازماً بتأثير الوراثة على الذكاء مما أنتج اهتماماً بالغاً بالفروق فى القدرات ، البداية مختلفة ولكن الهدف واحد وهو تعميق فعاليات التربية وتأثيراتها . وقد أدى الاختلاف فى البداية إلى إتاحة فرص تربوية أكثر وأعرض فى الاتحاد السوفييتى : كما أن الافتراضات المؤسسة على مفهوم أن الذكاء فطرى قد رفضت رسمياً فى روسيا ، فى حين أنها بدأت تفقد قيمتها تدريجياً فى إنجلترا عن طريق المحاولة والخطأ .

وفى كلا المجتمعين الروسى والإنجليزى إعتراف بوجود فروق بين الأفراد . ولكن هذه الفروق تلعب دوراً حيوياً فى إنجلترا . فهى العوامل

---

(١) Neil O, Connor in Communist Education, edited by E. J. King: p. 49.

الأساسية المتحكمة فى تربية الأفراد ، أما فى روسيا فهى أسس تؤدى إلى تنوع فى البناء التعليمى . إنه الفرق بين مجتمع طبقى ومجتمع لا طبقى . ففى المجتمع الطبقى اعتراف بأن هذه الفروق الموروثة لا تتغير ... » .

الفروق الفردية موجودة ... هذا ما يراه علماء النفس فى الشرق وفى الغرب ، ولكن ما دورها ؟ يقول علماء النفس الغربيون الآتى : يعترف المجتمع السوفييتى بوجود فروق بين الأفراد لأنه يريد وجود هذه الفروق ليحقق أهدافه وأغراضه ويحقق منجزاته ، فى حين أن المجتمع الغربى يؤكد وجود هذه الفروق ويمجدها لذاتها ... » هذا ما يقوله علماء الغرب ...

الولايات المتحدة الأمريكية :

بلد حديث فى تاريخه ، ولكنه أقدم بلد فى جعل التربية حقاً لكل مواطن ، فقد سبقت دول العالم فى المدرسة الابتدائية المجانية ، تعقبها المدرسة الثانوية وأبوابها مفتوحة أمام الجميع ، ثم إلى تعليم عال . ويعتز الأمريكيون كل الاعتزاز بهذه الدعوقراطية فى التربية ، وأنهم فتحوا الأبواب أمام المتفوقين لتعليم عال . وفى رأى الغربيين :

ـ التقدم التربوى فى الولايات المتحدة الأمريكية ليس مرده فقط إلى غزارة وغنى الموارد الطبيعية ، وإلى القوى البشرية ، وإنما لأن هناك اعتقاداً راسخاً بأهمية وأولوية التربية . وقد لعبت المدرسة دوراً هاماً فى التطور الثقافى الأمريكى .

ـ منذ بواكير التاريخ الأمريكى وهناك اعتقاد عميق بأن المدرسة مسئولية المجتمع ، فمجتمع ناحية ما ينشىء المدارس والكليات . ويمولونها ويشرفون على بنائها ، فهى ستعلم أبناءهم ... واستمر هذا الموقف إلى أن تدخلت الإدارات المركزية وأسهمت .

ـ سبقت الولايات المتحدة الأمريكية دول العالم فى إصدار قوانين ولوائح خاصة بالتربية والمدارس . وكان ذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر . ولعل أخطر عمل أقدمت عليه هو المدرسة الابتدائية العامة المجانية . مدرسة للجميع ، والتربية مسئولية الدولة . كان هذا حدثاً تاريخياً .. وبدأت التقاليد ترسى

دعائمها ، فاذا أضفت إلى هذا حماس الناس إلى التعليم واهتمامهم به ، مضافاً إلى ذلك أيضاً غنى فى الموارد وفيض من المال ، أمكننا أن نرى شكل المدرسة ومحتواها يتغير فى ثراء ويتحسن فى غنى .

— باستثناء الجنوب كانت المدارس للجميع ، حقاً كانت هناك مدارس خاصة يؤمها أبناء الأثرياء ، ولكنها — نسبياً — كانت أقل مما كان موجوداً بالقارة الأوربية(١). ولم تعرف أمريكا — إلا لماما — مدارس الفقراء ، ومدارس الأثرياء كما عهدتها أوروبا .

— منذ البداية كانت هناك مساواة فى التعليم بين الذكور والأناث ، بل إن هيئات التدريس بالمدارس الابتدائية كانت نسائية . فقد نظر إلى مهنة التدريس على أنها — فى مرحلة ابتدائى — لا تحتاج إلى قوة جسمية وعضلية . والنساء أحق بها من الرجال الذين يجب أن يعملوا فى مهام أخرى لا تقدر عليها النساء !! على أن الموقف — أخيراً — بدأ يتغير وبدأ الرجال منذ سنوات غير بعيدة ، يعملون معلمين فى المدارس الابتدائية ، وحتى اليوم تجد نسبتهم ضئيلة جداً إذا قورنت مع المدرسات ، وإن كانت المناصب الإدارية بها أعداد وفيرة من الرجال .

— كان هناك اهتمام بإعداد المعلمين ، ولعل الكثير من جامعات أمريكا اليوم بدأت كمعهد للمعلمين ثم كبر وتطور وتضخم . كانت الـNormal Sshool نواة كثير من جامعات أمريكا اليوم .

ولعل القوة البارزة فى تطور التربية الأمريكية فى بداية القرن العشرين وإلى الأربعينات منه هى آراء جون ديوى التى لم يقتصر تأثيرها على الولايات المتحدة الأمريكية بل انتقلت إلى أوروبا وإلى روسيا واليابان وكثير من أقطار العالم ، جاءت آراؤه فى أمريكا فى وقت مناسب سياسياً واقتصادياً واجتماعياً .

---

(١) ولا ننسى الحال فى مصر قبل ١٩٥٢ حيث كانت هناك مدارس ابتدائية ومدارس أولية ، الأولى تودى إلى الثانوى ثم التعليم العالى ، والثانية مقفولة المستقبل .

كان من الضرورى تصميم مناهج لا تقسم الأفراد حسب مستواهم الاقتصادى أو مركزهم الاجتماعى ، أو حسب طبقتهم العقلية . كانت الحاجة ماسة إلى نظام تعليمى يوحد ولا يفرق . وكان الاختراع الأمريكى لتنفيذ هذه السياسة هو المدرسة الثانوية التى فتحت أبوابها لكل التلاميذ . كل التلاميذ ، لا الأغنياء منهم فقط ، والمتفوقين عقلياً فقط ، بل الجميع .

وصممت المناهج لتنمى اهتمامات وكفايات الفرد المتعلم ، بالإضافة إلى مد جميع المتعلمين بالدراسات الأكاديمية والعملية اللازمة لهم لحياة سعيدة فى مجتمعهم وقتئذ . على أن المدرسة الثانوية الأمريكية highschool لم تقصر خدماتها على تلاميذها وتلميذاتها ، بل فتحت أبوابها للمجتمع ، وأصبحت مركز النشاطات الاجتماعية والرياضية والفنية . وهى بهذا اختلفت عن المدرسة الثانوية فى القارة الأوروبية ... وغيرها .

ولم تسلم التربية الأمريكية من مطارق النقد ، من أمريكيين وغيرهم ، فقد اتهمت بأنها تهتم بالكم ، فى حين أن التربية فى أوروبا تهتم بالكيف . ويدافع الأمريكيون عن أنفسهم قائلين إن هناك فروقاً واختلافات فى المستويات من مدرسة لأخرى . ومن جامعة لأخرى . فهناك جامعة هارفارد . ومعهد التكنولوجيا بماساشوستس ، وجامعة شيكاغو (وخاصة فى العلوم الطبيعية والاقتصادية) وهذه لها سمة عالية لا ينكرها أحد ، وفى الجانب الآخر نجد كليات وجامعات صغيرة ذات مستو علمى أقل من ييل وهارفارد كولومبيا مثلا . هناك مستويات مختلفة ، كما هى الحال فى كثير من أقطار العالم حيث توجد جامعات ممتازة وأخرى هزيلة .

ويفخر الأمريكيون بأنهم يتيحون فرص التعليم بدرجة أعلى مما تتيحه دول أخرى — هذا ما يقولون — ففى المدن نجد أن ٥٠٪ من خريجى المدارس الثانوية يلتحقون بالجامعات ، وهى نسبة عالية ، بل إن الفرص متاحة الآن للأطفال فى سن ما قبل المدرسة الابتدائية ، وخاصة لهؤلاء الأطفال الأمريكيين من بيئات فقيرة . وهناك اليوم برنامج سن Headstart يعد الأطفال للمدرسة الابتدائية .

وتكاد تنفرد المدرسة الأمريكية بسياستها فى ترك الطالب يتخير مواد دراسية يريدها ، وإن كان الاتجاه اليوم إلى تكليف التلاميذ المتفوقين بأخذ مواد معينة . ليس هناك إذن ما يسمى بمنهج السنة الثانية ثانوى يأخذه كل التلاميذ والتلميذات . هناك مواد دراسية مطلوبة أى إجبارية ، والباقى عديد يتخير منه الطالب ما يريد . ويخضع المتقدمون للجامعات إلى مجموعة امتحانات تقيس قدراتهم العقلية إلى جانب سجلهم فى المدرسة الثانوية .

وقد هوجمت التربية الأمريكية أيضاً من زاوية المعلمين ومؤهلاتهم ، وأن بعضهم لا يحملون مؤهلات تعطيهم إمكانيات التدريس . ولكن الأمريكيين يدافعون عن موقفهم قائلين إن ثلاثة أرباع المعلمين من خريجى الجامعات والكليات ، ومهما كانت شهاداتهم ذات مستوى — قد يكون منخفضاً — فهى أعلى من مستوى الشهادات التى تمنح فى القارة الأوروبية وغيرها لمن يقومون بالتعليم فى مرحلة ابتدائى . ويرد المهاجمون قائلين إن ما يدرسه المعلم قبل تخرجه فى أمريكا يهتم أكثر بالمواد المهنية (التربوية) ، وقلة فى مادة تخصصه والتى سيدرسها لتلاميذه بعد تخرجه . وبذلك يولى المدرسون الأمريكيون أهمية أكثر إلى عملية تكيف التلميذ للحضارة التى يعيش فيها ، وهذا على حساب تقدمه فى المواد الدراسية .

وقد ظلت التربية الأمريكية أسيرة الدوجما الديوية ، وأى دوجما (أفكار مثبتة) مهما كانت رائعة فهى خطيرة ، لأنها تحجب التفكير فى التغيير ، والتغيير حتمى الحدوث وإلا حل التخلف . على أن الدوجما الديوية لها صفات باقية ومستمرة فى البقاء ، منها :

١ — القول بأن على المدرسين معرفة تلاميذهم وكيف ينمون .

٢ — إعداد المتعلمين للحياة الحاضرة الراهنة فى بيئاتهم .

بل إن الفكرة الديوية ترى أن التربية حياة وليست إعداد للحياة . كأن يحيا الطفل اليوم ، ويعرف كيف يحيا ، فهو بهذا يعد نفسه للمستقبل . بل إن الدوجما أدت إلى إهمال الموهوبين والمتفوقين ، الأمر الذى أصلحه الأمريكيون

فى العشرين سنة الماضية . كما أنهم أعادوا النظر فى مدارسهم الثانوية و طعموها الدراسات المهنية .

وفى محاولة لإبراز أوجه التشابه بين التربية الأمريكية والسوفييتية نجد أن كليهما ضخم عملاق ، كليهما يهتم بالدراسات المهنية ذات المستوى العالى . ثم اهتمام بالطفل ، وتركيز على عمليات التطبيع الاجتماعى ، ودور التربية فى المجتمع . ولعل من أبرز أوجه الاختلاف بين التربيتين هذه الحرية التلقائية الموجودة فى المدارس الأمريكية ، حرية قد تصل — بل وقد وصلت — أحياناً إلى فوضى مدللة ، وخضوع المعلمين للمتعلمين ، وتحكم أولياء الأمور فى المدارس ...

